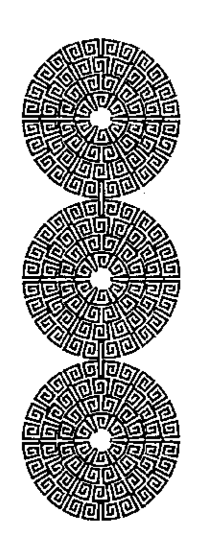
إفلاس العلمانية

أمام الصحوة الدينية الكونية

كتبه

د. مصطفى حلمي

الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة



إفلاس العلمانية

أمام الصحوة الدينية الكونية



الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع

٢٨٢٥٥/٢٠١٧م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-6546-36-3



0112 0774 990
0100 0282 166
Daralamal2014@gmail.com

إفلاس العلمانية

أمام الصحوة الدينية الكونية

تأليف

د/ مصطفى حلمي

أستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



بسم الله الرحمن الرحیم

مُقَــدّمَة

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

وبعد،،

فإن هذا الكتاب يتضمن دراسة متكاملة لإحدى القضايا الهامة التي شغلت المثقفين عامة، والإسلاميين خاصة، وكانت موضوع حوارات ومناقشات بينهم، وهي قضية العلمانية، ومدى صلتها بالعقائد الدينية؛ إذ لاحظتُ أن بعض الدراسات الغربية خلصت إلى القول بأن الصحوة الدينية في العالمين الإسلامي والغربي قد حسمت القضية لمصلحتها، وأن الزعم بعلمانية الغرب أمر يناقضه الواقع المشاهد؛ إذ كانت موضوع دراسات شاملة أدت بالباحث الفرنسي جيبل، في دراسته لظاهرة الصحوة الدينية الآخذة في النمو والانتشار، إلى التصريح علنًا (بإفلاس العلمانية)!

وكذلك هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية، بكتابه الشهير (صراع الحضارات) خلص إلى استنتاج أنه في النصف الثاني من القرن العشرين، حدثت صحوة دينية كونية، هذه الصحوة انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة في الواقع، معللًا إياها بأنها انفجار أزمة هوية، فأينما ننظر نجد الناس يتساءلون (من نحن؟)، (لمن ننتمي؟)، (من هو الآخر؟)...

ومن ثمّ نجم عنها إحياء الدين كظاهرة عالمية كونية، وبروز حركات أصولية، ويرى أن المسيحية هي المكون الأساسي للحضارة الأوروبية، وكانت له عناية خاصة أيضًا بالصحوة الإسلامية وإبراز معالمها.

وسجلت عالمة الأديان الإنجليزية بجامعة أكسفورد كارين آرمسترونج ظاهرة عودة الغرب برمته إلى الدين، ووصفته بالانفجار المفاجئ للدين الذي بدا صادمًا للمؤسسة العلمانية، وزودتنا بمعلومات غزيرة عن رجال الدين في الولايات المتحدة أمثال: سواجارت، وفولويل، وربرتستون، وهم روّاد ما أطلقت عليه اسم (الإنجيلية المتلفزة)، وقد حققوا نجاحًا للإمبراطورية التليفزيونية المسيحية(١)، وهو ما يفسر الانتشار الواسع للمحافظين الجدد، ويعيد إلى الأذهان العقيدة التي كانت سائدة في القرن السادس عشر، أي العقيدة اليمينية ببعدها السياسي والديني؛ لأنها جعلت من الدين مكونًا أساسيًّا للسياسة الخارجية الأمريكية(٢).

لذلك عنيتُ بالتثبّت من صحة هذا الحكم، فأخذتُ أتتبّع الأصولية في اليهودية والمسيحية، ومظاهر يقظتها، والتعرّف على أهدافها، وما حققته من نتائج في صراعها مع العلمانية.

وفي المقابل، عرضتُ لظاهرة الصحوة في العالم الإسلامي بعامة، ثم اتّخذتُ من الصحوة الإسلامية في تركيا نموذجًا يستحق الدراسة لما اختُصّت به من عوامل سياسية ودينية وثقافية، وما أصاب شعبها بسبب ثورة عسكرية لا دينية وتغريبية عنيفة دفعته دفعًا إلى الارتماء في أحضان حضارة الغرب، وقطعت صلته بتراثه وتاريخه وشريعته وقيمه الإسلامية! بل إن تركيا هي البلد الإسلامي الوحيد الذي فُرض عليه (النظام

---

(١) كارين آرمسترونج «معارك في سبيل الإله.. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام» (ص٤١٣-٤١٤)، ترجمة د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، كتاب سطور بالقاهرة ط سنة ٢٠٠٠م.

(٢) د. عمرو الشوبكي «الأصولية» (ص٦٦) ط. نهضة مصر يوليو ٢٠٠٧م.

اللاديني) بالسلاح وحده، وقد قام على أشلاء المجاهدين المقهورين، وكان يستند إلى الإرهاب السافر أو المقنّع، فيعامل معارضيه بالقهر والكبت[(١)].

إن الشيخ محمد الغزالي يرى أن الدولة التركية في عصر أتاتورك ارتدّت عن الإسلام[(٢)]، وما كان لأحدٍ من مؤرّخي هذه الفترة التاريخية الكئيبة الظنَّ بأن الشعب التركي سيتمكن من استرداد هويته الإسلامية مرة أخرى، أو أن يظهر من بينه من يتزعَّم حركة التأصيل المرجوة[(٣)].

ولكن مرّت الأعوام تلو الأعوام وظهرت المفاجأة المذهلة التي لم يتوقعها أحد ممن عاش وتابع الأخدود الذي شقه أتاتورك وحزبه في المجتمع التركي المسلم؛ حيث مكّن أتباعه من السلطات العسكرية والقضائية وأجهزة الدعاية والإعلام، وأخذ يقضي على أصوات المعارضين ويحاكمهم عسكريًّا، وكان مصيرهم إما أعواد المشانق أو غياهب السجون. ولكن صبر أتقياء العلماء وصابروا -أمثال الإمام النورسي- وأدّوا أدوارهم لإنقاذ الدين في تلك المحن التي لم يسبق مثلها في تاريخنا، ويرجع اهتمامنا بالصحوة الإسلامية في تركيا أيضًا إلى ما أثاره الكماليون على نطاقٍ واسع، وبأبواق دعائية كاسحة، من الشبهات والمطاعن التي كان المستشرقون من اليهود والنصارى، المتضخمة قلوبهم بالحقد الأسود على الإسلام وأمته وشريعته ورسوله ﷺ، كانوا يثيرونها بالكتب، فانتقلت تلك المطاعن من صفحات الكتب المحدودة الضيقة التأثير إلى النشر والإذاعة

---

(١) محمد الغزالي «الإسلام في وجه الزحف الأحمر» (ص١٨٩). مكتبة الأمل - الكويت، رجب ١٣٨٦هـ- أكتوبر ١٩٦٦م.

(٢) نفسه (ص١٧٦).

(٣) ونعني به أرباقان -أو- أربكان الذي شكل مجموعة نيابية عام ١٩٧٠م، وخطط لحركة إسلامية قوامها «النظام العادل» على أساس تصوّره للإسلام بأنه نظام كليّ لا يتغير عبر تغيير جزئي، مع وضع القواعد الأساسية للاجتهاد الموافقة للعصر. د. محمد حرب «الأرباقانية... حركة نجم الدين أرباقان»، مجلة (المنار الجديد) أكتوبر ١٩٩٨م.

على أوسع نطاق، وظلّت تتردد بواسطة عدّة أجيال، بل انتقل عدواها إلى بعض البلاد العربية والإسلامية[1]، وشُغل المثقفون فيها بالمعارك العلمية حول القضايا التي أثارها أتباع أتاتورك، ومنها: أن طريق التقدّم والنهضة الوحيد هو تقليد الغرب واعتناق فلسفته وتطبيق نظمه في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية، مع اتهام الشريعة الإسلامية بالجمود والعجز عن إيجاد حلول لمشاكل العصر الحديث وتطوراته فالشريعة والمعاصرة في ظنّهم نقيضان لا يجتمعان، ويأتي على رأس القائمة ضرورة الفصل بين الدين والدولة، مع استبعاد الدين عن السياسة وحصره داخل المساجد للعبادات والمواعظ فلا يخرج منها، وذلك أسوة بما فعلته دول أوروبا.

لذلك رأيتُ من الضروري مناقشتهم وبسط حجج علماء المسلمين الذين عارضوهم، وحرصوا على مدافعتهم وبيان جهلهم.

هذا، وقد راعيتُ فيما كتبت أمر الله تعالى بقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، مستخدمًا المنهج العلمي الموضوعي، ودعم القضايا بالحجج والبراهين مع الرجوع إلى المصادر والمراجع الموثوق بها؛ إذ من أهداف الكتاب توجيه كلمة هادئة إلى العلمانيين.

---

(١) وأولها مصر... إذ قصّ الأستاذ العلامة مصطفى صادق الرافعي ذلك بقوله: «وأول من صرَّح به في مجالسنا من غير المسلمين شاب إسرائيلي ذكي، سمعنا نتكلم في مسألة كتاب الشيخ علي عبد الرازق عقب ظهوره، وكونه ينصر دعاية الإلحاد الجديدة، فقال: ليست المسألة مسألة كتاب ألفه شيخ مسلم في محاربة الإسلام، فلو كان هذا كل ما تشكو منه لهان خطبه، ولكن المسألة كل المسألة هي التنازع بين (الجامعة المصرية) و(جامعة الأزهر)، فإذا غلبت الثانية بقيت هذه البلاد إسلامية، وإذا انتصرت الأولى لحقت مصر بالبلاد التركية وانقضى عصر الإسلام فيها»، وكان الحديث بمناسبة الضجة التي أحدثها طه حسين بكتابه «في الشعر الجاهلي». مصطفى صادق الرافعي «تحت راية القرآن» (ص٢٥٨-٢٥٩)، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

وإني لعلى يقين بأن كل من أخلص النيّة في تحرّي الحق والانصياع له، سيعيد النظر فيما ظنّه بأن العلمانية هي طريق التقدّم والنهضة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الموّفق وهو المعين، وهو الهادي إلى سواء السبيل، ونسأله تعالى أن يجعل عملنا في هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا به المسلمين، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وصلَّ الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم

مصطفى بن محمد حلمي

٣ ذو القعدة ١٤٣٨هـ

٢٦ يوليو ٢٠١٧م



مقدمة تحليلية في موضوع الدراسة

عـرض أبــرز الآراء حــول ظـاهــرة انبعاث
الأصوليات الدينية في الغرب، ونزع العلمنة
عن العالم في القرن العشرين

تمهيد

قبل عرض نتائج الصراع الطويل الذي دار بين العلمانية والحركات الدينية في الغرب، وانتهى بانتصار الأخيرة نرى -إحقاقًا للحق- إنه كان لبعض كتّابنا وعلمائنا فضل السبق في الكشف عن العلاقة بين الدين والسياسة في الغرب، بالرغم من ارتفاع أصوات العلمانيين، وطغيان فلسفة «الاشتراكية العلمية» كطريق وحيد للتقدّم والنهضة، وكانوا غرباء وسط الضجة الإعلامية المعادية للدين، المطالبة بتطبيق العلمانية؛ إذ لم يخف عليهم سلطان الكنيسة في توجيه السياسة الداخلية للمجتمعات الأوروبية الحديثة، بل علاقة هذه الشعوب بعضها ببعض، ومن الأحزاب التي نشأت في الغرب من يحمل اسم الأحزاب المسيحية مثلما هو موجود في بلجيكا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا، وتتلقى هذه الأحزاب التوجيه والمساعدة من الكنيسة، كذلك المنظمات الدينية التي نشأت كالجزويت والفرير والبعثات التبشيرية والجامعات المتخصصة والأندية المتعددة في المجالات الأدبية والسياسية والاجتماعية.

أضف إلى ذلك نشاط الفاتيكان السياسي؛ حيث له إذاعة خاصة وصحيفة رسمية وتمثيل سياسي في معظم دول العالم، وهي كلها تقدم على توجيه المسيحية في جميع أنحاء العالم، وتدلي برأيها في المسائل السياسية العالمية؛ مما جعل نفوذ الكنيسة عامًّا على البلاد المسيحية[١].

ويقول الأستاذ محمد جلال كشك: «إن فرنسا وبريطانيا وأمريكا وإيطاليا وألمانيا تعجُّ بالكنائس، وبها ملايين المؤمنين، ورغم كل ما يقال عن فصل الدين عن الدولة، فإن

(١) يوسف كمال محمد «مستقبل الحضارة بين العلمانية - الشيوعية - الإسلام» (ص١٧). ط. المختار الإسلامي بمصر ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

التقاليد الدينية تُحترم، وهذه البلاد بالذات أكثر بلدان العالم اهتمامًا بالتبشير، وازدهارًا للجمعيات التبشيرية»[١].

ويقول الدكتور عبد العزيز مصطفى كامل: «وعلى الرغم من العلمانية الظاهرة في الحياة الغربية، فإن الكنائس تظل مصدرًا مهمًّا للمؤثرات الخلقية والثقافية والعقائدية في تلك المجتمعات، ولقد أوجدت في العقود الأخيرة تيارًا متحمسًا للدين، ومتلهفًا إلى سَدِّ الفراغ بروحانياته ومثالياته»[٢].

وكان العامل الديني بارزًا بشكل صارخ في إسرائيل؛ إذ تعتمد على الشعور الديني والتعصب الديني عند الجماهير اليهودية كي تحقق استراتيجية استعمارية، وهي بناء الإمبراطورية العالمية لليهود... ويتضح لكلِّ من يراقب سلوك الشعب هناك الحرص على أداء الشعائر الدينية؛ إذ عقب هزيمة ١٩٦٧م احتشد بضعة ألوف من اليهود في ساحة حائط المبكى للاستماع إلى نفخ البوق، إيذانًا بانتهاء صوم عيد «الغفران»، وغضت «الكُنس» في جميع أنحاء إسرائيل بالمصلين.. وكان نصف المصلين في الخليل من العسكريين، وقال الحاخام الأكبر: «إن كل ما وعدنا به أنبياء التوراة يتحقق»[٣].

وصرح بن جوريون علنًا: أن على إسرائيل أن تتمسك بمبادئ العبرانيين القُدامى... وأنها ستحقق وجودها عندما تصبح (كسارية على رأس جبل) بالنسبة إلى أمم العالم، ناقلًا هذا القول عن نبيه المفضّل «أشعيا».

---

(١) محمد جلال كشك «النكسة.. والغزو الفكري» (ص١٦٢-١٦٣)، ط٢ دار الكاتب العربي - بيروت ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

(٢) عبد العزيز مصطفى كامل «قبل الكارثة نذير ونفير» (ص٢٣٨)، كتاب المنتدى الإسلامي. لندن ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٣) محمد جلال كشك «النكسة... والغزو الفكري» (ص١٢٣)، (ص٢١١).

(وتنقل وكالات الأنباء العالمية تصريحاته بكل اهتمام عن التمسك بمبادئ الأنبياء... بل تضيف من أرشيفها أن أشعيا هو نبي بن جوريون المفضل)[١].

هكذا علنًا! ولم يجرؤ أحد حينذاك أن يصفه بالرجعية والتخلف!!

أضف إلى ذلك أن اليهود في إسرائيل لا يتخذون من العقيدة سلاحًا في ميادين القتال فحسب، بل يطبّقون دينهم في حياتهم اليومية والاجتماعية والسياسية وكافة أنشطتهم.

يقول الأستاذ محمد جلال كشك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «إن الدين عندهم يتدخل حتى في طهي الطعام ويحرّم على جيشهم -أكبر قوة عدوانية في الشرق الأوسط- يحرم عليه أكل الطبيخ يوم السبت، ويستصدرون فتوى خاصة من الحاخام الأكبر تتيح لهم طهيه يوم الثالث من حزيران! بل يصدر تشريع رسمي يبيح ركوب وسائل النقل يوم السبت (إذا كان هناك خطر على الأمن القومي).. وتلتزم جميع طائرات «العال» وسفن شركة «زيم» بوجود مطبخ شرعي فيها «كوشير» وتحريم تقديم لحم الخنزير... ومن الطريف أن دار الحاخامية درجت على منح بركتها القدسية فقط لتلك الفنادق التي أخذت على نفسها عهدًا بالاقتصار على مطبخ «الكوشير» وحده، وتعهدت أيضًا بمنع التدخين والرقص والموسيقى يوم السبت، ومنع السباحة المختلطة في أحواضها خلال الأيام العادية (طعام الكوشير هو الطعام المباح أكله في الشريعة اليهودية)... في دولة اليهود محرم تربية الخنزير أو أكله... وفيها قانون بالتعليم الديني في المدارس.. ولا تجد ملحدًا يعارض تربية الخنزير في إسرائيل.. (ليس تعصبًا ولا دروشة.. بل لأن التنكّر للدين، هو خيانة للوجود.. فالحضارة هي الدين.. لذلك يحترم الملاحدة اليهود، شريعة التوراة؛ لأنهم يعرفون أنه بدونها لا ينتصرون»[٢].

---

(١) محمد جلال كشك «النكسة... والغزو الفكري» (ص١٢٧).

(٢) محمد جلال كشك «النكسة... والغزو الفكري» (ص١٨٠).

وكان هذا الشرح في بيان حرص اليهود على تنفيذ شريعتهم، ردًّا للأستاذ جلال كشك على مضمون كتاب الدكتور «نديم البيطار» الكاتب السوري بعد نكبة يونيو ١٩٦٧م بعنوان (من النكسة.. إلى الثورة»؛ إذ قال فيه: «مأساة الموقف العربي الثوري، أنه لا يزال خاضعًا إلى حدٍّ كبير إلى تلك الأبعاد العقلية النفسية الغيبية على الرغم من التحرر الذي يزعمه هنا وهناك على صعيد الوعي...

أما هذه الأبعاد فهي: (أن الدين يتسرب إلى الحياة العربية في جميع أبعادها، جميع تفاصيلها وعناصرها، فهو لا يقتصر على تحديد علاقة الإنسان بالله، بل يحدد قواعد واضحة للسلوك في جميع العلاقات التي تتشكّل فيها الحياة، فلا يترك شاردة أو واردة دون تعيين طبيعتها، وكيفية ممارستها، من الأكل والزواج إلى الصلاة والصوم، هذه كلها أحكام من الله)»[١].



(١) نفسه (ص١٧٨).

ويقول جلال كشك ساخرًا: «صدّقنا.. فما دخل الموقف الثوري ومأساته في الأكل والصوم والصلاة والزواج؟ ما تأثير ذلك على ترك الطائرات على مدارج المطارات... وإعلان سقوط القنيطرة قبل إتمام الجيش السوري مهمته؟ أية مأساة؟! ألا يحس الانتكاسيون بالخزي، ودين اليهود الذين انتصروا، وخلفوا لنا النكبة... يتدخل حتى في طهي الطعام؟!».

فصل

إفلاس العلمانية عند جمهرة من علماء الغرب

ربما يصدم هذا العنوان البعض، ونعني بهم الذين لم يتابعوا المعارك المتواصلة بين الأصولية الدينية والعلمانية طوال قرنين من الزمان، وما أفلست العلمانية حسب وصف الباحث الفرنسي جيبل، إلا بعد تطورات عميقة في الحياة الدينية والثقافية والسياسية، أسهم فيها رجال الدين والعلماء والفلاسفة لإعادة مكانة الدين مرة أخرى؛ حيث احتله طوال العصور الوسطى.

ويكاد يُجمع الباحثون المعنيون بأحوال العصر الحديث -اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا- على أن الأصوليين من اليهود والنصارى قد اكتسحوا في طريقهم العلمانية في صراعهم الطويل معها، وتكللت جهودهم بالنجاح.

وسنعرض في هذا الفصل لدراسات بعضِ علماء الغرب الذين اهتموا بظاهرة الصحوة الدينية ببلادهم، وهم:

١- جيل كيبل.
٢- كارين آرمسترونج.
٣- هنتنجتون.
٤- ميران مشيدولوف.
٥- مراد هوفمان.

١- جيل كيبل:

عندما اخترت عنوان الكتاب عن (إفلاس العلمانية أمام ازدهار الأصولية في العالمين: الغربي والإسلامي)، تقيّدتُ بما ورد بكتاب الباحث الفرنسي «جيل كيبل» الذي أدهشته ظاهرة حركات معاودة التنصير بالمجتمعات في أوروبا بجناحيها الغربي والشرقي؛ إذ قامت جماعات ومنظمات تسعى لإعادة خلق مجتمع مسيحي بعد «إفلاس العلمانية»... كذلك هناك أحزاب وحركات اجتماعية جعلت بعد أربعين سنة في روسيا بعد الإلحاد الرسمي، التأكيد على كاثوليكيتها، معيار هويتها السياسية[1].

(١) جيل كيبل «ثأر الله - الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث» (ص٥٩) ترجمة نصيرة مردة =

ويرصد هذا الكتاب العلاقات بين الدين والسياسة خلال العقدين الأخيرين، فمن الإسلام التوسطي (الذي شهد في الأعوام الأخير الثورة الشيعية في إيران، وولادة حركة حماس في فلسطين، وأخيرًا صعود الإنقاذ الإسلامي في الجزائر)، ثم ينتقل بدراسته إلى أمريكا البروتستانتية؛ (حيث لعبت الجماعات المعمدانية والإنجيلية دورًا بارزًا في انتخاب ثلاثة رؤساء دخلوا البيت الأبيض: كارتر وريغان وبوش) والرابع ترامب أيضًا، ومرورًا بالكاثوليكية في أوروبا الغربية والشرقية (حيث مارست الكنيسة تأثيرًا كبيرًا في التحولات الأخيرة لاسيما في بولندا) واليهودية في إسرائيل؛ حيث أصبح للأحزاب التوراتية موقعًا مقررًا في سياسة الدولة وحياة المجتمع منذ صعود تحالف «الليكود» إلى السلطة، ولكنه لم يرصد أيضًا الصحوة الإسلامية في تركيا؛ لأن معالمها لم تكن ظهرت وقت صدور الكتاب.

وهكذا، انبعثت الظاهرة الدينية واختلطت بالمشاريع والحركات السياسية معيدة الاعتبار إلى ما كان قد جرى تنحيته ووضعه في ذمّة التاريخ منذ انتصارات الحداثة وقيم العصر التكنولوجي.

وتبدو الحركات الدينية اليوم بمثابة حركات احتجاجية على وضع الإنسان في العالم، وتقدم نفسها كبديل عن اليوتوبيات والأيديولوجية العلمانية الكبرى: القومية الليبرالية والشيوعية، فإذا كانت العلمانية قد اعتبرت الدين بمثابة لحظة عفى عليها الزمن فها هو الخطاب الديني اليوم يضع (العلمانية) وقيمها وإنجازاتها موضع تساؤل وشك، بل موضع اتهام ومقاضاة ويحملها مسئولية الحروب والكوارث والظلم .. إلخ نتيجة الابتعاد عن الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن جيل كيبل خلط كغيره من الباحثين -مثلما فعلت آرمسترونج- بين

=دار قرطبة - ليماسول ط٢، ١٩٩٨م. مع التحفظ في إطلاق (الأصولية) على حركة الصحوة الإسلامية كما سيأتي.

الأصولية في الديانتين اليهودية والنصرانية، وبين الإسلام؛ لأنه لا يوجد في اللغة العربية (مقابل حقيقي لمصطلح الأصولية -وهو مفهوم خاص بالبروتستانتية- ومن ثمّ لا يجوز تطبيق هذا المصطلح على الإسلام)[١]. ويقول الباحث الغربي نينيان سمارت الذي تنبّه إلى الفارق بينهما: «ليس من الحكمة أن نأتي بمقولة تمّت صياغتها من قبل ثم نطبقها على مثل هذه الظواهر (أي الحركات الإسلامية) خاصة حين نكون بصدد بحث تقليد ديني غير غربي مثل الإسلام»[٢].

ويرى الدكتور زغلول النجار كذلك أن مصطلح الأصولية هو مصطلح مضلل، وهو في الأصل مستعار من المسيحية البروتستانتية، وليس له وجود في لغات العالم الإسلامي[٣].

٢- كارين آرمسترونج:

التي تقول: «نجح الأصوليون حتى الآن في استعادة الدين من الهامش إلى مسرح الأحداث، ولهذا أصبح للدين مرة أخرى دور كبير في الشئون الدولية، وهو تطوّر لم يكن أحد ليتخيّله في منتصف القرن العشرين حين كانت العلمانية في تصاعد، وقد حدث تطور مماثل في المد الأصولي في العالم الإسلامي بدءًا من ١٩٧٠م»[٤].

وكانت ظاهرة عودة الدين كعامل مؤثّر في النظم الغربية موضع اهتمام كبير منها، فأخذت تتّبعها ومن ثمّ حشدت العديد من الواقعات والأسانيد، وألفت كتابيها (معارك

(١) د. عمرو الشوبكي «الأصولية» (ص٧)، ط. نهضة مصر ٢٠٠٧م.
(٢) نفسه.
(٣) د. زغلول النجار «الإسلام والغرب في كتابات الغربيين» (ص٣٧)، نهضة مصر، ط٥ أكتوبر ٢٠٠٧م.
(٤) كارين آرمسترونج (وهي عالمة أديان بجامعة أكسفورد) «مسيرة الإسلام» (ص٢٤٠)، ترجمة د. هشام الحناوي ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
ولا نوافقها على إطلاق الأصولية على حركة الصحوة الإسلامية، يُنظر كتابنا «الصحوة الإسلامية – عودة إلى الذات» ط. دار الأمل بالإسكندرية.

في سبيل الإله... الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام)[١]، و(القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث) لتأكيد هذه الظاهرة باتساعها وقوة نفوذها.

لذلك كلّه، فإنه من قبيل الاستخفاف بالعقول استمرار البعض بوصف حضارة الغرب بالعلمانية! فمن أقوال أرمسترونج: «من أبرز التطورات التي شهدتها السنوات الأخيرة من القرن العشرين وأشدها إثارة للفزع ظهور نزعة الكفاح الدينية، التي شاعت تسميتها بالأصولية في إطار كل دين من الأديان الرئيسية».

ففي إسرائيل كان أحد رجال الدين في إسرائيل -آميتال- ينطق بنظرية فحواها أن الرب سمح لحرب يوم كيبور أن تحذّر اليهود بوجوب العودة إلى أنفسهم، وكانت الحرب تذكرة لإسرائيل «الثملة بالغرب» بالقيم الحقة... وأن إسرائيل قد نجحت في هزيمة قوى الظلم، ومُنحت إسرائيل الأرض، وكل ما يتبقى قبل الخلاص الأخير، هو التطهير من بقايا أثر الروح العلمانية الأخيرة الغريبة على أرواح اليهود الذين عليهم العودة إلى دينهم، فقد دقت الحرب ناقوس **موت العلمانية**[٢].

أما عند أمريكا فتقول آرمسترونج: «ومن المفارقات العجيبة أن تتحول الولايات المتحدة -تلك الدولة العلمانية الجديدة- إلى أمة مشبوبة الإخلاص للمسيحية بحلول منتصف القرن التاسع عشر»[٣].

وبدراستها لأقوال أصحاب حركة الإحياء الجديدة من المتخصصين الذين درسوا وتخرجوا في جامعتي ييل وأكسفورد، وتأكيدهم بإصرار أنه من حق كل مسيحي أن يتولى

---

(١) كارين آرمسترونج «معارك في سبيل الإله»، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، ويقع في نحو ٥٠٠ صفحة، كتاب سطور بالقاهرة، ط. ٢٠٠٠م.

أما كتاب «القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث»، فيقع في نحو ٧٠٠ صفحة ط. سطور ١٩٩٨م.

(٢) نفسه (ص٤٠٢-٤٠٣).

(٣) نفسه (ص١٤٦).

تفسير الكتاب المقدس بنفسه، وفي قيادتهم للجماهير كانوا ينشدون الأناشيد الإنجيلية التي تصعد بالحاضرين إلى ذروة الانتشاء فيصيحون صيحات الفرح، كذلك كانوا يحثون الناس على كسر أغلال الخرافات والجهل والاعتماد على تفكيرهم المستقل.

وتستنتج آرمسترونج من كل هذه الأقوال والأفعال (أن الدين والسياسة قد أصبحا وجهين لعملة واحدة في الولايات المتحدة الجديدة، وكان كل منهما يصب بسهولة في الآخر، مهما تكن أقوال الدستور في الموضوع)[١].

٣- ثم أتى هنتنجتون

وهو أستاذ كرسي بجامعة هارفارد الأمريكية[٢] بكتابه (صراع الحضارات) فأخذ يتحدث فيه عن انبعاث الأصوليات الدينية في العالم، مشيرًا إلى النزاعات داخل روسيا وتركيا والمكسيك حول الهوية. كما صرّح بوضوح أن القوى الأوروبية يظهرون أنهم لا يريدون دولة إسلامية (يعني تركيا) في الاتحاد الأوروبي، ولا يسعدهم أن تكون دولة إسلامية أخرى (البوسنة) في القارة الأوروبية، وقد تتبع أحداث النصف الثاني من القرن العشرين مسجلًا أبرز ملامحه صحوة دينية كونية، هذه الصحوة، أو (ثأر الله) كما يطلق عليها (جيل كيبل) انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة في الواقع، وهي تهدف إلى استعادة أساس مقدس تنظيم المجتمع لا مجرد التكيف مع القيم العلمانية[٣].

كذلك رصد تغلغل الدين وانتشاره جليًا في الدول الشيوعية السابقة، وتدفق دعاة الإحياء الديني عليها من ألبانيا إلى ڤيتنام. وفي روسيا حدثت صحوة كبرى للأرثوذوكسية، وفي عام ١٩٩٤م أعلن ٣٠٪ من الروس تحت سن الخامسة والعشرين

---

(١) نفسه (ص١٥٠).

(٢) صامويل هنتنجتون «صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي» (ص٢٠٤)، ترجمة طلعت الشايب تقديم د. صلاح قنصوة ط. سطور ١٩٩٨م.

(٣) نفسه (ص١٥٨).

أنهم تحولوا من الإلحاد إلى الإيمان بالله. وزاد عدد الكنائس العاملة في منطقة موسكو من ٥٠ عام ١٩٨٨م إلى ٢٥٠ في عام ١٩٩٣م، وأصبح القادة السياسيون يحترمون الدين، والحكومات تدعمه... كذلك اجتاحت آسيا الوسطى صحوة إسلامية في نفس الوقت، ففي سنة ١٩٨٩م كان يوجد في آسيا الوسطى ١٦٠ مسجدًا عاملًا ومدرسة إسلامية واحدة، وفي أوائل ١٩٩٣م كان العدد قد أصبح عشرة آلاف مسجد وعشرة مدارس[١].

ثم يقول: «في النهاية وبشكل أعم، فإن الصحوة الدينية في أرجاء العالم هي رد فعل ضد العلمانية والنسبية الأخلاقية، والانغماس الذاتي، وإعادة تأكيد لقيم النظام والانضباط والعمل والعون المتبادل والتضامن الإنساني»[٢].

وفي إشارة إلى فشل علمانية أتاتورك سلّط الضوء على ما أطلق عليه «التوجهات الكمالية» نسبة إلى كمال أتاتورك؛ إذ اتّضح له أنها اختفت الآن من شرق آسيا، وأصبح الآسيويون يعزون نموهم الاقتصادي الكبير إلى التزامهم بثقافتهم الخاصة وليس إلى مستورداتهم من الثقافة الغربية، ويقولون إنهم يحققون نجاحًا؛ لأنهم مختلفون عن الغرب، توسلوا بالقيم الغربية لتحقيق الذات، وبالليبرالية والديمقراطية والاستقلالية لتبرير معارضتهم للسيادة الغربية لم يعودوا ضعفاء، بل إن قوتهم تتزايد باستمرار، والآن لا يترددون في الهجوم على نفس تلك القيم التي سبق أن استخدموها لتنمية مصالحهم. والتمرد على الغرب كان في الأساس يجد شرعيته من خلال توكيد عالمية القيم غير الغربية[٣].

وأصبح الآسيويون قدوة لغيرهم من المسلمين بأعدادهم الغفيرة؛ حيث يتوجهون نحو الإسلام كمصدر للهوية والمعنى والاستقرار والشرعية والقوة والأمل، وهو ما

---

(١) نفسه (ص١٥٩).
(٢) نفسه (ص١٦٢).
(٣) نفسه (ص١٥٣).

يسمى بالصحوة الإسلامية (وهي حدث تاريخي بالغ الأهمية يؤثر على خُمس البشرية أو يزيد، وأنه لا يقل أهمية عن الثورة الأمريكية أو الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية، وهو حدث يشبه أو يماثل الإصلاح البروتستانتي في المجتمع الأوروبي)[١].

ولكنه يجزم بأن الإسلام حسب تعبيره (وعي دون تماسك) ويسهل ضربه والفرصة مواتيه؛ لأنه إذا لملم أشتاته وتماسك مع هذا الوعي الذي يكمن في داخله، صار خطرًا على العالم، خاصة العالم المسيحي -الكاثوليكي البروتستانتي- أي العالم الغربي تحديدًا، وقد سبق أن فعل الإسلام ذلك بحسب مقولة برنارد لويس: «إذ جعل الإسلام وجود العالم الغربي موضع شك لمدة ألف عام»، ويقصد الألفية التاريخية من القرن السابع إلى السابع عشر الميلادي[٢].

فما المقصود باليقظة الدينية الكونية عند صامويل هنتنجتون بكتابه (صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي)؟

بعد العرض الموجز لآرائه بالصفحات السابقة رأينا من الأصوب عرضها بشيء من التفصيل؛ إذ عالج الكتاب كثيرًا من القضايا، وسنعرض بإيجاز لما يتصل منها بحديثه عن انبعاث الأصوليات الدينية، وعودة الصليبية بواسطة الصرب في حربهم للبوسنة وأهلها المسلمين.. توقعاته عن انتهاء السيادة الغربية بسبب اضمحلال الغرب وصعود مراكز قوى أخرى، مما سينمي عمليات التأصيل الكونية والعودة إلى المحلية وصحوة الثقافات غير الغربية؛ إذ شهدت التسعينيات انفجار أزمة هوية كونية، فأينما نظر نجد الناس يتساءلون: (من نحن؟)، (لمن ننتمي؟)، (من هو الآخر؟)... والقوى

(١) تعليق مترجم الكتاب الأستاذ طلعت الشايب (ص١٨٠).
(٢) د. عبد الرحمن النقيب «مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية» (ص٣٣)، دار السلام ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

الأوروبية يظهرون صراحة أنهم لا يريدون دولة إسلامية أي تركيا في الاتحاد الأوروبي، ولا يسعدهم أن تكون دولة أخرى (البوسنة) في القارة الأوروبية.

إن الصحوة الثقافية في الثقافة الكونفوشية العلمانية تتخذ شكل توكيد القيم الآسيوية، ولكنها في بقية العالم تعبر عن نفسها بتوكيد القيم الدينية، وكما يلاحظ «جورج ويجل» فإن «نزع العلمنة عن العالم، هو إحدى الحقائق السائدة في أواخر القرن العشرين».. الحركات الأصولية مثيرة ويمكن أن يكون لها أثر سياسي واضح، وهي ليست سوى الأمواج السطحية على المدّ الديني الأوسع والأعمق والذي يعطي شكلًا مختلفًا للحياة الإنسانية في نهاية القرن العشرين.

تجديد الدين في أنحاء العالم يتخطى بكثير نشاطات الأصوليين المتطرفين، ويتجلى ذلك في الحياة اليومية للناس واهتمامات وخطط الحكومات في مجتمع بعد آخر.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين، حدثت يقظة أو صحوة دينية كونية، انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة في الواقع.

ويرى المؤلف أن الدين هو أهم عامل بين العوامل الموضوعية التي تعرّف الحضارات، وأن المسيحية هي المكوّن الرئيسي للحضارة الغربية، مؤكدًا أن المفاهيم والقيم والممارسات المسيحية متغلغلة في الحضارة الأوروبية؛ إذ يقول أحد السويديين: «ربما كان السويديون أكثر الناس تدينًا في أوروبا، ولكنك لن تفهم هذا البلد أبدًا إلا إذا أدركت أن مؤسساتنا وممارساتنا الاجتماعية وأسرنا وسياستنا وأساليب حياتنا كلها متأثرة بتراثنا اللوثري».

بعد أربعة عقود من الحرب العالمية الثانية، ظهرت آثار الزيادة الكبيرة في جيل الأطفال في مظاهرات واحتجاجات الطلاب في الستينيات. شباب الإسلام لهم علامتهم الواضحة في الصحوة الإسلامية، عندما بدأت الصحوة في السبعينيات وقويت شوكتها

في الثمانينيات كانت نسبة الشباب (بين ١٥ و ٢٤ سنة) في معظم البلاد الإسلامية قد ارتفعت بشكل كبير، وبدأت تتخطى نسبة الـ٢٠٪ من عدد السكان، ويذكر أيضًا أن قوة الصحوة أقنعت الحكومات بتبني المؤسسات والممارسات الدينية.. وفي الثمانينيات والتسعينيات اندفع الزعماء السياسيون لتوحيد أنظمتهم وأنفسهم بالإسلام:

* الملك حسين ملك الأردن، كان مقتنعًا بأن مستقبل الحكومات العلمانية في العالم العربي قليل، وكان يتكلم عن الحاجة إلى إقامة «ديمقراطية إسلامية».
* -الملك الحسن في المغرب كان يؤكد على أنه من سلالة النبي محمد ﷺ، كما راح يؤكد دوره «كأمير المؤمنين».
* سلطان بروناي الذي لم يعرف من قبل بأي ممارسات إسلامية أصبح «شديد الورع» وراح يعرف نظامه بأنه «ملكية ملايوية إسلامية».
* (بن علي) في تونس بدأ يتوسل إلى الله بانتظام في خطبه و(أزلف نفسه في عباءة الإسلام) ليختبر الميل المتزايد للجماعات الإسلامية.
* في أوائل التسعينيات تبنى «سوهارتو» صراحة سياسة أن يصبح «أكثر إسلامًا».
* في بنجلاديش تم إلغاء مبدأ «العلمانية» من الدستور في منتصف السبعينيات، وفي أوائل التسعينيات كانت الهوية العلمانية الكمالية في تركيا تواجه تحديًا كبيرًا لأول مرة. وبغرض إبراز التزامهم الإسلامي هرع رؤساء الحكومات -أوزال، سوهارتو، كريموف- لأداء فريضة الحج.
* حكومات الدول الإسلامية عملت من أجل أسلمة القانون في إندونيسيا؛ حيث تم دمج المفاهيم والممارسات القانونية الإسلامية في النظام القانوني العلماني، وتعبيرًا عن حجم عدد سكانها الكبير من غير المسلمين، تحركت ماليزيا بالعكس نحو تبني نظامين قضائيين منفصلين: أحدهما إسلامي والآخر علماني.

* في باكستان، وفي عهد الجنرال «ضياء الحق» بذلت جهود كبيرة لأسلمه القانون والاقتصاد. أدخلت الحدود الإسلامية، وأقيم نظام للمحاكم الشرعية، وأعلنت الشريعة الإسلامية قانونًا أعلى للبلاد.

ويوافق هنتنجتون على الرأي القائل بأن الإحياء الإسلامي هو نتيجة انهيار قوة وهيبة الغرب... فمع فقدانه لسطوته، فقدت مُثُلُهُ ومؤسساتها بريقها.

أما عن العلاقة المتدهورة بين الغرب والمسلمين فإنه يصورها على النحو التالي:

كان زعماء المسلمين في الماضي يقولون لشعوبهم أحيانًا: «لابد أن نتغرب»، ولو قال ذلك أي قائد مسلم في الربع الأخير من القرن العشرين لابد أن يكون حالة فردية. والحقيقة أننا من الصعب أن نجد عبارات مديح للقيم والمؤسسات الغربية على لسان أي مسلم سواء من السياسيين أو الرسميين أو الأكاديميين أو رجال الأعمال. إنهم بدلًا من ذلك يؤكدون على الاختلافات بين حضارتهم والحضارة الغربية وعلى تفوق ثقافتهم والحاجة إلى الحفاظ على ثبات تلك الثقافة ضد الهجوم الغربي. فالمسلمون يخشون ويمتعضون من القوة الغربية وما يمثله ذلك من خطر بالنسبة لمجتمعاتهم(١).

ويرى أن العداء الإسلامي المتزايد للغرب يمكن مقارنته بالقلق الغربي المتزايد من «الخطر الإسلامي» المتمثل في التطرف، إنهم ينظرون إلى الإسلام كمصدر للانتشار النووي والإرهاب، وإلى المسلمين كمهاجرين غير مرغوب فيهم في أوروبا(٢).

إن القادة السياسيين في الغرب بما فيهم المستشار الألماني ورئيس الوزراء الفرنسي، عبّروا عن مخاوف مماثلة مع السكرتير العام لحلف شمال الأطلنطي معلنين عام ١٩٩٥م

---

(١) «صدام الحضارات» (ص٣٤٥).
(٢) نفسه (ص٣٤٨).

أن الأصوليين الإسلاميين كانوا «خطرين مثل الشيوعيين على الأقل»، كما أشار عضو «رفيع المستوى» في إدارة كلينتون إلى الإسلام كمنافس كوني للغرب[(١)].

الإسلام والغرب:

تحت هذا العنوان استهل هنتنجتون عرضه التاريخي المسهب لهذه العلاقة بكلمة لرئيس أمريكا الأسبق كلينتون قال فيها: «إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أي مشكلة، وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين».

ويرد عليه معترضًا بقوله: «أربعة عشر قرنًا من التاريخ تقول عكس ذلك... صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة، إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية»[(٢)]. أي يتهمه بالجهل بوقائع التاريخ الصحيح!!

وأخذ يسرد تاريخ الحملات الصليبية التي بدأت عام ١٠٩٥م، ثم ظهور الأتراك العثمانيين واستيلائهم على القسطنطينية في ١٤٥٣م، وحاصروا ڤيينا في ١٥٢٩م، ثم أورد ملاحظة «برنارد لويس» وهي أنه لمدة ما يقرب من ألف سنة... كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام[(٣)].

فالإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك، وقد فعل ذلك مرتين.. وبحلول القرن الخامس عشر، بدأ المد ينقلب، فالمسيحيون -بالتدرج- استعادوا أسبانيا عام ١٤٩٢م، وفي نفس الوقت استطاعت الملاحة البحرية البرتغالية تطويق الأراضي الإسلامية، وعندما قام العثمانيون باندفاعة أخيرة لمحاصرة ڤيينا عام

---

(١) نفسه (ص٣٤٩).
(٢) «صدام الحضارات» (ص٣٣٨).
(٣) نفسه (ص٣٣٩).

١٦٨٣م وفشلوا، كان ذلك بداية انحسارهم، وقامت الشعوب الأرثوذكسية في البلقان بالثورة ضد الحكم العثماني وتقدم الروس نحو البلقان والقوقاز... وفي ظرف قرن تقريبًا كان «جلَّاد المسيحية» قد أصبح «رجل أوروبا المريض»[١].

ويعلل هنتنجتون الصراع بين الديانتين بالاختلاف بينهما فإن مفهوم الإسلام كأسلوب حياة متجاوز ويربط بين الدين والسياسة، ضد المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر[٢].

ويرى أن هناك مجموعة متشابهة من العوامل زادت من الصراع بين الإسلام والغرب في أواخر القرن العشرين، وهي:

أولًا- خَلَّفَ النمو السكاني الإسلامي أعدادًا كبيرة من الشبان العاطلين والساخطين الذين أصبحوا مجندين للقضايا الإسلامية، ويشكلون ضغطًا على المجتمعات المجاورة ويهاجرون إلى الغرب.

ثانيًا- أعطت الصحوة الإسلامية ثقة متجددة للمسلمين في طبيعة وقدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة مقارنة بتلك التي لدى الغرب.

ثالثًا- جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكري والاقتصادي، والتدخل في الصراعات في العالم الإسلامي تولد استياءً شديدًا بين المسلمين.

رابعًا- سقوط الشيوعية أزال عدوًّا مشتركًا للغرب والإسلام، وترك كلًّا منهما يصبح الخطر المتصور للآخر.

---

(١) «صدام الحضارات» (ص٣٤٠).

(٢) نفسه.

خامسًا- الاحتكاك والامتزاج المتزايد بين المسلمين والغربيين يثير في كل من الجانبين إحساسًا بهويته الخاصة، وكيف أنها مختلفة عن هوية الآخر[١].

مظاهر اضمحلال حضارة الغرب:

ومن القضايا التي خاض فيها هنتنجتون في كتابه (قضية مآل الحضارة الغربية وآراء الفلاسفة والمؤرخين وتوقعاتهم عن مصيرها).

إنه يرى أن انهيار الغرب التدريجي وغير المنتظم، والذي بدأ في بداية القرن العشرين قد يستمر لعدة عقود وربما لقرون قادمة، أو قد يمر الغرب بفترة يقظة ويقلب نفوذه المتدهور في الشئون العالمية، ويعيد تأكيد وصفه كقائد تتبعه وتقلده الحضارات الأخرى[٢].

ويعرض لرأي «كارول كويجلي» وفحواه:

إن الحضارات تستطيع أن تتجدد وأن تصلح من شأنها... القضية الرئيسية بالنسبة للغرب هي إذا ما كان قادرًا على إيقاف وقلب عمليات التآكل الداخلي، بصرف النظر عن أيِّ تحدٍّ خارجي.

هل يستطيع الغرب أن يجدد نفسه، أم تراه يتفاقم العفن الداخلي ويعجل بنهايته أو تبعيته لحضارات أخرى أكثر حيوية اقتصاديًّا وديموغرافيًّا؟

ويرى كويجلي أنه كانت لدى الغرب في منتصف التسعينيات سمات الحضارة الناضجة الموشكة على الانهيار وذلك لسببين:

الأول- من الناحية الاقتصادية كان الغرب أغنى بكثير من أي حضارة أخرى، ولكن معدلات نموه الاقتصادي ومعدلات الادخار والاستثمار كانت منخفضة، وبخاصة إذا ما قورنت بمعدلات مجتمعات شرق آسيا.

---

(١) نفسه (ص٣٤٢).

(٢) «صدام الحضارات» (ص٤٨٨).

الثاني- النمو السكاني الطبيعي كان منخفضًا، وبخاصة إذا ما قورن به في الدول الإسلامية.

ويتدخل هنتنجتون معلقًا بقوله: «لا شيء من هذه المشكلات يمكن أن تؤدي إلى كارثة»، ويرى[١] أن هناك ما هو أهم من النواحي الاقتصادية والسكانية، وهي مشكلات الانهيار الأخلاقي والانتحار الثقافي والتفكك السياسي في الغرب. إن تجليات الانهيار الأخلاقي التي يُشَار إليها غالبًا تتضمن:

١- زيادة في السلوك غير الاجتماعي، مثل: الجريمة وتعاطي المخدرات وأعمال العنف بشكل عام.

٢- التفكك الأسري، ويشمل ارتفاع نسبة الطلاق والأطفال غير الشرعيين وحمل الفتيات الصغيرات وزيادة عدد الأسر المكونة من والد واحد.

٣- التدهور في الرأسمال الاجتماعي -على الأقل في الولايات المتحدة- أي عضوية المؤسسات التطوعية، والثقة المتبادلة بتلك العضوية.

٤- الضعف العام في «أخلاقيات العمل» وصعود توجهات الانغماس الذاتي.

٥- تناقص الالتزام بالتعليم والنشاط الفكري، ويظهر ذلك في المستويات المتدنية للتحصيل الدراسي في الولايات المتحدة.

ويقرر في النهاية أن حالة الغرب الصحية في المستقبل وتأثيرها على المجتمعات الأخرى تعتمد إلى حد كبير على نجاحه في التغلب على هذه التوجهات، التي تؤدي بالطبع إلى تأكيد التفوق الأخلاقي للمسلمين والآسيويين[٢].

---

(١) نفسه (ص٤٩١).

(٢) نفسه (ص٤٩٢).

٤- ومنهم أيضًا الباحث الروسي ميران مشيدولوف:

الذي أثبت في دراسته كيف استخدم الدين أفضل استخدام وقت الخوف من الخطر الشيوعي، ودليله على ذلك أن القادة السياسيين في الغرب استخدموا في خطبهم كلمات مثل: «الدين»، «الله»، «الخلاص»، وحاولوا عرض المشكلات الطبقية والتناقضات الاجتماعية في العالم المعاصر على أنه صراع بين الشيوعية والدين، بين الإيمان واللادينية، وبين الأخلاق والإباحية، وكان الرئيس أيزنهاور أثناء رئاسته للولايات المتحدة الأمريكية، يصرّح بأن القضية الرئيسية في عصره هي الصراع بين الحرية والعبودية، وبين الدين واللادينية، وسار بعده أمثال نيكسون وفورد وكارتر وأديناور وشتراوس وهوفر... وعندما تولى ريجان الرئاسة اتخذ موقفًا واضحًا باستخدام الدين لتبرير سياسته، ووصف الاتحاد السوفيتي حينذاك بأنه بؤرة الشر، ومن هنا حصل ريجان على تأييد رجال الكنيسة، ونالت القضايا الدينية أهمية أكبر في الحملة التي سبقت انتخابات ١٩٨٤م[(١)].

ويقرر القس إكرام لمعي، أنه لم يحدث في عصر من العصور أن كان الدين محورًا للاهتمام للدرجة التي اختلط فيها الدين بالأسس والمبادئ التي تبنى عليها معظم النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كعصرنا الحالي، فقد دخل الدين وما يتبعه من فكر ديني إلى أغلب اهتمامات الإنسان، وأصبح الدين هو المحور الذي تدور حوله كل إشكالات الحوارات، وإذا به يتدخل بشكل أو بآخر في توجيه الجماهير، ومع تصاعد الضغوط السياسية والاقتصادية شرقًا، وارتفاع المد الحضاري والمادي غربًا، أصبح الدين هو الملجأ الأخير والثابت الذي تتعلق به حضارات تنهار وحضارات تريد أن تستيقظ من جديد[(٢)].

---

(١) ميران مشيدولوف «الدين في عالم اليوم» (ص٢٨)، ترجمة جمال السيد ط. دار العالم الجديد بالقاهرة ١٩٩٠م.

(٢) إكرام لمعي «الاختراق الصهيوني للمسيحية» (ص٧). دار الشروق ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

كذلك يرى أن المسيحية لم تعد مجرد ديانة عالمية فقط، بل تحولت إلى حضارة عصرية تضم الملايين حول العالم، ولقد أحسّ إنسان القرن التاسع عشر أنه لكي يدخل حضارة العصر عليه أن يعتنق المسيحية ويتعلم الإنجليزية[(١)].

ويصف بابوسة حركة يوحنا بولس الثاني التي بدأت عام ١٩٧٨م بأنها تتسم بإعادة التأكيد على القيم والهوية الكاثوليكية، وأساسها القطيعة مع مبادئ المجتمع العلماني (وهدفها إعطاء العالم ما بعد الحديث المعنى والنظام والأخلاق التي كانت تعوزه نتيجة التداعي العام في كل يقين)[(٢)].

وفي العدد الصادر من مجلة (كونتري) يقول الكاتب أيرفينج كريستول، وهو من المحافظين الجدد: «إن العلمانية وهي الأيديولوجية التي سادت في المجتمعات الغربية خلال القرنين الماضيين، **قد ماتت بالسّكتة المخية**، فهي غير قادرة على مواجهة الاضطرابات الروحية التي تعد جذور الفوضى الأخلاقية في الغرب»[(٣)].

ويبدو تطابق فهم هذا الكاتب للعلمانية كما عرّفها الدكتور المسيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ؛ إذ يرى أن العلمانية أبعد من فصل الدين عن الدولة، فمفهومها يشمل رؤية تفسيرية شاملة للعالم والكون، وترتكز على عناصر واضحة سادية وعقلانية صلبة ترفض أي مرجعية أخرى، فيرى أنه توجد علمانيتان -لا علمانية واحدة- الأولى جزئية وتعني فصل الدين عن الدولة، والثانية شاملة لا تعني فصل الدين عن الدولة فحسب، وإنما فصل كل

(١) نفسه (ص٧٤).
(٢) جوناثان جولبرميرج «قوة اليهود في أمريكا» (ص٩٠). ترجمة نهال الشريف - دار الهلال ١٩٩٧م.
(٣) جيل كيبل «ثأر الله - الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاثة» (ص٥٩). ترجمة نصير مروة - دار قرطبة ليماسول - قبرص ١٩٩٨م.

القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية لا عن الدولة وحسب، وإنما عن الطبيعة وعن حياة الإنسان، في جانبيها العام والخاص، بحيث تنزع القداسة عن العالم، ويتحول إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها لصالح الأقوى[١].

٥- ويرى الدكتور مراد هوفمان رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

أن ما يبدو للمسلمين بأن دول الغرب غير دينية هو أمر ظاهر فقط؛ لأن هذه الدول قد أدمجت الكثير من الدين في أمور الدولة[٢]، ويذكر أن التحليل لعلمانية الغرب، وفك الرباط الديني بين الكنيسة والدولة يوضّح بالرغم من كل ما يقال -أن الدولة والمجتمع- أي السياسة في أوسع معانيها، إنما هي ذات صبغة مسيحية، بالرغم من كل ما يساق لنفي هذه الحقيقة سواء كان هذا من الدين المسيحي أو الحضارة المسيحية، ولذلك يرى جيفري لانج أن **تعبير علمانية الغرب، تعبير خاطئ ويجانبه الصواب تمامًا**[٣].

ويضرب مثالًا على ذلك في جمهورية ألمانيا الاتحادية؛ إذ يبدو ظاهريًّا انفصال الدين عن الدولة، ولكن الوقائع والقانون يؤكدان العكس، فهناك أعياد وأجازات دينية تقرّها الدولة وتحميها، وهناك كذلك جمعيات دينية تحظى باعتراف الدولة وحمايتها، وتحصل الجهات المالية الحكومية ضريبة الكنيسة من أجل مساندتها، ويقوم مدرسون حكوميون بتدريس مادة الدين في المدارس الحكومية، وكذلك يتم القسم بالله تعالى أمام المحاكم، وفي القوات المسلحة، كما يتم توظيف رجال دين بهذه القوات، وتجد على حوائط الفصول

---

(١) د. هدى درويش «الحجاب بين الأديان والحداثة والعولمة» (ص١٢٤-١٢٥). المكتب العربي للمعارف - مصر الجديدة ط١، ٢٠١٦م.

(٢) د. مراد هوفمان «الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود» (ص٢٥٥)، تعريف عادل المعلم ويس إبراهيم - مكتبة الشروق ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٣) نفسه (ص١٠٨).

الدراسية بالمدارس المسيح مصلوبًا، وقانون العقوبات ينص على حماية المشاعر الدينية، كما يتوجه الرئيس والمستشار الألماني بالحديث إلى الشعب الألماني في مناسبة أعياد الميلاد، وهي مناسبة دينية[١].



(١) نفسه (ص١٠٩)، ويعلق في نهاية عبارته بسخرية مستطردًا: «لا يستشعر الألمان هذا على أنه فعل من أفعال جاهلية القرون الوسطى، إذن فلماذا تشويه الإسلام وإلصاق كل الصفات الشيطانية بصفته يدعو لتأييد دور الدين في الدولة؟!».

فصل

الأصولية اليهودية

تُعرّف الأصولية اليهودية بأنها محاولة للعودة إلى المجتمع المدني الذي كان موجودًا قبل ظهور الحداثة، والقواعد الأساسية للأصولية اليهودية هي نفسها الخاصة بالديانات الأخرى: أي إعادة بعث وإحياء المجتمع الديني النقي والورع والمفترض وجوده في الماضي، والاتجاه الأكثر خطورة وأكثر تأثيرًا من الأصوليين في إسرائيل هو الاتجاه المسياني أو المسيحاني (الذي يبشر بظهور المسيح أو المخلّص اليهودي وقيام مملكة اليهود)[١].

ويذكر الدكتور عمرو الشوبكي عدّة وقائع دالة على تصاعد قوة التيار الديني الأصولي في إسرائيل، حتى أصبحت قوة مؤثرة في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية.

وقد أصبح بعض العلمانيين الإسرائيليين يشكون من أنه منذ عدة سنوات تسود البلد عملية مقلقة مؤداها التحكم الديني في الحياة الحرة، وهي تستند إلى الميزانيات الكبيرة التي تنهال على المعسكر الديني، فالتمويل المتزايد يتيح للمعسكر الديني أن يستوعب المزيد من الأفراد إلى صفوفه مقابل المنفعة المختلفة الأشكال. فإعلان التوبة -لو جزئيًا- أصبح يضمن اليوم شققًا بشروط ميسرة من الخدمة العسكرية، وقروضًا، وخدمات اجتماعية بديلة واسعة، ويومًا دراسيًا طويلًا، وفي أحيان كثيرة دون أداء أي عمل على الإطلاق.

وهناك عامل آخر يساعد على زيادة نفوذ الأحزاب الدينية، وهو العامل الديموغرافي، الذي يتمثل في زيادة نفوذ الأحزاب الدينية، نتيجة ارتفاع معدل إنجاب النساء في الوسط الديني، مقارنة بباقي النساء اليهوديات، وهو ما اعتبر مؤشرًا على الاتجاه الذي تسير فيه إسرائيل[٢].

---

(١) د. عمرو الشوبكي «الأصولية» (ص١١-١٢). نهضة مصر ٢٠٠٧م.
(٢) نفسه (ص٢٦-٢٧).

ويقضي الرجال الأصوليون سنوات طويلة في المعاهد الدينية، وتستخدم الدراسة بهذه المعاهد كبطاقة للمجتمع.. وبتوفير الدولة الدعم المالي للدراسة في المعاهد الدينية وتأجيل الخدمة العسكرية أدى إلى تحوّل الدراسة في المجتمع الديني إلى مسألة مريحة وسهلة على الدارسين.

وتتمتع الأحزاب الدينية بقدرة عالية على استغلال الأرقام والزيادة المتصاعدة في الجانب الديموغرافي، ويُحتضن أبناء تلك العائلات في مدارس التعليم الأصولي والديني للمحافظة عليهم ضمن الإطار الديني والثقافة الأصولية.

وتعبّر المشاركة العالية من قبل الأصوليين عن نمط سلوكي نابع من طريقة تجنيدهم وحماستهم والتنظيم الاجتماعي الذي يتميّزون به وأوامر الحاخامات، وهذا الجمهور يتعامل مع الانتخابات على أنها «تحدٍّ قتاليّ أعلى» باعتبارها مركز قوة ونفوذ مالي وتشريعي في المؤسسة التشريعية والتي تصل نسبة التصويت في الجمهور الأصولي ٨٥-٩٥٪.

ويستطرد الدكتور الشوبكي قائلًا: «أما العقد الأخير فقد تميّز بزيادة النفوذ، والتطّور الأبرز في سياق زيادة نفوذ التيار الديني في إسرائيل خلال العقد الأخير هو صعود حركة شاس الدينية بشكل لافت»[١].

الدور السياسي للأصولية اليهودية:

الأصولية اليهودية لها دور سياسي فعّال في إسرائيل، وقد اتضح بصورة ظاهرة في صعود الحريديم (الأرثوذكس) السياسي خلال الثمانينيات، وكانت محاكمة أدولف إيخمان في القدس ١٩٦١م قد أحيت الوعي بالهولوكوست، الأمر الذي جعلهم أكثر تصميمًا على تجنب ثقافة الأغيار واليهود العلمانيين المشاركين فيها، ونظروا إلى أنفسهم

---

(١) نفسه (ص٣٢).

على أنهم في حالة حرب مع المدنية الحديثة، وأنهم لا علاقة لهم بالأغيار أو باليهود المتدينين الذين لا يشاركونهم آراءهم عن اليهودية[١].

وقد أدى وعيهم الجديد بالهولوكوست إلى الإحساس إحساسًا مفرطًا بالمخاطر التي تحيط باليهود، ولكي يحافظوا على التوراة، كانوا على استعداد لاقتحام سيرورة السياسة، وقد عبَّر عضو في اتحاد الحريديم عام ١٩٥٠م تعبيرًا بليغًا عن هذا التوجه بقوله: «إننا ضعفاء، والآليات القوية في أيدي أعدائنا، ووسط الانقسام والانفصال، فإننا نواجه عواصف تهدد بمحونا لا قدّر الرب، وتجعل القوانين التي تضر بعمق كياننا موقفَنَا مأسويًّا غير محتمل، لذا يجب أن نحترس، ونصد أية هجمات ضدنا من داخل الحكومة»[٢].

ومع أن اليهود الأرثوذكس (الحريديم) كانوا ينظرون إلى دولة إسرائيل على أنها فاسدة جوهريًّا. واعتقدوا أن العلمانيين من اليهود مصممون على تحطيم الدين، لذلك اضطروا إلى عملهم السياسي كشرٍّ ضروري، أو دفاع عن النفس[٣]. ثم أصبح الحاخام شاس، وهو منهم، بحلول عام ١٩٨٨م قائدًا لحزبين سياسيين، وصار السياسيون يخطبون ودّه من أجل صوته الحاسم في الانتخابات[٤].

وقد أصبحت له كلمة مسموعة، وكان أتباعه ينفذون تعليماته بشأن كيفية التصويت في الانتخابات، (واستيقظت الأمة على حقيقة أن ميزان القوة يملكه حاخام مسن يرتدي قبعة عالية سوداء. ويتحدث خليطًا غريبًا من اللغة اليديشية والعبرية والآرامية بحيث لا يفهمه مستمعوه العلمانيون، وكان الحاخام يقرّر مصير العمل والليكود)[٥].

---

(١) كارين آرمسترونج «معارك في سبيل الإله - الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام».
(٢) نفسه (ص٥٠٢).
(٣) نفسه (ص٥٠٣).
(٤) نفسه (ص٥٠٤).
(٥) نفسه (ص٥٠٤-٥٠٥).

ثم جاء أتباع (كوك) أكثر تطرفًا، فمن عقائدهم أن الصهيونية لن تكتمل بغير البعد الديني.

وكان أحدهم يقود النشطاء في حملات ثأرية وهجمات حربية حاملًا بندقيته في يده في المدن العربية بالضفة الغربية. ويمتلكه سعار القتل فيطلق النيران جزافًا. ويهيل السباب بأعلى صوته، وقال أثناء محاكمته أنه رغم عدم قتله أحد فإنه يتمنى لو كان له (شرف قتل عربي)[(١)].

واقترح معظم أتباع كوك أن يسمح للعرب بالبقاء في «أرض إسرائيل» فقط كمقيمين أجانب يعاملون معاملة حسنة طالما احترموا دولة إسرائيل، إلا أنهم لا يمكن لهم أن يصبحوا مواطنين أو يمنحوا حقوقًا سياسية، وقد أنكر آخرون على الفلسطينيين حتى هذا القدر من الاعتبار ومارسوا الضغوط عليهم للهجرة، (**واقترحت أقلّيّة منهم الإبادة واستشهدوا بسابقة وردت بالكتاب المقدس**)[(٢)].

وكان انتصار إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧م سببًا في زيادة نفوذ المتدينين وتطرّفهم؛ إذ اعتقدوا أنه يجب إزالة الضريح الإسلامي من على جبل الهيكل كي يمهدوا الطريق للمخلّص، فلو أنهم أخذوا الخطوة الأولى، فلا شك وأن الرب سيتدخل، ويجازي هذا العمل الإيماني بأن يتدخل في التاريخ ويرسل المخلّص الذي طال انتظاره إلى شعب إسرائيل. واقترح أحدهم هدم قبة الصخرة؛ لأنها مأوى قوى الشر، اعتقادًا منه أنه بالاستطاعة تحييد تلك القوى الشيطانية بهدم القبة.

وفي نهاية هذا السرد التفصيلي، علقت آرمسترونج بقولها: «وكانت الخطة مشوبة بالمخاطر، فلم يكن للقصف فقط أن ينهي مسيرة التسوية (مفاوضات كامب داڤيد التي

(١) نفسه (ص٥٠٧).
(٢) نفسه (ص٥٠٨).

عارضها المتدينون) بل من المؤكد أنه كان سينتهي بحرب، يشترك فيها لأول مرة كل العالم الإسلامي ضد إسرائيل.. ولكن هذا لم يقلق أتباع كوك، فقد كانوا يؤمنون أنهم ببدئهم عملًا (أبو كاليًا) يطبق ما جاء في سفر الرؤيا على الأرض، سيدفعون بالقوات السماوية إلى أن تنشط ويجبرون الرب على التدخل إلى جانبهم، وعلى إرسال المخلّص لينقذ إسرائيل!»[(١)].

وقد اشتهرت حركة (جوسن إيمونيم) أيضًا في إسرائيل لكونها حركة سياسية دينية قومية، ونادت عام ١٩٧٤م بفكرة «أرض إسرائيل الموعودة» مستشهدة بما ورد في نصوصهم التوراتية.

وتقول الدكتورة هدى درويش: «وقد اكتسب المشروع الاستيطاني في أرض فلسطين بُعدًا جديرًا بتأسيس حركة «جوسن إيمونيم»؛ حيث تحوّل إلى كيان ضخم له قوتان، اقتصادية وسياسية، بالإضافة إلى مصالح يرتبط بها مئات الألوف من الإسرائيليين المتدينين والعلمانيين على حد سواء»[(٢)].

وقد خلصت من دراستها إلى أن الاستيطان اليهودي في الأرض المحتلة، وتصفية أهلها بالقتل والإبادة والتطهير العرقي، هو مبدأ عام داخل إسرائيل، تتفق عليه كافة القوى الدينية والعلمانية[(٣)].

وبعد هذا العرض المختصر الدال على (تحول إسرائيل إلى دولة دينية)[(٤)] تستند إلى المؤرخ الألماني جرائز بقوله: «إن اليهودية وثيقة الصلة بالعالم الحديث الذي يتميز بكونه على

---

(١) نفسه (ص٥١١). حرصًا على الأمانة العلمية اقتبسنا النص بحذافيره مع اعتراضنا الشديد على معناه.

(٢) د. هدى درويش «الجذور الدينية للصراع السياسي في إسرائيل» (ص١٠١). ط. الدار الثقافية للنشر بالقاهرة ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

(٣) نفسه (ص١٠٦).

(٤) آرمسترونج «معارك في سبيل الإله» (ص٥٠١).

درجة عالية من التسيس». وكانت أطروحة عمل جرائز الضخم (تاريخ اليهود من أقدم العصور إلى اليوم) الذي توالى صدور أجزائه ما بين الأعوام ١٨٥٣م إلى ١٨٧٦م، هي أنه لا فائدة من محاولة اليهود محاكاة المسيحيين بفصلهم الدين عن السياسة، أي الدعوة التي تبناها «يهود الإصلاح»؛ إذ إن اليهودية عقيدة سياسية في جوهرها؛ لأنه من زمن الملك داود إلى الآن، أوجد اليهود الصلة بين السياسة والدين بأسلوب عضوي خلاق[1].

ولا شك أن حكم المؤرخ الألماني كان صائبًا؛ لأنه في كتابته للتاريخ اليهودي اطّلع على مصادرهم وتتبع سلوكياتهم وحرصهم على تنفيذ ما ورد بالكتاب المقدس.

وها هو الواقع المعاصر يشهد بذلك، فقد مرّ بنا أن أقلية من أتباع كوك اقترحت إبادة العرب، واستشهدوا بالسابقة التي وردت في الكتاب المقدس عن العماليق الذين كانوا قومًا عتاة فأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوهم دون رحمة.

وفي عام ١٩٨٠م نشر الحاخام إسرائيل هس، مقالًا بعنوان: «**الإبادة: أمر توراتي**» في مجلة جامعة بار - إيلان الرسمية، وتجادل قائلًا: «إن الفلسطينيين بالنسبة لليهود كالظلام بالنسبة للنور، وأنهم يستحقون نفس مصير العماليق»، وفي نفس العام كتب حاييم تزوريا أحد المستوطنين يقول: «المقت طبيعي وصحي، ففي كل جيل نجد أن هناك من ينهضون لإبادتنا، لذا فلكل جيل عماليقه الخاصون به. وعماليق جيلنا تعبر عن نفسها في كراهية العرب العميقة المتطرفة لنهضتنا القومية التي حققناها في أرض أجدادنا»[2].

إسرائيل دولة دينية:

وقد حسم اليهود أمرهم منذ عام ١٩٤٨م، وأقاموا (إسرائيل) على أساس ديني بعد المجازر التي أقاموها لإبادة الفلسطينيين واضطرارهم للهجرة، وأشهرها مجزرة

---

(١) آرمسترونج «القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث» (ص٥٨٥).

(٢) آرمسترونج «معارك في سبيل الإله» (ص٥٠٨).

(دير ياسين)، وأعلنوا للعالم أنها (دولة دينية) في كل المناسبات، وأيدتهم بذلك الولايات المتحدة الأمريكية على ألسنة رؤسائها وآخرهم بوش الابن في زيارته الأخيرة لها في يناير ٢٠٠٨م.

وقد يفسر هذا سياسيًّا لمنع الفلسطينيين المهاجرين وهم أصل البلاد الأصليين من الرجوع إلى وطنهم، مع العلم بأن اليهود في نظرتهم لدينهم يرون أنه (دين، وشعب، ووطن)، ولا يجرؤ أحد من الغرب على وصفهم بالرجعية!

وننقل هنا نص ما دار في ندوة عقدت في إسرائيل في ١٩/ ١٢/ ١٩٨٠م حضرها من مصر الدكتور مصطفى خليل رئيس وزراء مصر الأسبق، وبطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية المصرية، وعدد من الأساتذة الإسرائيليين المتخصصين في الشئون السياسية والعربية.

وفي هذه الندوة قال مصطفى خليل: «أود أن أطمئنكم أننا في مصر نفرّق بين الدين والقومية، ولا نقبل أبدًا أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة على معتقداتنا الدينية».

وما أن أنهى مصطفى خليل كلامه، حتى وقف البروفيسور دافيد يرد عليه قائلًا: «إنكم أيها المصريون، أحرار في أن تفصلوا بين الدين والسياسة، ولكنني أحب أن أقول لكم: إننا في إسرائيل نرفض أن نقول: إن اليهودية مجرد دين فقط، بل **إننا نؤكد لكم أن اليهودية هي دين وشعب ووطن**».

وقال البروفيسور تفي ياقوت: «أود أن أقول للدكتور مصطفى خليل: إنه يكون على خطأ كبير، إذا أصر على التفريق بين الدين والقومية، وإننا نرفض أن يعتبرنا الدكتور خليل مجرد أصحاب دين لا قومية له، فنحن نعتبر اليهودية ديننا وشعبنا ووطننا، وأحب أن أُذَكِّرَ الدكتور خليل بأن الشرق الأوسط كان موطن الديانات السماوية، المسيحية والإسلام واليهودية، ولم يكن موطن قوميات، أما القومية فقد كانت من ابتكار الأوروبيين الذين

أزعجهم انتشار الحروب الدينية في أوروبا، فابتكروا الفكرة القومية للتخفيف من حدة الصراع الديني في أوروبا، ومن خلال هذا الشعار -شعار القومية- حاولوا الانتقام من شعوب الشرق الأوسط، فباعوا ابتكارهم إلى شعوب الشرق الأوسط، وهكذا أصبحت حياة الشباب في الشرق الأوسط تتوه في الحروب القومية» اهـ[1].



(١) نشر الندوة الدكتور يوسف القرضاوي بكتابه «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه» (ص١٩٦). دار الصحوة بمصر ١٩٨٧م-١٤٠٨هـ.

فصل

استمرار الحروب الصليبية
والصبغة الدينية لحكومات أوروبا



إننا نخطئ إذا اعتقدنا بأن الحروب الصليبية قد انتهت بانتهاء القرون الوسطى، وتراجع الغرب أمام بسالة المسلمين بقيادة البطل المظفر صلاح الدين؛ إذ غيّر الغرب خططه؛ لأنه أيقن (أن المقارعة وجهًا لوجه لا تجدي، فبدأ بسياسة تطويق الإسلام.. وتخريبه من الداخل، فانطلقت السفن تطوّق العرب.. فطافت حول أفريقيا تنهب وتدمر وتقيم أكبر سوق للرقيق في تاريخ البشرية، وأغارت على الأطراف القصيّة من الوطن الإسلامي.. إندونيسيا.. الفلبين.. الملايو.. أفريقيا الغربية.. الهند.. إلى جانب التوسع الروسي في آسيا المسلمة)[١].

وقد صوّر المؤرخ البريطاني توينبي هذا التطويق بقوله: «في غضون فترة تقل عن القرن أمكن تطويق العالم الإسلامي تمامًا.. ووضع الطوق حول رقبة الفريسة... وتبلور العمل بالنسبة للجانبين الغربي والروسي، في الانقضاض على فريسة عاجزة عجزًا واضحًا»[٢].

وقد قسّم الأستاذ محمد جلال كشك رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ المواجهة الحضارية بيننا وبين الغرب بمراحلها الثلاث بقوله: «وهذه المواجهة الحضارية يفهمها الغرب الصليبي على أنها حرب إبادة يتحتم عليه فيها أن يبيد الإسلام من هذه المنطقة. وقد حاول ذلك بالسيف والصليب في الحروب الصليبية الأولى.. ثم بالمستشفى والصليب والأساطيل والمدافع والاحتلال العسكري في الحرب الصليبية الثانية، ثم بالغزو الفكري بنسف الإسلام من الداخل في الحرب الصليبية الثالثة التي نخوضها اليوم»[٣].

ثم يصف هذه الحرب بأنها أخطر من سابقتيها؛ لأن الغرب يتسلح فيها بالتفوق المادي الساحق، والمغلوب في هذه الحرب سيُحْكَمُ عليه بالفناء![٤].

(١) محمد جلال كشك «الماركسية والغزو الفكري» (ص٣٣)، الدار القومية بالقاهرة. ط٢، ١٩٦٥م، والفريسة يعني بها: نحن المسلمون!

(٢) توينبي «مختصر دراسة التاريخ» (ج٣) (ص٣٠٩/ ٣١٠). نقلًا عن المصدر السابق (ص٣٤).

(٣) محمد جلال كشك «الماركسية والغزو الفكري» (ص٤٤).

(٤) نفسه (ص٢٢٣).

ويرى الدكتور مراد هوفمان أن تجربة الحروب الصليبية مع الشرق المسلم كانت صدمة تبعتها نتائج عديدة.. لقد تركت هذه الحروب في الغرب ذكرى مؤلمة تجوب في مخيلة أهله، ويرجّح صحة تحليل إدوارد سعيد القائل بأن الصورة الغربية للشرق هي في جزء منها نتيجة لانعكاس رغبات واسقاطات لا يعترف الغرب بأنه يكنّها في نفسه ويشعر بها.

أما بالنسبة للشرق، فقد كانت نتائج الحروب الصليبية في مجملها أقل قسوة؛ حيث كان النصر في النهاية حليف الشرق، استمر هذا الاعتقاد حتى أيقنت شعوب الشرق مع كابوس الاحتلال في العصور الحديثة بأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة بظل دنيوي إلى يومنا هذا[١].

ولقد كانت حرب البوسنة ومعارك إبادة المسلمين وألبان كوسوفا حروبًا دينية من وجهة نظر الصرب واليونان، كانت حروبًا صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية في البلقان (وبالمناسبة يحظر في البلدين بناء مساجد)[٢].

ويستند الدكتور مراد هوفمان إلى دراسة أجراها باحث بريطاني انتهى فيها إلى القول بأن فوبيا الإسلام هي الرعب والخوف منه وكرهه، ولقد عاشت هذه الفوبيا لمدة قرون عديدة في البلاد الغربية، ولكنها أخذت في السنوات العشرين الماضية شكلًا أكثر علانية وأكثر تشددًا وتطرفًا وخطورة، حتى أصبحت فوبيا الإسلام مكونًا أساسيًّا في كل وسائل الإعلام، وهي تتحمل القدر الأكبر من المسئولية[٣].

ويقول في النهاية: «إنها حقًّا لدائرة مغلقة، فممثلو وسائل الإعلام والعاملون بها، مثلهم مثل كل الناس في الغرب، ضحية للصورة المشوهة للإسلام التي توارثوها عبر

(١) د. مراد هوفمان «الإسلام في الألفية الثالثة .. ديانة في صعود» (ص٧٣).
(٢) نفسه.
(٣) مراد هوفمان «الإسلام في الألفية الثالثة .. ديانة في صعود» (ص٨١).

الأجيال قرونًا عدة... وهم بدورهم أيضًا يرسخّون هذه الصورة في وجدان وأذهان الناس، بل يزيدونها سوءًا»[١].

وبدلًا من تهيئة شعوبنا الإسلامية لصد هجمات هذه الحرب الصليبية المعلنة بلامواربة نقرأ عن مؤتمرات حوار الحضارات يشترك فيها بعض علمائنا المخدوعين، وهي تهدف في الحقيقة إلى تخدير الأمة ودفعها إلى الاستمرار في استسلامها لجلّاديها، تحت عناوين برّاقة كقاعدة الاحترام المتبادل، وفي إطار ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وغيرها من الشعارات الجذابة الخادعة، بينما الواقع المرير الذي نعيشه يفرض علينا الحذر والاستعداد للمواجهة الحاسمة، كما يرى الدكتور عبد الصبور مرزوق رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «فالحق أن حاجتنا نحن المسلمين في عالم اليوم أن نختار موقفًا لا ثاني له، وهو أن نستشعر الخطر على الإسلام، وأن نواجهه بدمائنا وأرواحنا، وأن نتحمل في سبيل ذلك مسئوليتنا الإسلامية في الدفاع عنه بكل ما نملك من إمكانيات مادية ومعنوية»[٢].

وإذا بحثنا النتائج المتوقعة من (الحوار الحضاري) فسنجد أننا الجانب الخاسر في هذا الحوار؛ لأن الحوار الحضاري بتعريفه العلمي السياسي (منطق مفترض في الظروف العادية، يتمثل في تماس حضارتين، ثم تداخلهما جزئيًا بحيث يتم في كليهما حذف تلقائي من عناصرهما، وضم انتقائي أيضًا، وبديهي أن الحضارة الأعمق والتي تمتلك ناصية التطور التكنولوجي سوف تكون هي صاحبة النصيب الأكبر في هذا المضمار، وسوف تتنازل الأخرى أمامها)[٣].

---

(١) نفسه (ص٨٢).

(٢) د. عبد الصبور مرزوق، مقال بعنوان: «الهجرة المطلوبة في أيامنا». مجلة منبر الإسلام - مصر العدد (١) المحرم ١٤٢٩هـ-يناير ٢٠٠٨م.

ومن العجب أن أسبانيا -وهي من الدول المشتركة في غزو أفغانستان- احتضنت أخيرًا مؤتمرًا تحت عنوان: «تحالف الحضارات». الأهرام في ١٤/ ١/ ٢٠٠٨م

(٣) د. حامد عبد الماجد «دراسات في الرأي العام» (ص١٨٨، ٢٩٦) مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

فماذا يكون موقف مندوبوا الدول العربية والإسلامية في الحوار أمام الحرب النفسية وعملية الغزو المعنوي التي تشنها آلة الإعلام الأمريكي والأوروبي بعد استبدال (الخطر الشيوعي) بـ(الخطر الإسلامي الأخضر)؟[١].

وتقول الدكتورة حورية مجاهد: «ومع أن هذه الحروب استمرت قرنين من الزمان، وكان النصر في النهاية للمسلمين على أيدي قادة مثل نور الدين وصلاح الدين الأيوبي -الذي استرد بيت المقدس- والظاهر بيبرس وقلاوون، إلا أن الغزو الصليبي المادي لا يعني انتهاء الغزو الفكري والنفسي والخلقي الذي مهّد له الأول الطريق، والذي اتخذ منذ ذلك الوقت شكل نشاط التبشير والاستشراق... والرابطة قوية بين البعثات التبشيرية المسيحية وبين الاستعمار الأوروبي، فقد سبق المبشرون الجيوش الاستعمارية ومهدوا لها وصحبوها كما اعتمدوا في نشاطهم على تدعيم الإدارة الاستعمارية»[٢].

فلسفة الغزو الحضاري:

وتصاحب الحروب الصليبية المعاصرة، حملة غزو حضاري لا تقل ضراوة عن غزو الأراضي واحتلال البلاد، يصفها الدكتور حامد عبد الماجد بقوله:

«إن منطق عملية الغزو المعنوي أساسها تحطيم النظام الفكري القائم، وملء العقل الجماعي بنظام فكري آخر، وهي لذلك تسير في خطين متوازيين: خط سلبي، حيث تُجرى عملية تفتيت وهدم متتالية، وآخر إيجابي بمعنى غرس وتسريب مفاهيم جديدة تقوم بعملية الإحلال؛ ذلك أن روح الشعوب لا يمكن أن تعيش في فراغ، وفلسفة الغزو الحضاري تعي ذلك جيدًا، ومن ثَمَّ فهي لا تقتصر على عملية التدمير المتتالية، بل تربط ذلك بعملية بناء متتابعة أيضًا، أول عناصرها خلق الإعجاب بأقصى درجاته

(١) السابق.

(٢) د. حورية مجاهد «الاستعمار كظاهرة عالمية» (ص٦٩-٧٠)، وينظر كتاب عبد الرحمن حبنكة «أجنحة المكر الثلاثة وتوابعها التبشير - الاستشراق - الاستعمار». دمشق - بيروت دار القلم ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

بالحضارة الغازية، والثقافة المرتبطة بها، من هنا نستطيع فهم منطلقات الغزو الفكري الغربي والأمريكي للمنطقة في الوقت الراهن، وفي أضعف المناطق حصانة في الجسد العربي والإسلامي»[١].

وبعبارة أخرى أكثر وضوحًا هناك من يتعمد تزييف وعي الأمة بهويتها، ومثال ذلك ما صَرَّحَ به سلامة موسى في كتابه (ما هي النهضة؟) ما زال يتكرر الآن عبر الإعلام المرئي والمقروء (وكلها تعمل على تغييب وعي المسلم بذاتيته وتزوير وعيه بهويته، وتغييبه عنها، وإحلال البديل المغد سلفًا مكانها)[٢].

ولا مفر إزاء هذا الخطر المحدق بنا، إلا العمل على تجديد الأساس العقدي لهوية المسلم (فإن أساس هوية المسلم أنه صاحب «عقيدة» والأمة التي ينتمي إليها الفرد المسلم هي أمة «عقيدة»، إن أدبيات الفرد المسلم ترتبط بهذه الشجرة العقدية)[٣].

ويضيف الدكتور محمد الجليند إلى ذلك أن (شجرة العقيدة) تمثل قاسمًا مشتركًا أصيلًا لكل مسلم في أي مكان في بلاد المسلمين أو في غيرها، بصرف النظر عن لغته وجنسه وعرقه وموطنه الجغرافي[٤].

كذلك هناك الخطر الداهم على الأمة بما يسمى (مشروع الشرق الأوسط الكبير)، وهدفه تقسيم الدول العربية التي قسّمت من قبل بموجب معاهدة سايكس بيكو الإنجليزية الفرنسية، إلى دويلات أقل مساحة، وأضعف قوة، لتكون أشبه بالمعازل لا بالدول، وكذلك دعّم سياسة التمزيق العربي الإسلامي على أساس عرقي وطائفي.

---

(١) نفس المصدر (ص١٨٩).
(٢) د. محمد السيد الجليند «هويتنا الإسلامية في مفترق الطرق» (ص١٨).
(٣) نفسه (ص١٩).
(٤) د. عبد الرحمن النقيب «مشروع الشرق الأوسط الكبير» (ص٤٠).

ولا منقذ إلا بالتشبث بالهوية الإسلامية والعض عليها بالنواجذ حتى ننجو من هذا المصير المظلم أو نقع في هاوية لا قرار لها.

وإن تاريخنا ليبرهن على أن الإسلام هو الذي وحّد الأمة، (فالإسلام هو الذي حفّز صلاح الدين الكردي الأصل، وسيف الدين قطز الأفغاني الأصل، والظاهر بيبرس وقلاوون، وهما ليسوا من العرب للدفاع عن العالم العربي تحت راية الإسلام، ورفع شعار «واإسلاماه» ضد الصليبيين والتتار).

إننا على ثقة تامة بتفوّق عقائدنا وقيمنا وشريعتنا وثقافتنا وتاريخنا الحضاري، ولكن هل لدينا الإمكانيات الكفيلة بإظهارها على حقيقتها أمام العالم بنفس وسائل الإعلام التي يمتلكها الخصم؟

وقبل هذا علينا واجب إعادة الثقة بالنفس لشعوبنا أمام الحملات الدعائية العدائية للغرب التي تغزونا في عقر ديارنا، وحشد جهود العلماء ومراكز البحوث والجامعات العربية والإسلامية للمواجهة على المستوى اللائق، وعلينا أن نصمم على رفض استدراجنا إلى طلبات تغيير المناهج التعليمية والتجديد على النمط الغربي أي (علمنة الإسلام) كالنموذج التركي منذ أيام أتاتورك، أو تنفيذ وصايا مؤتمر الأسرة الذي يريد تحطيم البقية الباقية من الأسرة العربية المسلمة.

وهي أيضًا حرب نفسية إعلامية تصاحب الحرب الصليبية المتصاعدة التي سُمّيت بالحرب العالمية الرابعة ضد العالم الإسلامي[1]؛ حيث اعتبره المحافظون الجدد بالولايات المتحدة الأمريكية أنه العدو الجديد، ووصف جيمس وولزي هذه الحرب (شغل منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية لمدة قصيرة) وصفها بحرب المائة عام[2].

---

(١) علي عبد العال، مقال بعنوان: «المحافظون الجدد: منظرون لخراب العالم» (ص٧٣)، مجلة أدب ونقد نوفمبر ٢٠٠٧م العدد (٢٦٧).

(٢) نفسه (ص٥٨).

ويعرف المحافظين الجدد بأنهم مجموعة سياسية أمريكية تميل إلى اليمين المسيحي المتطرف، آمنت بقوة =

الصبغة الدينية للحكومات الأوروبية مع ادِّعاء العلمانية في الظاهر:

ستتخذ من شهادة الدكتور مراد هوفمان دليلًا على الصبغة الدينية للحكومات الأوروبية بالرغم من ادّعائها العلمانية في الظاهر.

والدكتور مراد هوفمان الألماني كان كاثوليكيًّا قبل اعتناقه الإسلام عام ١٩٨٠م، ومن أهم كتبه (الإسلام كبديل)، وعنوانه يحمل أولًا مغزى علّة اختياره للإسلام كدين بدلًا من ديانته السابقة، ويتضمّن ثانيًا عرض مزايا الحضارة الإسلامية التي تتفوّق على حضارة الغرب.

ولا يستطيع أحد الطعن في شهادته كمثقف غربي، وله خبرته السياسية الواسعة كسفير لدولته في الجزائر والمغرب، ومدير استعلامات الناتو سابقًا.

يؤكد الدكتور مراد هوفمان الصبغة الدينية للحكومات الأوروبية ويسلبها الصفة العلمانية كما تزعم، فيقول: «يُرجع البعض الآن الوسواس الأوروبي ضد قيام حكومات إسلامية، للخوف من إنها لن تتوافق مع الحكومات العلمانية في الغرب، وفي هذا خداع واضح، فالحكومات الغربية جمهوريات ديمقراطية مسيحية، وذلك بالقانون عدا فرنسا، كما لاحظ الطهطاوي.

في ألمانيا مثلًا، (الله) معتبر في الدستور، الأحد أجازة رسمية، كذلك في الأعياد المسيحية، يتوجه كل من المستشار والرئيس بكلمة للشعب في الكريسماس. تعلّم المدارس الحكوميّة الديانة المسيحية بواسطة مدرسين تدفع الدولة مرتباتهم.

يقسم الجنود بالله على ولائهم للجمهورية والدفاع عنها. تجمع الإدارة المالية بالحكومة (ضريبة الكنيسة) للإنفاق على الديانة المسيحية المعترف بها: الكاثوليكية

=أمريكا وهيمنتها على العالم، وهم ليسوا ساسة فقط، بل كتّابًا فذين، ومفكرين استراتيجيين، ومحاربين قدامى، وجمهرة من المثقفين... وقد نمى هذا التيار داخل الجامعات والمؤسسات الفكرية والبحثية الأمريكية. نفس المصدر (ص٥٤، ٦٢).

اللوثرية، الإصلاحية وعلى اليهودية. للكنائس الحق في قرع أجراسها. التجديف[١] جريمة يُعاقب عليها قانون العقوبات. أشار الأساقفة الكاثوليك -رمزًا- باجتناب التصويت لبعض الأحزاب.

والحال مشابه لذلك في البلدان الأوروبية الأخرى وفي أمريكا، أما في فرنسا فالعلمانية تؤخذ على أنها دين»[٢].

ويقول الدكتور محمد الجليند: «إن واقع الدول الأوروبية أنَّها لم ترفض أبدًا آثار عقيدتها في قوانينها ولا في دساتيرها... ولعل أكبر دليل على ذلك ما نجده في دساتير معظم هذه الدول من النص على ديانة الدولة، بل والنص على ديانة رئيس الدولة في الدستور.

وإليك بعض النماذج:

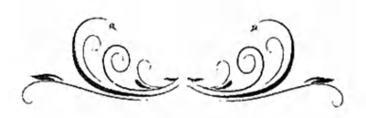
١- ينص دستور الدانمارك على أن الكنيسة الإنجيلية اللوثرية هي كنيسة الدولة الرسمية.

٢- ينص الدستور البريطاني على أن يكون الملك من أتباع المذهب البروتستانتي.. وأن إليزابيث هي الرئيس الأعلى للكنيسة.

٣- ينص الدستور اليوناني على أن المذهب الأرثوذكسي الشرقي هو الدين الرسمي للدولة.

٤- ينص دستور السويد أن الملك لابد أن يكون من أتباع المذهب الإنجيلي النقي.

٥- ينص دستور النرويج على أن المذهب الإنجيلي اللوثري هو المذهب الرسمي للدولة»[٣].



---

(١) ويقصد بالتجديف: الطعن في الدين.

(٢) د. مراد هوفمان «الإسلام عام ٢٠٠٠م» (ص٤٢). ترجمة عادل المعلم - مكتبة الشروق نوفمبر ١٩٩٥م.

(٣) أ.د/ محمد السيد الجليند «هويتنا الإسلامية في مفترق الطرق» (ص٣٨-٣٩) باختصار. المكتبة الأزهرية للتراث (ط١) ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م.

فصل

مظاهر التعصب الديني في أوروبا الحديثة

التعصب الديني في أوروبا:

تحت هذا العنوان كتب الدكتور توفيق الطويل يقول: «ولكن من قال إن المدنية الغربية قد قضت على التعصب الديني، وأشاعت روح التسامح بين الناس..؟ إن التعصب لا يزال يستبد بهوى الناس في أوروبا (ونضيف أمريكا أيضًا) في عهدنا الحاضر! وليس أدلَّ على هذه الروح من كلمة اللورد أللّنبي حين استولى باسم الحلفاء -إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا ورومانيا- على بيت المقدس في أواخر الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م فقال: (اليوم انتهت الحروب الصليبية) وعقّب على هذا الاستيلاء الدكتور بيترسون سميث في كتابه عن سيرة المسيح بقوله: (إنه كان حربًا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها)!

ومنذ بضع سنوات كان «تشرشل» يثير حقد العالم على (النازية) ويستفز الرأي العام في الحرب الأخيرة، فيدعو في خطبه إلى قتال الألمان إبقاءً على المدنية المسيحية...

وكان المستعمرون من أمثال اللورد كرومر يزعمون أنّ الإنجليز دخلوا مصر في عام ١٨٨٢م لينشروا الحضارة الإنسانية وفقًا لتعاليم الدين المسيحي»[(١)].

وبالمقارنة بين التسامح الديني بين المدنية الأوروبية الحديثة والتسامح الديني بالإسلام كما قرره القرآن الكريم قال: «وقد عرفنا، أن التعصب الديني لبث جاثمًا في صدور الناس في أوروبا حتى القرن الثامن عشر... ولكن ألم يكن هذا الموقف مخالفًا مع ما نزل به القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا، حين قال: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف:٢٩].

(١) د. توفيق الطويل «قصة الاضطهاد الديني» (ص١٧١).

ولكننا لا نفاجأ -والتعصب والكراهية للإسلام ديدن القوم- بتصريح الرئيس الأمريكي بوش الأسبق عن الحرب الصليبية على الإسلام والمسلمين تزامنًا مع تصريحات البابا (بيند كتوس السادس عشر) آنذاك.. (وهذا يعني أن إعلان العداء الغربي للإسلام والمسلمين، عداء ممنهج متفق عليه في الغرب بين المذهبين البروتستانتي والكاثوليكي معًا)»[١].

ويتضح التعصب الديني للغرب الذي يقف وراء حركات اليمين التي زادت في السنين الأخيرة بشكل لا يمكن تجاهله:

ففي فرنسا اكتسب اليمين مواقع جديدة داخل الجمعية الوطنية وخارجها، وفي ألمانيا عادت شعارات الفترة النازية لتكتسح الأجواء وظهر اليمين في الدنمارك أشد تطرفًا[٢]؛ حيث فجرت أزمة الصور المسيئة للرسول ﷺ في سبتمبر ٢٠٠٥م وأعادت نشرها صحيفة نرويجية، وفعلت الشيء نفسه صحيفة (فرنسوا سوار) الفرنسية وبعض الصحف الأوروبية. وفي بريطانيا كان هناك ٣٤٤ حادثة[٣] عنف وقعت ضد المسلمين. ومن التصرفات الصارخة ما فعله ساركوزي[٤] عندما كان وزيرًا للداخلية في الحكومة الفرنسية أثناء أحداث العنف التي اندلعت في ضاحية كليسي موبوا الباريسية بسبب أوضاع المهاجرين المضطهدين -وأغلبهم مسلمين- فقد اعتمد سياسة القمع مع المهاجرين جميعًا دون تفرقة بين المتهمين والأبرياء، أليس هذا إرهابًا؟[٥].

---

(١) د. عبد الرحمن النقيب «مشروع الشرق الأوسط الكبير» (ص٦٥).
وهكذا تبين أن التعصب الغربي عاد إلى ما كان عليه من قبل بل اشتد واستفحل أمره!
(٢) د. سعيد اللاوندي «فوبيا الإسلام في الغرب» (ص٢٢)، كتاب اليوم، العدد رقم (٤٨١) أبريل ٢٠٠٦م.
(٣) نفسه (ص٦).
(٤) نفسه (ص٨٨).
(٥) المصدر السابق (ص١٢٣-١٢٤).

وقد استغل القضية لخوض انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٧م، ومن المرجّح أن نجاحه فيها يرجع إلى تأييد اليمين الفرنسي وانتخابه رئيسًا لفرنسا، وبعدها أعلن انحيازه لأمريكا في حربها الصليبية، واتخذ موقفًا مغايرًا لسلفه جاك شيراك، وتابعه في تعصبّه رئيس وزراء إيطاليا بيرلسكوني الذي قام بحملة معادية للإسلام، ووصف الحضارة الإسلامية بأنها أقل شأنًا من الحضارة الغربية[١].

إن هذه النماذج هي مجرد عينّات من الحركات العدائية الناجمة عن التعصب الصليبي تُفْصِحُ عن يقظة (نعرات كثيرة تحرّض العالم الغربي على شن حرب «ضروس» ضد الشرق العربي والإسلامي)[٢]، بحيث يصح القول بصحة توقعات الرئيس الأمريكي السابق كلينتون بأن (العداء للإسلام أصبح بديلًا عن العداء للسامية)[٣].



---

(١) نفس المصدر (ص٨٨).

(٢) نفس المصدر (ص٩-١٠).

(٣) نفس المصدر (ص١٠).

تغلغل الصهيونية في الحكومات البريطانية

وعد (بلفور) من منطلق صهيوني:

ظلّ المؤرخون والكتّاب والباحثون يذكرون وعد (بلفور) الشهير من منطلق سياسي بحت، معلّلين ذلك بسعي إنجلترا من ورائه لضمان ولاء اليهود لها -حفاظًا على إمبراطوريتها- فضلًا عن الإسهام في إقامة دولة يهودية كخط دفاعي أول عن الحضارة الغربية.

وكان هذا الوعد يتلخص في إعلان إنجلترا الرسمي لإقامة دولة يهودية في فلسطين، ثم جاءت د/ ريجينا الشريف لتبدّد هذا الوهم الكبير، وتقدّم لنا دراسة مستفيضة بكتابها (الصهيونية غير اليهودية)؛ حيث جذور هذا الوعد، لتعثر عليه ممثلًا في العقيدة الدينية عند بعض المسيحيين من كبار الساسة الإنجليز قبل إعلانه بوقت طويل.

وتوخّيًا للإيجاز، سنبدأ تاريخيًّا باللورد بالمرستون (١٧٨٤-١٨٦٥م)، وكان أول من اكتشف الفكرة السياسية في صلب الحلم الديني البروتستانتي، وكان دعمه للاستيطان اليهودي في فلسطين جزءًا متممًا لنزعاته الصهيونية[(١)].

وفي يناير ١٨٣١م تلقى مذكّرة مرفوعة من سكرتير البحرية البريطانية، وكانت موجهة إلى كل دول شمال أوروبا وأمريكا البروتستانتية، وتطالب الحكام الأوروبيين بأن يقتدوا بقورش، وينفذوا إرادة الله عن طريق السماح لليهود بالعودة إلى فلسطين... وبذلك عبّرت المذكرة عن انتقال الصهيونية غير اليهودية من مرحلة التوقّعات الكتابية الدينية إلى التدخل السياسي النشط، وقام بالمرستون برفع المذكرة إلى الملكة فيكتوريا التي كانت معروفة بورعها[(٢)].

---

(١) د. ريجينا الشريف «الصهيونية غير اليهودية، جذورها ونفوذها في التاريخ الغربي» (ص٨٢). ترجمة أحمد عبد العزيز، مكتبة الشروق الدولية - مصر الجديدة ١٤٣١هـ-فبراير ٢٠١٠م.

(٢) نفسه (ص٨٥).

وكان من أنصار بالمرستون داخل وزارة الخارجية البريطانية اثنان هما متفورد، وچورچ جولر.

وأخذ الأول يدعو إلى صهيونية أشد تطرفًا، واقترح في خطته إيجاد أمة يهودية في فلسطين كدولة محمية تحت وصاية بريطانيا أولًا، ثم توطينهم كدولة مستقلة[١].

أما چورچ جولر فكان يرى أن فلسطين اليهودية هي الضمان الوحيد لاستمرار نفوذ بريطانيا في الشرق... وكان تشرشل أيضًا واحدًا من الرعيل الأول من الصهيونيين السياسيين غير اليهود[٢].

وكان هؤلاء جميعًا صهيونيين مخلصين في صهيونيتهم مثل وايزمان أو هرتزل أو بوردو... وبذلك لم تعد الصهيونية متوافقة مع الاستعمار البريطاني فحسب، بل أصبحت فرعًا منه، وأصبح أيضًا أتباع الصهيونية هم أولئك الذين يشغلون مناصب مهمة في الدوائر الحكومية في إنجلترا[٣].

وفي عام ١٨٨٢م عقد القسيس ويليام هشلر مؤتمر المسيحيين البارزين؛ حيث قام بدور الوسيط بين الصهيونية اليهودية وغير اليهودية وكان مشربًا بالفكرة الإنجيلية عن العصر الألفي السعيد.

وقد تحدّث في كتابه (إعادة اليهود إلى فلسطين) عام ١٨٩٤م، الذي ظهر قبل كتاب هرتزل (الدولة اليهودية) بعامين، عن ضرورة إعادة اليهود إلى فلسطين طبقًا لنبوءات العهد القديم[٤].

---

(١) نفسه (ص٨٩).
(٢) نفسه (ص٩١-٩٢).
(٣) نفسه (ص١٠٣).
(٤) نفسه (ص١٠٤).

ومع ميلاد المنظمة الصهيونية في أغسطس ١٨٩٧م في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، وضع اليهود أنفسهم للمرة الأولى مسوّدة البرنامج السياسي الذي كان أساسًا للحركة الصهيونية في القرن العشرين[١].

ولم يكن رئيس الحكومة البريطانية عام ١٩١٦م **لويد چورج** أقل ولاءً للصهيونية من بلفور فقد اعترف بأنه تمرّس بالتاريخ العبري أكثر من تاريخ إنجلترا..

كذلك نشأ بلفور في أحضان التقاليد البروتستانتية بكل ما تحمله من حب للعهد القديم، وإيمان شديد بعودة اليهود كبشرى بمجيء المسيح المنتظر[٢].

وترى الدكتورة ريچينا الشريف أنهما -معًا- كانا على رأس جيل كامل من الصهيونيين غير اليهود الذين كانت لكل منهم شخصيته المتميزة في الحياة العامة وفي الحكومة[٣].



(١) نفسه (ص١٠٥).

(٢) نفسه (ص١١٣).

(٣) نفسه (ص١١٦).

فصل

المسيحية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية

قبل أن نعرض لدور الأصولية اليهودية ودورها الفعّال في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء إسرائيل، علينا أولًا التعرف على المكوّن اليهودي للحضارة الغربية.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وفي موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية كتبت دراسات مبدئية عن كل الموضوعات السابقة، وعن المكوّن اليهودي في الحضارة الغربية الحديثة بشكل عام. وقد بيّنتُ في الموسوعة أهمية إدراك المكوّن اليهودي في فكر أهم المفكرين والأدباء الغربيين... فالعنصر الحاكم والإطار الكلي هو الحضارة الغربية والنموذج المعرفي الغربي الحديث بكل تحيزاته. وتكمن أهمية المكوّن اليهودي في أنه قد يعمّق من هذه التحيزات ويبرزها»[(١)].

التأريخ لما يُسمّى (بالمسيحية الصهيونية):

يعتبر مارتن لوثر كمؤسس وزعيم لحركة الإصلاح البروتستانتي مسئولًا إلى حد بعيد عن ظهور مناخ القرن السادس عشر الروحي والديني، الذي أوجد أرضًا خصبة لانتشار المسيحية اليهودية.. وكان لوثر كنصير متحمس لبولس، يؤمن بأن نبوءة التوراة حول إنقاذ كل إسرائيل كأمة ستتحقق[(٢)].

وقد كان المهاجرون الأوائل إلى أمريكا من البروتستانت الذين حملوا معهم التقاليد والقناعات التوراتية وتفسيرات العهد القديم[(٣)]. وخلال القرن الثامن عشر، أصبح الاعتقاد بالبعث اليهودي يشكّل جانبًا مهمًّا من اللاهوت البروتستانتي الأمريكي؛ حيث احتلت معتقدات المسيح المنتظر والعصر الألفي السعيد مكانًا بارزًا[(٤)]. وكان لكتاب

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «العالم من منظور غربي» (ص٢٦٨). كتاب الهلال بالقاهرة - العدد (٦٠٢) فبراير ٢٠٠١م.
(٢) رضا هلال «تفكيك أمريكا» (ص١٣٨) دار مصر المحروسة بالقاهرة، (ط٣) ٢٠٠٣م.
(٣) نفسه (ص١٤٠).
(٤) نفسه (ص١٤١).

الممول والمبشر الأمريكي ويليام بلاكستون عام ١٨٧٨م بعنوان (يسوع آت) بالغ الأثر في أعضاء الكونجرس والرأسماليين الكبار مثل: جون روكفر، وويليام روكفر، والصحافة، والثقافة، وانتهاءً بالرئيس الأمريكي هاريسون[١].

وبعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م انصبت جهود المسيحية الصهيونية على تأكيد شرعية إسرائيل حسبما ورد في سفر التكوين، وتكفّلت جهود منظمات مسيحية صهيونية مثل شبان المسيح، والأغلبية الأخلاقية، والائتلاف المسيحي في ربط الدين بالسياسة، ونفذت إلى داخل الحزب الجمهوري[٢].

ويعرِّف رضا هلال «الأصولية الدينية» في أمريكان بأنها (التيار الذي يعتقد في عصمة الكتاب المقدس)، أي الأخذ بالمعنى الحرفي للإنجيل والعهد القديم، واستطاع الأصوليون الإنجيليون شغل الرأي العام، وقد ظهر تعبير (الأصولية) في الصحافة الأمريكية في عشرينيات القرن الماضي[٣]، وقد أفسح الحزب الجمهوري للائتلاف المسيحي الأصولي الطريق داخله منذ عام ١٩٧٦م بالتقدّم إلى المنافسة على الرئاسة والسيطرة على الكونجرس[٤].

وقد قرَّر الأصوليون الإنجيليون دخول «الحلبة السياسية» بعد أن جرّبوا ذلك في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٦٤م. ويعتبر عام ١٩٧٦م، عام الإنجيليين بدخولهم «السياسة التصويتية» بدعم المرشح الرئاسي الديمقراطي جيمي كارتر الذي اعتبر نفسه «مسيحيًّا ولد ثانية»[٥].

---

(١) نفسه (ص١٤١).
(٢) نفسه (ص١٤٣).
(٣) نفسه (ص١٤٤).
(٤) نفسه (ص١٤٣).
(٥) نفسه (ص١٤٧).

ومع بداية التسعينيات أصبح الائتلاف المسيحي بزعامة روبرتون قلب اليمين المسيحي، ودخل في تحالف مباشر مع الحزب الجمهوري، وليكوّن ما سُمِّي بالائتلاف اليميني المسيحي... وهكذا أصبحت الأصولية الإنجيلية قوة محركة في النظام السياسي الأمريكي، وبما أهّلها لدور مؤثِّر في السياسة الخارجية والدفاعية الأمريكية.

ويقول رضا هلال: «إن الإنجيلية «الأصولية» انطلاقًا من مبدأ عصمة الكتاب المقدس، تحوّلت لأن تصبح «مسيحية صهيونية» تعتقد في النبوءات التوراتية حول نهاية العالم، وإحلال مملكة جديدة بعد العودة الثانية للمسيح (معركة هرمجدون)، وضرورة تجميع اليهود في الأرض المقدسة قبل عودة المسيح. ولذلك اعتبر الإنجيليون الأصوليون قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م، واحتلال القدس عام ١٩٦٧م، تجسيدًا لصحَّة نبوءات التوراة والاعتقاد بقرب المجيء الثاني للمسيح الذي سيحكم العالم من القدس»[١].



(١) نفسه (ص١٤٨).

الأصولية الإنجيلية في السياسة الأمريكية

وإذا تتبعنا تاريخ أول رئيس أمريكي اعترف بإسرائيل عام ١٩٤٨م، وهو ترومان لتبين لنا أنه كان يطبّق معتقداته، فقد أدّت خلفية ترومان دورًا مهمًّا في حياته فيما بعد، وقد علّم نفسه بنفسه، فدرس التوراة بنفسه، وكان يؤمن -باعتباره أحد تلاميذ التوراة-، بالتبرير التاريخي لوطن قومي يهودي.. وقصة حياته الشخصية، الحافلة بالاقتباسات والإشـارات التوراتية الضمنية، تشير إلى ميله للإسهاب في ذكر التعاليم اليهودية المسيحية... وعندما وُصف بأنه ساعد على خلق دولة إسرائيل اعترض قائلًا: «ساعد على خلق؟! إنني قورش، إنني قورش»، ومن ذا الذي ينسى أن قورش هو الذي أعاد اليهود من منفاهم في بابل إلى القدس[١]؟

ونستنتج من ذلك أن اعتراف ترومان الواقعي بإسرائيل عام ١٩٤٨م لم يكن مجرد سعي وراء الأصوات اليهودية، بل كان تجاوبًا كليًّا مع مشاعره الصهيونية[٢].

وكان الرأي العام الأمريكي يؤيد بشرى وعد بلفور، وكانت الموافقة على الوعد مذهلة في صفوف الكونجرس، وقد استشهد كثير من أعضائه بالعهد القديم العبراني، وطالبوا بأن تقوم حكومة الولايات المتحدة باتخاذ عمل ينسجم مع وعد بلفور.. ويجب أن تمارس سلطاتها الملائمة لرؤية هذه الدولة اليهودية تقوم لتنبثق منها تعاليم ومبادئ يهوذا القديمة[٣].

---

(١) د. ريجينا الشريف «الصهيونية غير اليهودية جذورها ونفوذها في التاريخ الغربي» (ص١٥٠). ترجمة أحمد عبد العزيز – مكتبة الشرق الدولية ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

(٢) نفسه (ص١٤٩).

(٣) نفسه (ص١٥١).

وكان الرئيس الأمريكي الأسبق ريجان يشير دائمًا إلى عواطفه الدينية المبكرة؛ إذ قال في مقابلة تليفزيونية مع المبشر جيم بيكر عام ١٩٨٠م: «كنتُ محظوظًا لأن أمي غرست فيّ إيمانًا عظيمًا أكثر بكثير مما أدرك في ذلك الحين»[١].

وقال في تصريح علني آخر: «إن الكتاب المقدس يضم كل الإجابات على قضايا العصر، وعلى كل الأسئلة الحائرة إذا ما قرأنا وآمنا، إن الأموال التي ننفقها في محاربة المخدرات والمسكرات والأمراض الاجتماعية يمكن توفيرها لو حاولنا أن نعيش وفق الوصايا العشر، لقد أخبروني أنه من بداية الحضارة سُنّت ملايين القوانين، لكنها جميعها لم تصل إلى مستوى قانون الله في الوصايا العشر»[٢].

وكان ريجان يعارض بباعث من معتقده الديني مسألة الفصل بين الدين والسياسة؛ إذ قال: «لا يوجد شيء اسمه الفصل بين الدين والسياسة، وإن القائلين بهذا الفصل لا يفهمون القيم التي قام عليها المجتمع الأمريكي»[٣].

ومن مظاهر اليقظة الدينية في الولايات المتحدة الأمريكية:

عودة المحافظين المسيحيين للاهتمام بالسياسة وظهور حركة (اليمين المسيحي الجديد) بسياساتها للأخلاقيات الفردية والخاصة، والتي انعكست في حملات تطالب بالاعتدال في معاقرة الخمر أو الامتناع عنها أو تحريمها.

وقد أدّى التقاء الدين بالسياسة في نقطة ما إلى ظهور اليمين المسيحي الجديد الذي بدأ في سبعينيات القرن العشرين.

---

(١) محمد بيومي «نبوءات النبي ﷺ في فتن آخر الزمان» (ص٦٠). دار الهدى - ميت غمر ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه (ص٦١)، ومصدره كتاب «الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي» تأليف: إسماعيل الكيلاني - مكتبة الأقصى، قطر.

ويؤيد اليمين المسيحي الجديد القضايا الآتية:

* **عودة القيم التقليدية**: بما في ذلك البناء التقليدي للأسرة، والدور الواضح لكل من الرجل والمرأة، والقيود على الإجهاض، والحدود على حقوق الشواذ، وضرورة رعاية المسنّين في منازلهم، وتقييد التدخل الحكومي في كيفية تنشئة الأبناء.

* **قضايا التعليم**: تأييد إقامة الصلاة والعبادة في المدارس العامة، تعليم علوم الخُلُق وإلغاء تدريس أنماط الحياة غير التقليدية، وتأسيس شبكة للمدارس المسيحية لا تخضع للنظم الحكومية.

* **القضايا العسكرية**: تأييد وضع الولايات المتحدة كالقوة العسكرية العظمى الأولى في العالم.

* **القضايا الاقتصادية**: تدخّل حكومي أقل في تنظيم الأعمال والصناعة، ونقل المسئولية عن الرفاهة من الحكومة الفيدرالية إلى القطاع الخاص، وفرض حدود صارمة على منافع الرفاهة.

* **قضايا الجريمة**: موقف صارم من القانون والنظام[1].

وإذا فحصنا شخصية بوش الابن الذي تزعّم قيادة الحرب الصليبية ضد أفغانستان في ضوء التحليل النفسي لظاهرة اليقظة الدينية نجده ضمن من وصفوا أنفسهم بأنهم (ولدوا ثانية)، أي استيقظت في أنفسهم العاطفة الدينية بعد خمودها.

كذلك فإن أسطع دليل على الصحوة الدينية هو الحرب على العراق باسم الحرب الصليبية، والأسبق من هذه الحرب تكتل الدول الغربية[2] وراء أمريكا في غزو أفغانستان

(١) مايكل كوربت – وجوليا ميتشل كوربت «الدين والسياسة في الولايات المتحدة الأمريكية» (جـ١) ترجمة عصام فايز، و د. ناهد وصفي (ص١٣٤، ١٥٢، ١٥٨)، مكتبة الشروق ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

(٢) وهي بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا وكندا وهولندا وبولندا وأستراليا (وتركيا).
وقبلها شَنَّ الأرثوذكس اليونانيون والصرب الحرب ضد كل من كرواتيا والبوسنة والهرسك، كما شَنَّ الروس الحرب على المسلمين في القوقاز.
د. مراد هوفمان: «الإسلام عام ٢٠٠٠م»، ترجمة عادل المعلم (ص٣١)، مكتبة الشروق ١٩٩٥م.

عام ٢٠٠١م، وكلها نصرانية باستثناء تركيا، وهي خطيئة كبرى لهذه الدولة الإسلامية حينذاك.

يقول الأستاذ صلاح الدين جافظ: «ولعلنا نذكر ونذكّر الآخرين أن بوش شَنَّ حربه الضروس على أفغانستان عام ٢٠٠١م باسم الحرب ضد الإرهاب الإسلامي التي سمّاها حرب الخير ضد الشر، مدفوعًا بنظرية «صدام الحضارات» التي تبناها المفكر الأمريكي (صمويل هانتنجتون) القائمة على فكرة أن على الحضارة الغربية اليهودية المسيحية خوض حرب البقاء مع حضارات أخرى تهدّدها، وفي مقدمتها الحضارة الإسلامية؛ لأنها حضارة عدوانية مقاتلة تبغي التوسع والعدوان!

ولقد وجدتُ فكرة صراع الحضارات هذه جاذبية لدى جماعة المحافظين الجدد والتحالف المسيحي الصهيوني[1]، أصحاب العداء والكراهية الشديدة للإسلام كدين وللمسلمين كشعوب مختلفة، مثلما وجدتُ مؤرخًا ومفكرًا بنى تاريخه على أساس أنه الخبير الأول بالإسلام والمسلمين، ونعني (برنارد لويس) الذي أصبح بين يوم وليلة منظّر وفيلسوف المحافظين الجدد، الذين احتشدوا من حول الرئيس بوش...

وبعقول هؤلاء وسواعدهم، اندفع بوش في شَنِّ حربه ضد أفغانستان، ومن بعدها العراق ٢٠٠٣م، دفاعًا عن الخير الكامن في الحضارة الغربية، ضد الشر المتراكم في الحضارة الإسلامية، ولذلك لم تكن عبارة بوش في البدايات المبكّرة، مجرد زلة لسان كما حاول العرب المتأمركون تبريرها أو إعادة تفسيرها فيما بعد... بل كانت تعبيرًا عن حقيقة الأهداف والمقاصد»[2].

---

(١) وهم مقتنعون بأن نهاية العالم قد حانت، وأنهم مسئولون عن دفع الأحداث لتحقيق نبوءات الأساطير والخرافات التلمودية حتى يتحقق الميلاد الثاني للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويعتبر قادتهم أنهم أصحاب مهمة مقدسة من السماء، وأنهم ملهمون.
أسامة غيث مقال بعنوان «عقيدة الدمار والتدمير» الأهرام في ٦/ ١/ ٢٠٠٧م.

(٢) صلاح الدين حافظ، مقال بعنوان: «وجه واحد... وثلاثة أقنعة»، جريدة الأهرام في ٢٣ ذي الحجة ١٤٢٨هـ - ٢ يناير ٢٠٠٨م.

ومن تصريحات بوش قبل انـدلاع حرب العراق بيومين أنه يهدف إلى (اقتلاع ذلك الدين الذي يتمخض عنه الإرهــاب)، وذلك في سياق إعلانه عن عزمه الذي لا رجعة فيه على احتلال العراق سواء تنحَّى صدام حسين أم لا[١]. وقد قامت الدكتورة زينب عبد العزيز باختيار بعض النماذج من بين ٣٣٥ عنوانًا لمقالات تتناول فكرة الحرب الصليبية التي تشنها الإدارة الأمريكية ضد الإسلام والمسلمين، ونحن بدورنا نقتطف منها الآتي:

(في ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٣م كتب القس چاك موري الرئيس السابق للاتحاد البروتستانتي في فرنسا تحت عنوان (البعد الديني يعقِّد الأمور) لا يمكن استبعاد البعد الديني من الوضع الراهن، فالصراعات الدينية كانت سببًا في اجتياح يوغوسلافيا السابقة، وفي أيرلندا وبريطانيا، ولا أقول شيئًا عن مأساة فلسطين اليوم والاستفزاز الديني الذي قام به شارون باجتياحه ساحة المساجد، والأصولية التي تحوم حول البيت الأبيض التي تحدد باسم (الرب) السياسة الأمريكية المحابية لإسرائيل بلا قيد أو شرط، الأمر الذي يجعلها أكثر تعقيدًا، لذلك حينما أسمع الرئيس بوش يتحدث عن حربه الصليبية للخير ضد الشر، أتوقع أسوأ ما يمكن توقعه).

وفي ١٩ أكتوبر ٢٠٠٢م كتبت بيير برنانسي تحت عنوان (الرعب للدفع إلى الحرب): وبعد عام من الحرب الصليبية على أفغانستان تستعد أمريكا لمرحلة جديدة في حربها الصليبية ضد العالم الإسلامي، وهذه المرة فهي تقودها ضد الشعب العراقي المسلم لتستكمل خطتها لتفتيت الأمة وسرقة ثرواتها.

وفي ٣١/ ١/ ٢٠٠٢م قال بيتر كوبوت تحت عنوان (أمريكا أضاعت فرصة): إنها تدفعنا للوقوع في فخ يبدو فيه أن المسيحية والحضارة الغربية تستعدان للانطلاق في حرب صليبية ضد الإسلام. اهـ[٢].

---

(١) د. زينب عبد العزيز «حرب صليبية بكل المقاييس» (ص١٣٩) دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة ٢٠٠٣م.
(٢) نفس المصدر (ص٢٢، ٢٤).

كما يتعرض الإسلام لهجمات عدائية مكثفة بأجهزة إعلام الغرب، يقودها بوش الابن الذي وصف الإسلام (بالفاشية)، ولم يكن وصفه لحرب العراق ٢٠٠٣م بأنها صليبية مجرد زلة لسان كما أسلفنا، (بل هي استراتيجية مؤصلة سلفًا، بدأت بالحرب النفسية ضد العرب والمسلمين، من خلال الحملات ضد الإسلام والعروبة، ثم الحرب الإعلامية والثقافية ضد ثقافتهم ومناهجهم التربوية ثم الاحتلال العسكري)[(١)].

استمرار صعود اليمين المتطرّف:

وأخيرًا جاء الرئيس الأمريكي ترامب ليستكمل ما بدأه بوش وليرجح كفّة اليمين المتطرف معلنًا الحرب على المسلمين أثناء خطبه الانتخابية، ثم خطى الخطوة التالية فقام بتعيين معاونيه ممن يُعرفون بمناهضتهم للإسلام. ومن هؤلاء (بانون) الذي تولّى منصب كبير مستشاري واستراتيجي البيت الأبيض.. ومن آرائه أنه بعد مرحلة الثورة مرت أمريكا بالحرب الأهلية، وعانت من الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك انتقلت البلاد إلى التحول الرابع العظيم في التاريخ الأمريكي، ثم قال: «ونحن في طريقنا لنكون شيئًا واحدًا في مواجهة الجانب الآخر (الإسلام الراديكالي)»[(٢)].

ويقول بانون أيضًا: «إن التوسع الإسلامي - الذي يعتقد أن الغرب اليهودي المسيحي- في طريقه للتراجع»، ثم يضيف: «نحن في حرب ستمتد لأكثر من ١٠٠ عام ضد الإسلام الراديكالي، نحن في حرب صريحة ضد الفاشية الإسلامية الجهادية.. هذه الحرب -كما أعتقد- تتفاقم بشكل أسرع بكثير مما يمكن للحكومات التعامل معها.

---

(١) علي عبد العال، مقال بعنوان: «المحافظون الجدد: منظرون لخراب العالم» (ص٧٢)، مجلة أدب ونقد نوفمبر ٢٠٠٧م العدد (٢٦٧).

(٢) د. هشام الحمامي مقال بعنوان: «بانون فقط يعرف ما يرغب به بانون»، صفحة الرأي جريدة المصريون، القاهرة ١٥ جمادي الأول ١٤٣٨هـ-١٢/ ٢/ ٢٠١٧م، وكان بانون مؤيدًا لحركة سياسية سميت (حركة الشاي الشعبوية) أشعلت الثورة ضد الاستعمار البريطاني، وتعتبر الحركة أن مناهضة الإسلام أحد أهم واجباتها!

ويجب على الرأسمالية اليهودية والمسيحية الغربية الرد بقوة، خشية أن يسقط الغرب، كما حدث عندما سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين ١٤٥٣م.. كما يرى أن أمريكا تحتاج الآن بقوة إلى الرؤية القومية ذات القيم اليهودية والمسيحية، وضرورة العمل على بناء حركة يمينية غربية عابرة للحدود (وهو دائمًا ما يتحدث عن الإسلام بأنه أكثر أديان العالم تطرفًا)، ويقول: إن المسلمين يشكلون طابورًا خامسًا في الولايات المتحدة»[١].

ويضيف كاتب المقال أن بانون له علاقات وثيقة مع حركات اليمين المتطرف في أوروبا ويؤمن إيمانًا عميقًا بتفوق العرق الأبيض، وبالرجوع أيضًا لكتاب (تاريخ الحزب الديموقراطي) لمؤلفه رونالد رادوسن، يذكر الدكتور هشام الحمامي أنه أنهى حديثه عن بانون بجملة وصفها بأنها خطيرة للغاية، وهي (لا نستطيع أن نعرف ما هو عليه حقًّا.. فقط بانون هو من يعرف ما يرغب به بانون.. لكن ما نعرفه على وجه اليقين أن رجلًا راهن على الرغبة في تجدّد **عنف الحضارة الغربية**، أصبح لدية السلطة الآن لتحقيق تلك الرغبة)[٢].

وكان حدث تعيين ستيف بانون كمستشار لرسم سياسات ترامب الاستراتيجية موضع تعليق من كتّاب المقالات التي لم تخل تعليقاتهم من الانزعاج بسبب تصريحاته ومواقفه العدائية، مثل وصفه مثلًا للإسلام بأنه دين عنف ودماء لا دين سلام، منتقدًا ما اعتبره دفاعًا من أوباما عن الإسلام والمسلمين[٣].

وتقول الكاتبة الصحفية الأستاذة إنجي مصطفى: (يمكننا دون خطأ كبير أن نصف ستيف بانون بالنازية، وهو مؤسس الفكر الآري الجديد، المؤمن بتفوق الجنس

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر، وينبّهنا كاتب المقال إلى خطورة ما قاله رونالد رادوسن محذّرًا بقوله (تذكر هذه الجملة: عنف الحضارة الغربية)!

(٣) أيمن الصياد، مقال بعنوان (أيام ترامب الأولى، الحقائق المغلوطة)، (ص١٠)، جريدة الشروق القاهرية ٥/ ٢/ ٢٠١٧م.

الأبيض على باقي الأجناس، متمرسًا في غسل أدمغة الشعب الأمريكي تمامًا على خُطَى جوبلز، وليس هذا فحسب، بل وتوقعاتهم ومعتقداتهم كذلك)[١].

وتقول: (وتكفي نظرة سريعة على الموقع الذي كان يديره ستيف، لتتلظى بين لهب مقالاته النارية التي تستهدف بكل عدائية المسلمين وتدعو إلى نبذهم وطردهم من أمريكا، ولا تستبعد صحة الشائعات التي تؤكد احتواء بانون ترامب تمامًا بدليل اختبار إحدى الصحف هناك لمانشيت رئيس عنوانه (هل يسيطر ستيف على ترامب؟))[٢].

أما عن الرئيس الأمريكي نفسه، فيصفه الأستاذ أيمن الصياد (بالعنصري الفظ) لتحيّزه المطلق لليمين الإسرائيلي، وحين لا يخفي موقفه من الإسلام والمسلمين[٣].

ويصفه الأستاذ حدة حزام بأنه لا يقل عنصرية عن سابقيه من الرؤساء مقررًا في جزم: (ترامب ليس هتلر جديدًا مثلما يحلو للبعض وصفه، فهو لا يختلف عن الرؤساء الأمريكيين السابقين، فقط هم كانوا يمارسون عنصريتهم في الخفاء، وهو يمارسها في العلن، فأوباما الذي يبكيه الإعلام الغربي طرد ما لا يقل عن ٥,٢ مليون مهاجر، حتى أكثر من المتهور الآخر -بوش الابن، زد على ذلك فالقوانين التي استند عليها ترامب اليوم والصلاحيات التي يتمتع بها، وضعها سلفه أوباما)[٤].

أما عن طبيعة وأخلاقيات ترامب فتتضح مما يقوله ببساطة ووضوح بأنه ليس ضد التعذيب الذي استخدمه المحققون الأمريكيون في كثير من الحالات في معتقل

---

(١) إنجي مصطفى، مقال بعنوان (ترامب ليس الحاكم الفعلي لأمريكا)، (ص١١)، جريدة المصريون القاهرية ٥/ ٢/ ٢٠١٧م.

(٢) نفسه.

(٣) مقال السابق الإشارة إليه.

(٤) حدة حزام، مقال بعنوان (ترامب ليس.. «هتلر» آخر!) جريدة الشروق المصرية في ٥/ ٢/ ٢٠١٧م نقلًا من صحيفة الفجر الجزائرية.

غوانتانامو ومراكز التحقيق السرية حول العالم، كأسلوب الإيحاء بالغرق وسواه، فإنه ليس ضده طالما هو (فعّال) ويوصل المحققين إلى مبتغاهم، ساخرًا من المنظمات الدولية المعنية بالشأن، كاللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهيئة القانونيين الدوليين، والأمم المتحدة[(١)].

ويقول الصحفي حسن منيمنة: (ترامب صاحب مقولة: الإسلام يكرهنا، وفي محيطه عدد غير قليل من أصحاب التصورات التسطيحية والتقييمات الطاعنة بالإسلام والمسلمين الذين يقدمون له التأطير العلمي الذي يُصادق على حسه البديهي)[(٢)].

ونضيف بأنه بالرغم من استقالة الجنرال فلين، فإن تحليل كتابه الوحيد «الحرب المقدسة» يمكن استنتاج أن مضمونه لا يخرج عن معتقدات المحيطين بالرئيس الأمريكي السابق عرضها.

وقد عمل الجنرال فلين كرئيس للمخابرات العسكرية الأمريكية بين عامي ٢٠١٢- ٢٠١٤، ويعتقد إن الولايات المتحدة منخرطة بالفعل في حرب دينية، وإن أمريكا تخسر هذه الحرب حتى هذه اللحظة، ويقول فلين: نحن في حرب عالمية، ويرى ضرورة تدمير الجيوش الجهادية الإسلامية!

وفي شهر فبراير ٢٠١٦ م غرّد الجنرال فلين قائلًا: إن الخوف من المسلمين منطقي، وطالب متابعيه بنشر تغريدته.. وفي أغسطس وصف الإسلام بالسرطان، وظل يردد أن الإسلام هو فكر سياسي يستتر خلف الدين.

---

(١) نهلة الشهال، مقال بعنوان (كيف يمكن أن يكون ما يجري مقبولًا؟) جريدة الحياة اللندنية في ٥/ ٢/ ٢٠١٧م.
(٢) مقال بعنوان (رئيس الإهانة: الولايات المتحدة في عهد ترامب) بنفس الجريدة (ص١٤).

ولا تتوقف الحرب لدى فلين على الانتصار العسكري، بل تتخطاه لضرورة تحقيق (الانتصار الأيديولوجي)، ويرى أنه من المنطقي وبعد انتصارات أمريكا في الماضي، والتي جاءت نتيجة مباركة الرب، الاعتقاد بأن هزيمةَ المسلمين دليلٌ على أن عقيدتهم تَمَّ رفضها من الرفيق الأعلى![1].

وخلاصة ذلك كله، فإننا أمام أشخاص يحيطون بالرئيس الأمريكي الجديد، تجمعهم عقائد واحدة، وهدف مشترك عدائي ضد الإسلام وأمته، وهو ما دفع بالكاتب الصحفي الأستاذ محمد المنشاوي إلى القول بأن واشنطن أصبحتْ قبل أقل من مرور شهر على وجود ترامب في البيت الأبيض أكثر يمينية[2].



(١) محمد المنشاوي، مقال بعنوان (حرب ترامب المقدسة)، جريدة الشروق القاهرية في ٢/ ١٢/ ٢٠١٦م.
(٢) محمد المنشاوي، مقال بعنوان (خريطة الحكم في واشنطن) جريدة الشروق في ١٧/ ٢/ ٢٠١٧م لكاتب صحفي يكتب من واشنطن.

فصل

الصحوة الإسلامية :
تعريفها وهدفها وواجباتها

إن تاريخنا يشهد بأن الحروب لم تتوقف من بعثة النبي ﷺ حتى عصرنا الحاضر.

وقد قوبلت الصحوة الإسلامية المعاصرة بمقاومة شديدة من الغرب وأعوانه في بلادنا، باستخدام أساليب متعددة منها: الطعن في تاريخ الإسلام وحضارته وعلمائه، بل امتد إلى النّيل من مصادره وتراثه بواسطة وسائل الإعلام المجنّدة لهذا الهدف، أضف إلى ذلك الاتهامات الباطلة بالإرهاب(١).

ولكن لا يفتُّ هذا في عضدنا إذا استرجعنا الدائرة الواسعة التي انتشرت فيها الصحوة الإسلامية على امتداد البلاد العربية والإسلامية شرقًا وغربًا، يقول الأستاذ فهمي هريدي: (إن الصحوة الإسلامية تجاوزت حدود الحركة الإسلامية، أعني إن المد الإسلامي الراهن صار أكبر من أي حركة إسلامية أو مجموعة حركات منظمة في الوطن العربي، فليس كل الذين التحقوا بالظاهرة الإسلامية كوادر في منظمات بعينها، بل أكاد أزعم -من خلال الاحتكاك العملي- أن الحركة الإسلامية بمختلف فصائلها تظل جزءًا متواضعًا في المحيط الإسلامي الكبير)(٢).

ويرى الأستاذ فهمي هريدي (أن أهمية المد الإسلامي يبدو من زاوية، إقبالًا على الله تعالى وتعلقًا بأهداب العقيدة وسعيًا إلى تطبيق الشريعة، لكنه يبدو من زاوية أخرى -لا تقل أهمية- مشروعًا متكاملًا للاستقلال الحضاري)(٣).

---

(١) ينظر كتابنا (الحضارة الإسلامية: حضارة سلام لا إرهاب) ط الدار العربية بالإسكندرية.

(٢) فهمي هريدي، مقال بعنوان (الصحوة الإسلامية الحاضر والمستقبل) (ص١٣) مجلة المسلم المعاصر، العددان الحادي والخمسون والثاني والخمسون ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(٣) نفسه (ص١١).

ويصور انشغال الغرب بتلك الصحوة بقوله: وعندما مولت المخابرات الأمريكية أكثر من ١٢٠ ندوة في أنحاء العالم ١٩٨٢ لدراسة موضوع الصحوة الإسلامية، فإنها كانت بمسلكها ذاك تجسد الموقف الغربي، فضولًا كان أم قلقًا (ص٩).

وكان العالم الأمريكي هنتنجتون أيضًا قد عنى بالصحوة الإسلامية عناية بالغة بكتابة (صراع الحضارات)، وعرّفها بأنها (الجهد الذي يبذله المسلمون لجعل الإسلام كمصدر للهوية والمعنى والاستقرار والشرعية والقدوة والأمل)[١].

وأضاف إلى ذلك، فوصفها بأنها باتساعها وعمقها هي أحدث مرحلة في تكييف الحضارة الإسلامية مع الغرب، وسعى لإيجاد حَلٍّ ليس في الأيديولوجيات الغربية، وإنما في الإسلام، وهي تجسّد رفض (الحداثة) ورفض (الثقافة الغربية)، والعودة إلى الالتزام بالإسلام كدليل حياة في العالم الحديث[٢].

هذا، وقد لاحظ الأستاذ طلعت الشايب -وهو مترجم الكتاب- أن هنتنجتون بدأ بكلمتي (الصحوة) و(الإسلامية) بحرفين كبيرين، فاستنتج بأنه يشير بذلك إلى حدث تاريخي بالغ الأهمية، ويؤثر على جنس البشرية أو يزيد، وأنه كذلك لا يقل أهمية عن الثورة الأمريكية أو الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية، وهو يشبه أيضًا أو يماثل الإصلاح البروتستانتي في المجتمع الأوروبي[٣].

وقد تعرضت حضارتنا الإسلامية لهجمات أشد قوة، ويكفي استرجاع حروب التتار والحروب الصليبية؛ حيث يظن المتابع لضراوتها ووحشيّتها أنها كانت كفيلة بالقضاء على الأمة الإسلامية، ولكنها بفضل الله تعالى بقيت حية.

وفي العصر الحديث، تعرضت البلاد العربية والإسلامية للغزو الاستعماري الغربي الذي لا يقل ضراوة عن الحروب الصليبية، وفي السياق نفسه نذكر ما تعرض له المسلمون في الاتحاد السوڤيتي من مجازر بغرض الإبادة والاستئصال.

---

(١) صامويل هنتنجتون «صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي الجديد»، ترجمة طلعت الشايب، وتقديم د. صلاح قنصوة، سطور بالقاهرة ١٩٩٨م.

(٢) نفسه (ص٤٠٤).

(٣) نفسه (ص١٨٠).

ومع ذلك (لم يستطع الاتحاد السوفيتي القضاء على الإسلام في آسيا الوسطى؛ لأن اعتقال علماء الإسلام وحرق المكتبات وحده لا يفرّغ الإسلام من قوته، فهناك عنصر الشفاهية كوسيلة تعلّم وإعلام)[١].

وتقول عالمة الأديان أرمسترونج الأستاذ بجامعة أكسفورد: «إن الحملة الصليبية المعاصرة وإن كانت أقل عنفًا إلا أن تأثيرها أكثر تدميرًا من الحروب المقدسة التي شنها الصليبيون في القرون الوسطى؛ لأنها جعلت العالم الإسلامي مجرد تابع، ومزّقت المسلمين بفرضها لبرامج التحديث الغربية المتسارعة»[٢] ثم تصور حدة الصراع بين الإسلاميين والعلمانيين بالجزائر كنموذج؛ إذ بعد فوز جبهة الإنقاذ في الانتخابات التشريعية ١٩٩٢ قام الجيش بانقلاب وأبعد رئيس جبهة التحرير بن جديد، وقمعوا جبهة الإنقاذ، وألقوا بقادتها إلى السجون[٣].

وتستنتج أرمسترونج من تجربة جبهة الإنقاذ في الجزائر درسًا مستفادًا فتقول: سواء رضي الغرب أم لم يَرْضَ، فإن نجاح جبهة الإنقاذ في الانتخابات المبدئية قد بيّن بوضوح أن الشعوب الإسلامية تريد شكلًا ما من الحكم الإسلامي، وقد حمل ذلك رسالة واضحة للحكومات العلمانية في مصر والمغرب والجزائر التي تدرك النمو المتزايد للتدين في بلدانها. في منتصف القرن العشرين كانت السيادة للعلمانيين، وبدا وكأن الإسلام قد أصبح من ذكريات ماضٍ لا يمكن أن يعود، لكن تعرف الآن كل حكومة في الشرق الأوسط أنه إن تمّت انتخابات ديموقراطية نزيهة فإن الإسلاميين هُمْ من سوف يمسكون بالسلطة[٤].

---

(١) د. مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة .. ديانة في صعود)، تعريب عادل المعلم ويس إبراهيم، مكتبة الشروق ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) كارين أرمسترونج (مسيرة الإسلام) (ص٢٥٩) ترجمة د. هشام الحناوي ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

(٣) نفسه (ص٢٦٢).

(٤) نفسه (ص٢٦٤/ ٢٦٥).

لذلك سجّلت الدكتورة زيجريد هونكه رؤيتها للبلاد الإسلامية بين تيّاريّ التقليد الأعمى للمدنية الحديثة الغربية وتيار التقوقع والانغلاق، فنقدت كليهما: فإن البلاد العربية عندما تحررت من سير الاستعمار الذي جَثَمَ فوق صدرها من الأوروبيين الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، ألفت نفسها على اختلافها، تواجه متطلبات العصر الحديث، وما بلغ من شأو بعيد في مجالات الصناعة والتكنولوجيا، والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم، وأن يحتذوا سير السادة وحياتهم، وطريقتهم في العيش والتفكير والعادات.. (وهكذا يتأوربون كالأوروبيين، ويتأمركون كالأمريكيين ويتروسون كالروس)[١].

ولكن أشادت بمن رفض التقليد الأعمى للحضارة الغربية الحديثة، وكان من رأيها تعهد (الأصول) و(الجذور) حتى يشق العالم العربي طريقه إلى الأمام، وهي تتمثل في الأصول التالية:

١- اللغة العربية، وقد راعها أنه في الجزائر على سبيل المثال كادت تمحى على مدى مائة وثلاثين عامًا تحت سيطرة الفرنسية، واللغة العربية بلا ريب هي المفتاح الرئيسي إلى عالم الفكر الذاتي للعربي (ونُضيف وللمسلمين).

٢- الدين بصفته المحور الذي يدور حوله وجودهم في كُلِّ ما يتعلق بأمورهم، وتعني بذلك الإسلام النقي من العناصر غير الإسلامية، متشهدة بقول محمد عزيز الحبي بالرباط: (إن المسلم يكون في خدمة الله إذا كان في عون أخيه، فالعقيدة الإسلامية شهادة وعمل، الشهادة لله تعالى، والعمل التزامًا بالسعي في الدنيا -أي في سبيل الله- الالتزام الكلي للإنسان، فهو مسئول مسئولية تامة عن أفعاله)[٢].

---

(١) زيجريد هونكه (الله، ليس كذلك) (ص٩٥) ترجمة د/ غريب أحمد غريب -دار الشروق ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

(٢) نفسه (ص٩٥).

٣- عودة الوعي والرجوع إلى الهويَّة الذاتية، وسبيله التنقيب عن التراث واستيعاب أسباب نشرته، وإحيائه؛ لأنه كان سبب نبوغهم، وتنوه أيضًا بفضل أجداد العرب، وذلك حين سطعت شمس الله على الغرب، ومن خلال ما جاء العرب به بذلك القدر العظيم. إذْ المرء لا يستخلص الدروس والعبر من أسباب ازدهار الحضارة فقط، بل من دواعي انهيارها كذلك، ولذلك ليتجنب الأخطار والمزالق.. ثم تحذّر من كلا الاتجاهين: ذلك الغالي في الانفتاح بلا قيد ولا شرط حتى الاغتراب، والذي يقابله عكسيًّا فيوغل في التقوقع والانغلاق[١].

ونراها تعلّل الصحوة الإسلامية بأن مسيرة المسلمين انتكست عند تقليدهم للغرب بجناحيه الليبرالي والماركسي، فاتضح لهم أنه لا مفر من الرجوع إلى دينهم، فقالت: (وبعد المرحلة الأولى التي أعقبت الاستقلال، والتي اتسمت على جميع المستويات باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيديولوجية الروسية قدوةً لها، انتكست المسيرة، وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب ودخيل ورفضه، وخاصةً ما أتى من الغرب، وقد ارتبط ذلك بإحياء الإسلام والرجوع إليه)[٢].

ومن أبرز ثمرات الصحوة الإسلامية أنها أعادت العلماء والأدباء والمفكرين الذين تأثروا في بَدْءِ حياتهم بالثقافة الغربية ثم عادوا إلى أحضان أمتهم الإسلامية لرفع راية حضارتها من جديد، نذكر منهم:

- أ. د. عبد الرحمن بدوي.
- أ. د. محمد عمارة.
- د/ مصطفى محمود.

---

(١) نفسه (ص٩٦).

(٢) نفسه (ص٩٦).

- أ. د. زكي نجيب محمود.
- أ. د. طه حسين.
- أ. د. عبد الوهاب المسيري.
- الأستاذ خالد محمد خالد.
- الأستاذ محمد جلال كشك.
- أ. د. عبد العزيز محمود.
- د/ منصور فهمي.
- الأستاذ طارق البشري.
- الأستاذ فهمي هريدي.

إنهم أيقنوا أن حضارة الإسلام هي الأرقى والأفضل، وعلى المسلمين إن أرادوا النهوض من جديد، فعليهم باتباع شريعتهم والتحلِّي بأخلاق الإسلام وفضائله.

وقد أسهموا بمؤلفاتهم في دعم تلك الصحوة أيضًا؛ حيث أيقنوا من تجاربهم التي استغرقت السنين من أعمارهم، أن المشروع الإسلامي هو السبيل للنهضة.

من واجبات الصحوة في بلادنا الإسلامية:

أولًا: إن من أهم الواجبات التي ينبغي أن تسلكها الصحوة الإسلامية هي **التعرّف على سنَّة الله تعالى في النصر والهزيمة**، مع الحرص على سلوك الطريق المستقيم طبقًا لسنة الله تعالى، ولقد كان دأب العلماء والدعاة على مَرِّ التاريخ تذكير الأمة الإسلامية بتلك السُّنة، ولا يخفى علينا ما وصل إليه العالم الإسلامي منذ قرنين أو ثلاثة، وإنه (يعاني من هزائم ثقافية وسياسية وعسكرية، وإنه لكي يوقف سيل هذه الهزائم، يجب أن يراجع نفسه، ويسدد خطوه، ويصطلح مع ربه، ويدع المعاصي الاجتماعية والشخصية

التي أزرت به)[١]. وإن تاريخ العالم الإسلامي الذي ظل قرابة ألف عام، ظل متجانسًا ومتماسكًا يشدّ بعضه بعضه أزر بعض، ويأزر إلى عقيدته الجامعة كلما تهدد كيانه خطر[٢].

ثم كانت الهزائم بسبب عوامل داخلية ترجع إلى سلوك الأمة نفسها، وأخرى خارجية بسبب تربّص الأعداء المستمر بها وحرصهم على هزيمتها عسكريًّا وثقافيًّا، بل إن خسائر المسلمين من الاستعمار الثقافي أضعاف خسائرهم من الاستعمار العسكري!

ويلخِّص الشيخ محمد الغزالي أسباب الهزائم إلى (المعاصي الخلقية والسياسية والثقافية التي ارتكبوها فأصاب العرب ما أصابهم)[٣].

ويصفُ الأمة الإسلامية بأنها تواجه أيامًا عجافًا، وهزائم سياسيةً وثقافية، ويقول: (ولا عجب في ذلك فتاريخ الأمم كلها بين مدّ وجزر، وقد يسيء المسلمون إلى ربهم وأنفسهم ويتعرضون بذلك لعقابه، ولم يستثن الله تعالى أحدًا من سنته الصارمة)[٤].

ومن سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستخلص المنهج المستقيم الذي سلكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ قام على تغيير حقيقي في النفس البشرية، يتناول البواعث والغايات كلها، وهكذا أخرج قومه من الظلمات إلى النور، (ولن يكون لنا نور نمشي به في الناس إلا إذا سلكنا هذا الدرب نفسه، وتحملّنا برجولة صعوبات الطريق)[٥].

أما العوامل الخارجية فتتلخص في مكايد الأعداء الثلاثة:

١- الصليبية.　　　　٢- الصهيونية.

٣- الشيوعية.

---

(١) محمد الغزالي (الحق المر) (جـ٢) (ص١١٠)، دار الشروق ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
(٢) نفسه (ص٩٥).
(٣) نفسه (ص٣٥).
(٤) نفسه (ص٣٣).
(٥) نفسه (ص٩٨).

١- الصليبية:

ملك الإنجليز فلسطين وقاتلوا العرب تمكينًا لليهود، أعطشوا أرضهم وأذلوهم، وقرروا إذا وجدوا في بيت صاحبه يدافع بها عن نفسه، أن يدمروا البيت ليسكن أهله في العراء! وذلك كله في ظل الكلمة التي قالها مارشالهم ألنبي بعد الاستيلاء على فلسطين (اليوم انتهت الحروب الصليبية)[١].

وتفككت الإمبراطورية البريطانية، وخلفها في قيادة العالم الأمريكان، فاستأنفوا المساندة الصليبية لبني إسرائيل، وأمدوهم بسيل من المال والسلاح، ووقفوا محامين عنهم في مجلس الأمن، فإذا قرر أعضاء المجلس التنديد بإسرائيل لما تقترفه من آثام، سارع المندوب الأمريكي بإبطال القرار، وإعطاء إسرائيل الحق في المزيد من الطغيان[٢].

وفي الجزائر عند احتلالها أصدر الحاكم العام أمرًا بتحويل أكبر مساجدها إلى كاتدرائية، وتحركت فرق الجيش الفرنسي المستعمر إلى مسجد كتشاوة، فحولته إلى كنيسة بعد ما ذبحت أربعة آلاف مسلم استماتوا وراء أبوابه يقاتلون الغزاة الصليبيين[٣].

وكانت هناك أيضًا مذابح في زنجبار، وضمت زنجبار إلى تنجانيقا في البر الأفريقي، وتكونت جمهورية تنزانيا (الاشتراكية) وتعاون حكامها مع الفاتيكان على الإطاحة بالحاكم المسلم في أوغندا[٤].

وفي تشاد أسست الصليبية العالمية قاعدة صلبة لما ينعم فيها الزنوج المتنصرون بالسلام والاستقرار والنماء الأدبي والمادي، أما المسلمون في الشمال فمن عشرين عامًا حينذاك والحروب تشتعل بينهم، وتُوهِنُ قواهم، وتنشر الخراب في ربوعهم[٥].

---

(١) (ص١٦١).
(٢) (ص١٦١).
(٣) نفسه (ص١٤٦).
(٤) نفسه (ص١٦٥).
(٥) نفسه (ص١١٠).

وفي السودان، تعاونت كنائس اسكنديناوه مع الفاتيكان ومع كندا والولايات المتحدة على تنصير الجنوب، وإنشاء جسور تعبر منها النصرانية إلى وسط أفريقيا كلها. أضف إلى ذلك حرب الإبادة في أفغانستان تزهق فيها أرواح المسلمين دونها ضجة تذكر. ومسلمو الفلبين وبلغاريا وألبانيا فإن الويلات تحل بهم في سكون، ولا يكترث بهم أحد والحق إن المسلمين في الفلبين إلى قرن مضى كانوا جمهرة السكان وأصحاب الأرض الخصبة، فما زال الغزو الصليبي يدحرهم قبيلًا بعد قبيل حتى أُلجئوا إلى مساحة من الأرض تضيق بدينهم ودنياهم على سواء[١].

٢- الصهيونية:

في عام ١٩٤٨م أُسقطت نصف فلسطين في أيدي اليهود إثر هزائم ومؤامرات شاركت فيها هيئة الأمم وقوى الاستعمار العالمي.

وقد جعل الشيخ الغزالي من المقاومة الإسلامية في أرض فلسطين نموذجًا حيًّا لتطبيق سنة الله تعالى في المقاومة والمصابرة؛ إذ عندما وجد عرب فلسطين أنفسهم في سجن كبير كان تحركهم للخروج معه بدافع الإيمان؛ (لأن الإيمان العميق لا ينهزم مهما كان الحاضر كئيبًا. لقد شرع في هدوء يتحرك ليثبت وجوده، وليتعرض بصبره وأمله إلى روح الله تعالى)[٢].

ثم يستطرد قائلًا: «إن الكفاح الفلسطيني بدأ إسلاميًّا خالصًا تمثّله عمامة محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ومع ضراوة القوى الشريرة، وتكاتف الشرق والغرب ضده... ولكن المجاهدين المسلمين ما وهنوا ولا استكانوا»[٣].

---

(١) نفسه (ص٦٧-٦٩).

(٢) نفسه (ص٦٣).

(٣) (ص٦٤).

ولكنه يتحسّر على سلوك العلمانيين الذين تخلّوا عن السلاح الإيماني الإسلامي.

فقال في الختام: (فلما أُبعد الإسلام ضاعَ كل شيء! ولا أمل إلا في العودة إليه)[١].. إنها سنة إلهية.

كذلك سجّل التحالف بين الصليبية والصهيونية بمراجعته لبعض القوانين التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية، وضرب على ذلك مثالًا بقانون ضار بالمصالح الأمريكية، ولكن الكونجرس أقره بأغلبية ٥, ٩٨٪ في الوقت الذي كانت جميع المراكز المسئولة في الإدارة الفيدرالية تؤكد أن هذا القانون يضر المنتج الأمريكي[٢].

ويستدل من ذلك أن إسرائيل هي الربيب المدلل، ويعلله أيضًا بأنه نتاج التلاقح بين الفكر اليهودي الكاره للعرب والمسلمين والنفسية الصليبية المنطوية على الشعور نفسه، ثم يقول متعجبًا: (حتى إنني أتساءل في حيرة: هل استغل اليهود النصارى لضربنا؟ أم أن النصارى هم الذين يستغلون اليهود لإذلالنا واستباحه حقوقنا؟)[٣].

كذلك تزداد الحيرة إذا ما تذكّرنا الوثيقة الأخيرة التي أصدرها الڤاتيكان لتبرئة اليهود من دم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزعم أن اليهود لم يحاربوا المسيح ولم يبسطو إليه أيديهم بأذى، مع أن هذا الزعم يناقض الواقع التاريخي، كما يناقض نصوص الأناجيل الكنسيّة المتداولة بين أيدي القوم، والتي تقرّر أن اليهود هم الذين سعوا إلى الحكام الرومان وحملوهم على صلب المسيح وإهدار دمه!

ويعلّل الشيخ الغزالي موقف الفاتيكان المؤيد لإسرائيل؛ لأنها تحارب العرب والمسلمين، أي أنها تقف معه في جبهة واحدة بإزاء خصم يجب الخلاص منه[٤].

---

(١) (ص٦٤).
(٢) نفسه (ص١٧).
(٣) نفسه (ص١٧).
(٤) نفسه (ص ٣٠-٤٩).

٣- الشيوعية:

صوّر الشيخ الغزالي الواقع الأليم في غزو فرنسا للجزائر، فقال: (عندما كان الفرنسيون يشنون حربًا صليبية عدوانية على الجزائر، وكان الدم الإسلامي يسفك بغزارة، وكانت القيم البشرية تداس تحت أقدام الغزاة بازدراء وغضب)، حينذاك انحاز فيلسوف الشيوعية الكبير (أنجلز) إلى الاستعمار الفرنسي، وفضّل أن تأسر فرنسا الأمير عبد القادر ولا تطلق سراحه، وزعم أن احتلال الجزائر هو في مصلحة التقدم الاقتصادي، وكان يرى أن الفرنسي المزود بالحضارة والصناعة أفضل لهذا المجتمع الهمجي من السيد الجزائري الإقطاعي، ومع الأسف قَبِلَ الشيوعيون العرب هذا الكلام باحترام![١]

والمسلمون في الاتحاد السوفيتي يزيدون على ربع السكان، وهو كثرة في شرقه وجنوبه وقلّة في وسطه وشماله، ومع أن البقاع التي يسكنونها مصدر قوة للروس، فإن جمهرة المسلمين مغموضة المكانة، ضائعة المستقبل[٢]..

وتلخيصًا لتاريخ روسيا، ذكر أنها كانت دويلة محدودة المساحة والقدرة، تقع في الركن الشمالي الشرقي من أوروبا لا تزيد أرضها عن مصر... ثم أخذت تتسع وتبلع أقطارًا أخرى مجاورة... ومنذ استولى أباطرة روسيا على هذه البلاد خلال المائة وخمسين سنة الأخيرة والجهود دائبة على سحق الإسلام فيها، ومحو معالمه الثقافية والاجتماعية... والسياسة الروسية في هذا الميدان جزء من المخطط العالمي الصليبي للإتيان على الإسلام كلّه ودك قواعده.

وضرب مثلًا بسيبيريا التي ظَلّتْ بلادًا إسلامية خالصة حتى القرن السابع عشر للميلاد -الحادي عشر للهجرة- ولم تسقط في يد الروس إلا بعد حرب دامت ٥٦

(١) نفسه (ص٧٨).
(٢) نفسه (ص٧٥).

سنة، وكان السلطان (كوجم) آخر حكّامها المسلمين الذي رفض الاحتلال الروسي، واستشهد في حرب المقاومة كما استشهد من بعده ابنه السلطان علي، ووضع الروس أيديهم على هذه الأرض الشاسعة وأسموها سيبيريا، وهو لفظ محرف من (صابري) الاسم القديم لهذا الإقليم[١].

ولم تلجأ روسيا في احتلال البلاد إلى الأساليب الاستعمارية المستحدثة، بل اعتمدت كل الاعتماد على جحافلها وجيوشها، وعلى ما تستطيع تلك أن توقعه بالناس من قتل وفتك وسلب ونهب (كان احتلالًا يمثّل الاستعمار في أبشع صوره، وينزع إلى إنزال الشعوب المستعمرة منزلة العبيد)[٢].

وما تمكّن الروس من التوسع في الاستعمار إلا بعد ما تمزَّقت الجامعة الإسلامية شر ممزق، وتبعثر المسلمون في القارات الثلاث بعد انفراط عقدهم، فأصبحوا يحيون (بلا إمامة روحية ولا ثقافة عقلية، ولا روابط إدارية ولا وحدة جامعة)[٣].

عندئذٍ تحركت الصليبية لتثأر لهزيمتها، ورأينا الروس يحتلُّون نصف آسيا الإسلامية وأغلب المسلمين لا يدري؟[٤].

وضاعفت جمهوريات آسيا الوسطى هجومها على الإسلام، وشددّت النكير على طوائف المسلمين الذين يعيشون في هذه الأقطار بغية صرفهم عن دينهم وتزهيدهم في عقائدهم وعباداتهم[٥].

---

(١) محمد الغزالي (الإسلام وجه الزحف الأحمر) (ص١٠٦) مكتبة الأمل بالكويت رجب ١٣٨٦هـ -أكتوبر ١٩٦٦م.
(٢) نفسه (ص١٠٨).
(٣) نفسه (ص١١٢).
(٤) نفسه (ص١١٣).
(٥) محمد الغزالي (الحق المرّ) (ص٧٣).

ويسجّل التاريخ جهاد المسلمين للغزو الروسي بقيادة (قربان مراد هشام) إبّان الحكم القيصري بشجاعة، حاول فيها مسلمو تركستان رد الجيش القيصري الصليبي على أعقابه، ومع استماتة المسلمين التي ضُربت بها الأمثال فقد عجزوا عن رد الغزاة واحتل الصليبيون الروس البلاد ثم ورثها عنهم المستعمرون الحمر، وفشل المسلمون مرة أخرى في استنقاذ أنفسهم وتراثهم، ومع ذلك فإنهم لم ييأسوا أو يستكينوا بل ظلوا مثابرين على الاحتفاظ بمقوّماتهم الروحية والتاريخية[١].

وعند اشتعال الروح الإسلامية شرق ووسط الاتحاد السوفيتي، قام (جورباتشوف) آنذاك بإعلان حرب جديدة على الإيمان والقضاء على بوادر عودته بسرعة وحسم؛ لضمان إجهاض الصحوة الإسلامية.. وهنا يتساءل الشيخ الغزالي (فهل يدري العرب ذلك؟ وهل ترصد صحفهم هذه الحركة النبيلة؟ أم ستعرف أبناء إخوان العقيدة من الصحافة الأجنبية؟)[٢].

ولم يفته رصد انتقال عدوى الشيوعية إلينا (باسم الاشتراكية) أيام العصر الناصري، وكان فيه (**مأتم الحرية والشرف ومذابح الإيمان والكرامات التي روعت ومرغت الوادي في العذاب الهون**)[٣].

ولكن من دوافع التفاؤل أن من يدرس تاريخ الأمة الإسلامية بمنهج الشمول، يتبيَّن له أن تاريخ حضارتنا لم يعرف عصر الانحطاط، ويعلل ذلك الدكتور غازي التوبة باتباع البعض لمنهج التقسيم فيعرض أولًا لبعض الباحثين الذين درسوا التاريخ وقسّموه إلى عدة مراحل، واعتبروا العهدين المملوكي والعثماني من عهود الانحطاط، وأبرز مظاهر

---

(١) محمد الغزالي (الحق المرّ) (ص٧٣).

(٢) نفسه (ص٧٤).

(٣) نفسه (ص٢٣-٢٤).

الانحطاط في رأيهم: جمود العقول، وقلّة الإبداع العلمي، والتكرار والاجترار في الإنتاج العلمي.. إلخ.

وقد تصدَّى لهذا الرأي فعرض الدراسات لبعض العلماء منهم الدكتور جورج صليبا الذي توصَّل في كتابٍ له تحت عنوان (الفكر العلمي العربي): نشأته وتطوره إلى استبعاد حالة الانحطاط تمامًا، بناء على منهجية قائمة على رصد التطورات العلمية للعلوم العربية وعلى عدم الانطلاق من نظريات مسبقة، وطبّق ذلك على علم الفلك فتوصّل إلى أن العصر الذهبي لعلم الفلك العربي هو العصر الذي يطلقون عليه عصر الانحطاط بالنسبة للعلوم العربية بشكل عام، وضرب على ذلك مثالًا بكتاب لنصير الدين الطوسي ألفّه عام ١٢٤٧م، مستخدمًا نظرية جديدة رد بها على علم الفلك اليوناني.. وإذا بهذه النظرية تظهر بعد حوالي ثلاثة قرون في أعمال كوبرنيك، وعندئذٍ كان حكم الدكتور صليبا علميًّا بخلاف الدارسين الذين لم يلتزموا بمنهجه، فجاءت أحكامهم غير علمية[١].

ويؤكد الدكتور غازي التوبة، أن الاطلاع الأوّلي لتلك المرحلة، يفاجئنا بأسماء لامعة ذات عقلية فذة، مثل: ابن تيمية، وابن خلدون، وابن حجر العسقلاني، والذهبي، والشاطبي... إلخ. وعلماء موسوعيين ذوي عقليات مبتكرة، كأمثال: القلقشندي والفيروزآبادي، ويفاجئنا بمخترعات علمية متعددة في مجال الجغرافيا والميكانيكا والرياضيات والصناعة.. إلخ، ولا يمكن أن تتفق تلك المعطيات مع الجمود والانحطاط.

ونحن نضيف إلى ذلك ما أورده الشيخ محمود شاكر بكتاب (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) بالنهضة التي كانت على وشك الإحياء، فجاء نابليون فأجهضها.

---

(١) د. غازي التوبة (لماذا سقطت الخلافة العثمانية؟) (ص٤٧/ ٤٨).

ويستخلص د. غازي التوبة من دراسته أن أمتنا لم تعرف عصر الانحطاط، بدليل أن العقل لم يمت، وأن الفطرة كانت تأخذ حقها، لذلك فإن الوهن الذي أصاب أمتنا، والتأخر الذي اعترضنا يمكن أن نسميه ضعفًا[١].

وإذا كان الغرب أخذ يستهدف الأمة ليفتتها تمهيدًا لاستئصالها، فإن مما يطمئن الفؤاد استحضار قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦]، فهاهم يمكرون لاستئصال هذه الأمة بعد أن أزالوا آخر دولة وسلطان للمسلمين، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محيط بمكرهم، وسيحبط مكرهم؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]... ولقد كانت الصحوة الإسلامية هي الخطوة الأولى في إحباط هذا المكر وستتبعها خطوات أخرى بإذن الله تعالى)[٢].

ثانيًا: ومن واجبات الصحوة:

العناية بدراسة سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إن دراسة سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير معين، بعد الله عَزَّ وَجَلَّ في الصبر والمصابرة عند حلول الخطوب والمحن؛ لأنها بما سجلته من ابتلاءات، تقدّم للأمة دروسًا تشدّ أزرها فيما يقابلها على مدى القرون لتثبت على طريق الحق، وتمضي في أداء رسالتها التي نيط بها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وتروي لنا كتب السيرة أنه (لما اجتمع الأحزاب حول المدينة النبوية.. وكان ذلك في ليالٍ باردة، وهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يزيدون عن ثلاثة آلاف، إذ نقض يهود بني قريظة عهدهم مع

(١) د. غازي التوبة (لماذا سقطت الخلافة العثمانية؟) (ص٤٩).
(٢) نفسه (ص٧-٨).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضاق الخطب، واشتد الكرب، وظهر الخوف مع الجوع والبرد، وانقطعت الأسباب الظاهرة للنصر، فلا عدد ولا عُدة، فكانت شدة، وأي شدة؟! وصفها الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١٠-١١]، ومع ذلك كله كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يبشّر أصحابه بموعود ربهم، وتفريج كربهم، وهلاك عدوهم. ففي (السنن الكبرى) للبيهقي، لما اشتد البلاء على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه نافق ناس كثير، وتكلموا بكلام قبيح، فلما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فيه الناس من البلاء والكرب، جعل يبشّرهم ويقول: «والذي نفسي بيده، ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة والبلاء، فإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنًا، وأن يدفع الله عَزَّوَجَلَّ مفاتيح الكعبة، وليهلكنَّ الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله».. وانفرجت الكروب بالتوحيد، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال حصارهم يكثر من قول ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحده، أعزّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده. [رواه البخاري ومسلم].

وأما ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب:١٢] فحالهم كما هو في كل زمان ومكان يرجفون ويخذلون، لينشروا الخوف والضعف في صفوف المؤمنين، فكان بعضهم يقول: يعدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته! بل أخذ بعضهم يستأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرجوع إلى الدور، ويقول: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب:١٣]، وإذ يقول: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب:١٢].

وأما المؤمنون الصادقون، فإنهم لا يفقدون صلتهم بربهم، وثقتهم بخالقهم، مهما أصيبوا في سبيل الله، فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، أحسنوا الظنَّ بالله فثبتوا، وتوكلوا عليه فنصروا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «غزوة الأحزاب نصر الله فيها عبده، وأعزّ فيها جنده بغير قتال، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]»(١).



(١) د. ماهر بن صمد المعتقلي (فقه الابتلاء) مجلة التوحيد تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة جمادي الأولى ١٤٣٨هـ (ص٢٤-٢٥).

فصل

الصحوة الإسلامية في تركيا:
عرض، ونقد



كانت تركيا في عهد أتاتورك وخلَفه عصمت إينونو قد تحوَّلت بشكل شبه كلي إلى دولة غربية في أنظمة الحكم والاقتصاد والتعليم والتربية، بما في ذلك تغيير جذري للمجتمع، وتعدَّى ذلك إلى تقليد الأوروبيين في الملابس وأغطية الرأس (بعد خلع الطرابيش بالأمر) وسفور النساء والاختلاط بين الجنسين، والهدف هو قطع الصلة بأي مظهر إسلامي، ومنها منع الأذان باللغة العربية.

وعندما يستعيد المرء تلك الإجراءات الشاذة التي لم يجرؤ أحد من حكام المسلمين قط على الإقدام عليها، عندئذٍ يظن أنه لن تقوم للإسلام بعدها قائمة، وربما تسرّب إليه اليأس من إمكان إطفاء الحريق الهائل الذي أشعله أتاتورك!، وقد أصاب الشيخ محمد الغزالي كبد الحقيقة عندما وصف حركته السياسية بالنظام (اللاديني)[1]!

وعندما اعترض بعض علماء الإسلام على تصرّفات أتاتورك وحزبه، قابلها بقسوة، وعلّقهم بالمشانق بمحاكم عسكرية ظالمة، وظلت المؤسسة العسكرية حارسة للتجربة الكمالية، فكانت تبادر بقمع أي حركة تحاول استعادة الهوية الإسلامية[2].

ومثال ذلك: عندما ارتدت الطالبات غطاء الرأس، حرصًا على هذا الزي الإسلامي، أصدرت إدارات ثمان وعشرين جامعة ومعهدًا عاليًا بتحريم هذا الزي، ومنع الطلّاب الذين يوفّرون لحاهم من دخول الجامعات!

ولكن الشعب التركي لم يرضخ، يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن الأتراك يحلمون بعودةٍ جادة إلى دينهم، أي إلى مجدهم الباذخ، وعزّهم القديم.. ولكن الشعب المؤمن يكابد أهوالًا جمة، وهو يشقُّ طريقه إلى تلك الغاية»، ويقول أيضًا مشفقًا على الشعب

(١) محمد الغزالي (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) (ص١٨٩).
(٢) محمد جميل بيهم (العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب) (ص١٨٤)، المطبعة الوطنية ببيروت ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

التركي: «قلبي مع الشعب التركي الذي يحنُّ إلى دينه، ويريد الحياة في ظلاله! الشعب الذي غلبه البكاء وهو يستمع إلى الأذان ينطلق باللغة العربية من المساجد بعد أن خرست المآذن دهرًا، وحرّم عليها دعاء المؤمنين إلى الصلاة بلغة الوحي!»[١].

وكان يلاحظ أن أعداء الإسلام يرقبون هذه الصحوة بحذر وضيق، ويضعون العوائق في وجهها، وأعلنت جامعة «بافلو» الأمريكية، أن هذه الصحوة موجهة ضد الثورة الثقافية التي قام بها أتاتورك، وهي بهذا الاتهام تستحث الدولة على ضرب الشعب، ومنعه من العودة إلى دينه!

كذلك أقامت تلك الجامعة ندوة للاتجاهات الجديدة في الشرق الأوسط المعاصر، وعقدت جلسة خاصة بالإسلام في تركيا، تحدث فيها الدكتور (إدوارد فيليب)، معترفًا بفشل كل محاولات التكفير والإضلال و(العلمنة) و(التغريب) التي تعرّضت لها الأمة التركية من ستين عامًا (بدءًا من عام ١٩٢٤م) وبقاء الجماهير متشبثة بعقائدها وعباداتها وتقاليدها وشعائرها وشرائعها، لا تزيدها الفتن المتلاحقة إلا يقينًا وصلابة...

ومن آيات ذلك تشييد آلاف المساجد لإقامة الصلاة، وتلقين النشء الجديد دروس القرآن الكريم، وقد لوحظ إقبال شديد على حلقات التحفيظ[٢].

ثم علّق الشيخ الغزالي على ذلك بقوله: «إن دائرة الإسلام تنداح، والجماهير تقبل عليه وتهتف به، وحصون الإلحاد الكمالي تتداعى حصنًا بعد حصن، ودسائس الاستعمار العالمي تفتضح يومًا بعد يوم، إن الرغوة التي غطت سطح الموج تتلاشى مؤكدةً قول الحق: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]»[٣].

---

(١) محمد الغزالي (الحق المر -الجزء الثاني) (ص٦٥) دار الشروق ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، والمقال بعنوان (صحوة المسلمين في تركيا).

(٢) نفسه (ص٦٥).

(٣) نفسه (ص٦٦).

وظهر الاتجاه بشكل قوي إلى الإسلام من جديد منذ الرئيس أوزال ١٩٩٣م، فكان أول أو ثاني رئيس تركي يؤدي فريضة الحج منذ قيام نظام أتاتورك.. وكان عضوًا في حزب الأمة الإسلامي.. كما أفسح المجال للحركات الإسلامية بالانتشار العلني، بل ضم إلى قيادات حزبه الحاكم وجوهًا إسلامية سياسية معروفة[1].

وقبل الحديث عن الصحوة الإسلامية في تركيا، يلزمنا منهج البحث بعرضٍ مختصر **للخلافة العثمانية**؛ لأنها وثيقة الصلة بهذا الحديث الضخم وتداعياته.

فقد استمرت دول أوروبا تشن الحروب المتواصلة فرادى وبالتعاون مع غيرها على الخلافة العثمانية، منها ما هو مباشر بالجيوش والأسلحة، ومنها ما هو بإثارة القلاقل لإثارة نعرات الطوائف الدينية والمذهبية والعرقية.

وهكذا ظلّت أوروبا طيلة ستة قرون مستمرة إلى أن نجحت في القضاء عليها، وكان من آثار ذلك أن ترسخت التجربة في ذاكرتها تنغّص عليها حياتها وشبح الخلافة القوية لا يبرح خيالها، وربما يسمح الغرب الاستعماري بغضِّ الطرف عن أية حركة إسلامية، وبخاصة ما يتخذ منها التصوف مذهبًا، باستثناء تلك التي تحاول أن تعيد الدولة الإسلامية. كما عرفها وعانى منها أيام الخلافة العثمانية، ولذلك فهو يقف بالمرصاد للصحوة الإسلامية التركية، ويضع العراقيل أمامها باعتبارها خطرًا يهدده.

ومثال ذلك: قول (بوتين) للاتحاد الأوروبي وللأرثوذكس (أن الأصولية الإسلامية هي الخطر الوحيد الذي يهدد العالم المتحضر، وهي الخطر الوحيد الذي يهدد نظام السلم والأمن العالميين، والأصوليون لهم نفوذ ويَسْعَوْنَ إلى إعادة الخلافة الإسلامية، وإقامة دولة موحدة تمتد من الفلبين إلى كوسوفو، وينطلقون من أفغانستان التي تعتبر قاعدة

---

(١) عمرو موسى «كتابيه» (ص٥٠٧) دار الشروق، مارس ٢٠١٧م.

لتحركاتهم، فإذا لم ينهض العالم لمواجهتها فإنها ستحقق أهدافها، وروسيا تحتاج إلى دعم مالي لمكافحة الأصولية في شمال القوقاز)[(١)].

التعريف بالدولة العثمانية ونبذة عن تاريخها:

هي أكبر دولة إسلامية منذ عصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مساحةً وسكانًا وثروات وقوة عسكرية بحرية وبرية، بعد الخلافة الراشدة ثم بني أمية ثم بني العباس.

وقد اتسمت بصفة العالمية وامتد عمرها نحو ستة قرون قبل سقوطها عام ١٩٢٤م بعد حملات عسكرية ضارية بواسطة دول أوروبا منفردة ومجتمعة مع إثارة الثورات والقلاقل على مدى تاريخها كله.

وانقضّت الذئاب على الأسد الجريح وحطت الأساطيل والجيوش الصليبية في قلعة الإسلام التي صمدتْ لمدة سبعة قرون وكانت ذات يوم تحرسُ عالمها الإسلامي في مساحة امتدَّتْ من الفلبين في أقصى الشرق إلى جبال الشطوط على شاطئ بحر الظلمات، المحيط الأطلسي في أقصى الغرب، ومن سيبيريا في شمال الدنيا إلى جنوب السودان[(٢)].

ومن مقال لعبد الله النديم في صحيفة «الأستاذ»، قال: «لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيتْ بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة، ولكن المغايرة، وسعي أوروبا في تلاشي الإسلام أوجب هذا التحامل الذي أخرجَ كثيرًا من ممالك الدولة العثمانية بالاستقلال أو بالابتلاع، وإننا نقابل كثيرًا من الذين حنكتهم قوابلهم (مرضعاتهم) باسم أوروبا، يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصرة وسوء الإدارة وقسوة الأحكام، ولو أنصفوا لقالوا: إنها أعظم الدول ثباتًا

---

(١) صالح اليافعي (المعجزة المتجددة في عصرنا) (ص٦٣) «سلسلة والله متمُّ نوره»، بعض مظاهر انتشار الإسلام بعد أحداث سبتمبر في العالم! دار القدس -صنعاء، ودار الإيمان -الإسكندرية ٢٠٠٤م.

(٢) محمود ثابت الشاذلي (المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩ -١٩٢٣هـ) (ص٢٠٨) مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

وأحسنها تبصرًا وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة (موقع) ينصب إليها تيار أوروبا العدواني؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا. وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا»[١].

التعريف بالشخصيات البارزة في تاريخ الخلافة العثمانية المعاصرة:

هناك ثلاث شخصيات لا نستطيع أن نغفلها عندما ندرس بمنهج فلسفة التاريخ والأحداث المؤثرة في تاريخ الخلافة العثمانية المعاصرة، وهم على التوالي:

١- السلطان عبد الحميد:

تكالبت عليه يهود الدونمة وخلعوه لينفتح الطريق لبني جلدتهم إلى أرض فلسطين واغتصابها وتشريد أهلها، وإن ذنبه أيضًا أنه نادى بفكرة الجامعة الإسلامية، وهو صاحب النداء الشهير: (يا مسلمي العالم اتحدوا)؛ لأنه بحكم موقعه واطلاعه على مكائد دول أوروبا، عرف أن الوحدة هي المنقذ للأمة الإسلامية مما يُراد لها. كذلك تنبّه مبكرًا إلى النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب، (فشرد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم -وكان بعضهم وزراء- وشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية)[٢].

أما ما أُشيع على الرجل من أكاذيب وافتراءات واتهامات فمردّها إلى اليهود؛ حيث رفض السلطان عبد الحميد السماح لهم باستيطان فلسطين. يقول الجنرال التركي (جواد رفعت أتلخان): «منذ مدة تزيد على سبعين سنة والكوارث تتوالى على بلادنا، لإزالة

(١) فؤاد شاكر (حصاد القرن العشرين.. رجال صاغوا القرن) (ص٢٨٩) مكتبة الأسرة بمصر ٢٠٠١م.
(٢) الصلابي الدولة العثمانية (ص٥٩١) ونرى أنه لإصدار حكم صحيح على هذا السلطان بعد أن شوّه اليهود تاريخه، نرى الرجوع إلى الدراسة الموضوعية للدكتور الشناوي بكتابه (الدولة العثمانية -الجزء الثاني) من (ص٢٠٩) إلى (ص٣٥١).

الخلافة العثمانية واحتلال فلسطين وإقامة دولة يهودية مركزها القدس، وقد دبّرت الأيدي الخبيثة تقديم خمسة ملايين من الجنيهات الذهبية إلى السلطان عبد الحميد الثاني مقابل سماحه لاستيطان اليهود في فلسطين، إلا أن السلطان عبد الحميد رفض ذلك بشدة، وأدى هذا الرفض إلى إثارة دعاية يهودية عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية، متخذة من الافتراءات والأكاذيب سلاحًا لها، وكانت هذه الأكاذيب والافتراءات من القوة بحيث لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيّارها الجارف»[1].

هذا، وقد أثبتت الدراسات الأجنبية الموضوعية إخلاص الرجل في الدفاع عن دولته الإسلامية، وجهوده المستميتة في صراعه مع القوى الأوروبية التي تآمرت عليها وأثارت الفتن والثورات للقضاء عليها، حتى نجحت في النهاية، وكان من صفاته الحقة (الوعي واليقظة والتحدي والصمود)[2]، ونكتفي بشهادة أحد خصومه، وهو الفيلسوف التركي رضا توفيق، وهو من كبار حزب الاتحاد والترقي، وكان من أكبر المعارضين لحكمه، وهذه القصيدة كتبها بعد وفاة السلطان عبد الحميد، وقال فيها:

عندما يذكر التاريخ اسمك

يكون الحق في جانبك ومعك أيها السلطان العظيم

كُنَّا نحن الذين افترينا دون حياء

على أعظم سياسي العصر

قلنا إن السلطان ظالم وإن السلطان مجنون

قلنا لابد من الثورة على السلطان

وصدّقنا كل ما قاله الشيطان

---

(١) الجنرال جواد رفعت أتلخان «أسرار الماسونية»، المختار الإسلامي نقلًا عن: محمود ثابت الشاذلي المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩م-١٩٢٢م (ص١٨٣/ ١٨٤) مكتبة وهبة ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

(٢) محمود الشاذلي المسألة الشرقية (ص٢٠١).

وعـمـلـنـا عـلـى إيـقـاظ الـفـتـنـة

لم تكن أنت المجنون، بل نحن، ولم نكن ندري

علّقنا القلادة على فتيل واهٍ

لم نكن مجانين فحسب، بل كنا قد عدمنا الأخلاق

فلقد بصقنا أيها السلطان العظيم

على قبلة الأجداد[١]

وعندما مات في ١٠/ ٢/ ١٩١٨م، اشترك في تشييع جنازته كل شعب إسطنبول تقريبًا[٢].

٢- الشريف حسين:

قام بثورة عربية هادرة تستهدف تخليص البلاد العربية من الحكم العثماني، وكان عاملًا جوهريًّا في إسقاط الخلافة الإسلامية ثم الغزو الاستعماري الغربي للدول العربية، وأخيرًا ثالثة النكبات: اغتصاب اليهود لأرض فلسطين! كما كانت حركته سندًا للقومية العربية التي نادى بها نصارى الشام فيما بعد.

وكان دور الإنجليز بارزًا في الحركة الثورية التي قام بها، وحربه ضد تركيا، يقول الدكتور الشناوي: (تلقى عرضًا مؤرخًا في ٣١/ ١٠/ ١٩١٤ من لورد كتشنر، وزير الحربية البريطاني، وكان هذا العرض يتضمن وعدًا قاطعًا للحسين بأنه إذا وقف هو وأبناؤه إلى جانب بريطانيا في الحرب ضد تركيا، فإن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه في منصب أمير مكة... واختتم اللورد هذا العرض بتلميح يشير إلى أن الشريف الحسين في حالة مبايعته بالخلافة يستطيع أن يطمئن إلى اعتراف بريطانيا به)[٣].

---

(١) د. محمد حرب «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٢٩) المركز المصري للدراسات العثمانية بالقاهرة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) نفسه (ص٤٢).

(٣) د. الشناوي «الدولة العثمانية» (جـ ١) (ص٧٧).

وتلقى الجيش التركي في ظهره طعنة غادرة من هذا التمرد، تلك المؤامرة التي أطلق عليها الثورة العربية الكبرى ثورة لورنس[١].

يقول الأستاذ محمود الشاذلي: (ويوم حرّك الإنجليز حسين بن علي شريف مكة وأولاده ليخون دولته وينضم إلى أعدائها بشرذمة من المأجورين والموارنة ونصارى الشام، تقوم بعملية عصابات الطابور الخامس تحت علم الصليب البريطاني من خلف خطوط الجنود المسلمين الأتراك الأبرياء)[٢].

وقد هتكت الوثائق البريطانية الستر عن المبالغ السرية التي دُفعت لقادة الثورة العربية.. وكان الجاسوس البريطاني صاحب العقال العربي الشهير يتولى توزيع هذه الرشاوى بأوامر من (تشرشل) وزير المستعمرات في ذلك الوقت شخصيًّا (وتحكي الوثائق قصة الرشاوى التي كانت تدفعها بريطانيا للحكام الذين ثاروا على الدولة العثمانية أثناء الحرب الأولى، فتقول: إن الشريف حسين تقاضى مبلغ ١٨٠٠٠ جنيه استرليني، وإن معظم الرشاوى البريطانية أُنفقت على الأمير فيصل بن الشريف حسين لمساعدته على اعتلاء الحكم في العراق، وهناك مبالغ أخرى قدمت إلى عبد الله بن حسين لمساعدته اعتلاء عرش الأردن)[٣].

هذا، وقد عقد الأستاذ الشاذلي مقارنة بين حسين بن علي ومسيلمة الكذاب عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واستخلص من المقارنة أن مسيلمة الأول كان حالة مرضية بسيطة، أما الثاني فكان عملية معقدة.. وبينهما ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، ثم قال: (ومسيلمة القرن العشرين الميلادي أُقيم على قواعد لعبته، في جو الهزيمة، وتمكن وكان مدعموه يدخلون الشام منتصرين، يسبقهم (أللنبي) إلى القدس

(١) الشاذلي «المسألة الشرقية» (ص٢٠٧).
(٢) نفسه (ص٢٠٧).
(٣) نفسه (ص٢٨٠).

معلنًا انتهاء الحروب الصليبية، ثم في نفس الوقت الذي أصدر فيه (بلفور) تصريحًا باسم حكومته يمنح فيه فلسطين وطنًا قوميًا لليهود! والجنرال الفرنسي (غورو) يركل بقدمه مثوى صلاح الدين)[1].

هذا، وقد قام شعراء مصر حينذاك بمهاجمة حسين، نختار منها ما قاله حافظ:

ما للشريف المنتمي حبًّا إلى ... خير البرية من بني عدنان
أمس يمالئه وينصر غيه ... وضلاله بحثالة الغربان

ويقول محرم:

ألا من شقَّ العصا لمذمم ... وإن الذي يبغى الفساد لآثم

ويقول الكاشف:

ما اختص أحمد بالخلافة أمة ... علمًا بأن الدائرات تدور
أولى بها من صانها من بعدما ... عبثت مقاديرها وعصور[2]

إن الحسين بإعلانه الانتساب إلى الرسول ﷺ لا يعفيه من الإدانة لما ارتكبه في حق الأمة الإسلامية ومعاونة أعدائها.

وقد ورد في حديث الفتن الذي رواه أبو داود في كتاب الفتن، حديثًا جامعًا للرسول ﷺ نجتزئ منه ما يتصل بالنسب للرسول ﷺ، ومما قاله ﷺ: عندما سئل ما هي فتنة الأحلاس؟ قال: «**هي هرب وحرب، ثم فتنة السراء دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني، وإنما أوليائي المتقون...**» إلخ.

---

(١) نفسه (ص٢١١).

(٢) د. محمد حسين «الاتجاهات الوطنية» (ص١) (ص٢٤-٢٥).

ويقول الكاشف في باقي القصيدة: إن تعاليم الإسلام سوّت بين المسلمين، ولم تختص بخلافتهم أمة دون أمة، فأحقهم بها هم أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها.

وفي شرح الخطّابي للحديث قال: (يزعم أنه مني)، أي: في الفعل، وإن كان مني في النسب، والحاصل إن تلك الفتنة بسببه، وإنه باعث على إقامتها (وليس مني)، أي: من أخلائي أو من أهلي في الفعل؛ لأنه لو كان من أهلي لم يهيج الفتنة، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود:٤٦]، وليس من أوليائي في الحقيقة، ويؤيده قوله: (وإنما أوليائي المتقون)، قال الأردبيلي: (فيه إعجاز وعلم للنبوة وفيه أن الاعتبار كل الاعتبار للمتقي، وإن بعُد عن الرسول ﷺ في النسب، وإن لا اعتبار للفاسق والفتان عند رسول الله ﷺ وإن قَرُبَ منه في النسب)[١].

والحديث عن السلطان عبد الحميد يدعونا أيضًا لشرح الأزمات والثورات والأطماع للدول الأوروبية التي تجمعت في عصره.. فقد أخذت روسيا والنمسا بسياسة التوسع الإقليمي على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في وسط أوروبا.. وابتلعت روسيا معظم آسيا الوسطى والقوقاز.. واحتلت فرنسا الجزائر، ووضعت تونس تحت حمايتها، واحتلت بريطانيا جزيرة قبرص ثم مصر، واحتلت إيطاليا ولايتي برقة وطرابلس.. وواجهت الدولة ثورات عنيفة قامت بها الشعوب المسيحية الخاضعة لها.. وبسطت فرنسا حمايتها على الموارنة في لبنان، وكذلك فعلت بريطانيا على الدروز في الجبل، ويقول الدكتور الشناوي: (وهكذا تسابقت أوروبا المسيحية المتحضرة على التهام ولايات دولة إسلامية، وإنشاء مناطق نفوذها في ولايات أخرى، وفرض معاهدات غير متكافئة على الدولة، ونهب ثرواتها)[٢]، كذلك يذكر واقعة عزل السلطان الذي قدم له وفد قوامه ثلاثة أعضاء، كان أحدهم يهوديًا اسمه قرّه صو أفندي كان يكن العداوة والبغضاء للسلطان؛ لأنه كان قد طرده من قصره عندما رفض قبول تهجير اليهود إلى فلسطين..

---

(١) محمد بيومي «نبوءات النبي ﷺ في فتنة آخر الزمان» (ص٨-٩)، دار الهدى بميت غمر.

(٢) د. الشناوي «الدولة العثمانية» (ص٢) (ص١٢٦).

(ولم يكن أمرًا عجبًا أن أسهمت الحركة الصهيونية بأجهزتها الإعلامية والسياسية في حملات التشهير بالسلطان عبد الحميد الذي لم تلن له قناة أمام المخططات والمؤامرات الصهيونية لتهويد فلسطين)[١].

٣- كمال أتاتورك (أو مسيلمة المسخ)[٢]:

عند التعريف به لا يكفي اتباع المنهج التقليدي بتسجيل نشأته ومراحل حياته وتدرجه في المناصب، بل ينبغي التأريخ للمرحلة التي ذاع فيها اسمه وشغل الأمة الإسلامية بجريمته الكبرى عندما أسقط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤، ثم قام باقتلاع الإسلام من تركيا، ولم يكن بوسعه فعل كل هذا بمفرده، ولكن يهود (الدونمة) من بني جلدته قد مهّدوا له الطريق ثم ساعدوه وآزروه في إلغاء كل شعار إسلامي (لتحل محله صورة الذئب الأغبر رمز الأتراك القدماء، أيام الوثنية)[٣] لذلك لابد من المرور بأبرز أحداث العصر آنذاك، فقد كانت هناك قوى ثلاث تعمل في اتساق، وهي «القوى الصليبية» و«القوى الاستعمارية» و«القوى اليهودية التلمودية» في صورة الدونمة والماسون والكتاب والصحيفة والمحفل والتنظيم والنساء وبيوت المال، وتحركت هذه القوى الثلاث خارج الدولة العثمانية (ومن داخلها من خلال الدخلاء الأجانب الذين دخلوا في جسم الدولة نساءً ورجالًا، وقد غيروا أسماءهم بأسماء إسلامية وشارات إسلامية، وتغلغلوا في البنية الاقتصادية والعسكرية والثقافية والتربوية للدولة، وعاقوا عن قصدٍ مبيّت كل تقدّم ونموّ، وارتقوا في المناصب حتى وصل بعضهم إلى قادة الجيوش والصدارة العظمى أي رئاسة الوزراء)[٤].

---

(١) نفسه (ص٢٧٧).
(٢) وهو الاسم الذي أطلقه عليه الأستاذ محمود الشاذلي بكتابه (المسألة الشرقية) (ص٢٦١).
(٣) نفسه (٢٤٣).
(٤) نفسه (ص١٢١).

أما ما يتصل بالهدف الرئيسي من إقصاء السلطان عبد الحميد وتحطيم الخلافة العثمانية فينبغي أن نذكر المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد عام ١٨٩٧ في مدينة بال بسويسرا برئاسة الصحفي النمسوي هرتزل (وقد اجتمع فيه نحو ثلاثمائة من أعتى حكماء صهيون ممثلين خمسين جمعية يهودية، وقد صدرت عنه قرارات سرية عرفت فيما بعد باسم «بروتوكولات حكماء صهيون»[1]، ويشير أحد البروتوكولات أنه لابد من سقوط الآستانة حتى يمكن الوصول إلى أورشليم)[2]. أي أن دخول القدس يتوقَّف على إسقاط الخلافة العثمانية أولًا، وقد حدث (وإنا لله وإنا إليه راجعون).

ويقول الأستاذ محمود الشاذلي: (كان لابد من تحطيم الدولة العثمانية، ويوم تسقط الآستانة ستسقط تبعًا لذلك القدس في أيدي اليهود... وكانت طيلة أربعة قرون في حراسة السلطان العثماني خليفة المسلمين)[3].

ولمعرفة أتاتورك بمدى قوة العقيدة في نفوس الشعب التركي، استغل ذلك لتنفيذ مأربه في البداية، إذ لما غزا اليونان آسيا الوسطى بعد الحرب العالمية الأولى، أقحم نفسه في الجيوش التركية وفي يده مصحف، وناشدهم بحماس دافق (أيها الأتراك: هل تعلمون ما هذا الكتاب الذي بيدي فيجيبونه «إنه المصحف الشريف»، فيقول لهم: إنكم إذا لم تخرجوا معي للحرب مع اليونان، فلن يكون لهذا الكتاب بقاء في هذه الأرض)[4].

ثم بعد ذلك نادى باللادينية علنًا وعلى رءوس الأشهاد، وأرغم الشعب التركي قسرًا على اتباع النظام الغربي للحياة، مستخدمًا وسائل جهنمية لجعل المسلمين غير

---

(١) نفسه (ص١٥٣).

(٢) نفسه (ص١٥٤).

(٣) نفسه (ص١٤٦).

(٤) أبو الأعلى المودودي «الإسلام اليوم» (ص٤٧)، كتاب رقم (٤٤)، ط. الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

مسلمين في تركيا، وأريقت فيها دماء الآلاف من المسلمين لا ذنب لهم إلا أنهم عارضوا استبدال القبعة بالطربوش، وكان قد أعلن الحكم العرفي في البلاد، ولجأ في تطبيق اللادينية لوسائل الحديد والنار، ولكن مع كل ذلك ظلّ الأتراك على نفس ما كانوا عليه من حبهم للإسلام ومن تحمسهم له. وقد علّق الأستاذ المودودي في النهاية بقوله: (إذن من الواضح جليًّا أن الطبقة الحاكمة المتغرّبة لا تستطيع أن تحوّل الشعب الإسلامي عن الإسلام، ولا تستطيع أن تسوّغ له الكفر مهما أقامت الدنيا وأقعدتها)[1].

وتلك حقيقة ثابتة على مدار تاريخنا، فمهما ارتكب أعداء الإسلام من جرائم نحوه، فقد عجزوا عن القضاء عليه. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

وربما كانت أكثر الواقعات شهرة ما فعله القرامطة الذين انتزعوا الحجر الأسود من الكعبة، وقتلوا الحُجّاج وسلبوهم أموالهم، فهل حققوا غرضهم كاملًا؟

يجيب الإمام ابن رجب على ذلك بقوله: «كلا.. وغاية أمرهم أنهم أخافوا حجّاج العراق حتى انقطعوا بعض السنين، ثم عادوا، ولم يزل الله يمتحن عباده المؤمنين بما شاء من المحن، ولكن دينه قائم محفوظ لا تزال تقوم به أمة من أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[2].

ولمن شاء أن يعرف أتاتورك على حقيقته فليرجع إلى محاميه وكاتب سيرته (أرمسترونج) الذي ضمّن كتابه كثيرًا من الأوصاف التي تجعل منه منافسًا لأعتى جبابرة

---

(١) نفسه (ص٥٦).

(٢) ابن رجب «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» (ص١٧١) تحقيق طارق عوض الله - المكتب الإسلامي ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

واستشهد بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٣٢].

التاريخ! والحق أن الكتاب بأكمله يُعَدُّ وثيقة إدانة لا سجل شرف وفخر كما حاول مؤلفه أن يفعل. مثال ذلك قوله: (ولو أنه وجد في عصر جنكيزخان لبزّه في عبقريته الحربية وعزيمته الجبارة التي لا تضعفها عاطفة أو رحمة أو فاء)[١].

ولِمَ يحتاج إلى الرحمة والوفاء؟... وقد خلع رداء الإسلام فانقلب كالوحش الكاسر ضد الشعب التركي طاعنًا إياه في عقيدته وشريعته؟ وقد كان معروفًا للملأ، إهماله للدين في حياته الخاصة، ومخالفته لكل قواعد اللياقة، وسخريته من كل الأوضاع المقدسة[٢].

وكان أتاتورك رأس حربة للقوى التي ساندته -وهي التي صنعته-؛ إذ تضافر الحقد الصليبي مع العداء اليهودي لتأييده؛ حيث حقق لهم غرضين:

الأول: إسقاط الخلافة العثمانية التي كانت شوكة في حلقهم وواقعًا يهددهم في عقر دارهم، وذلك تمهيدًا لإنشاء إسرائيل باعتبارها خَطَّ الدفاع الأول عن الحضارة الغربية.

الثاني: استعمار اليهود لأرض فلسطين وامتلاك مدينة القدس، وهي القضية المحورية التي يدور حولها النزاع منذ دخولها بواسطة الإنجليز في ٩ ديسمبر ١٩١٧م، ثمّ أعلنت الحماية على مصر وفلسطين، واستغلّت انتدابها على فلسطين لكي تهيِّئ الأوضاع فيها لصالح اليهود.

يقول د. عبد العزيز مصطفى كامل: (أعلن الإنجليز في عام ١٩٤٨م إلغاء الانتداب على فلسطين، بعد أن أوعزوا لليهود أن يعلنوا دولتهم في نفس توقيت إلغاء الانتداب، وقامت دولة اليهود وسيطرت على القدس الغربية، وأعلنتها عاصمة بعد

---

(١) آرمسترونج «كمال أو الذئب الأغبر» (ص٢٤٤) ترجمة حلمي مراد -دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ ١٤٠٧هـ-١٩٧٦م.
(٢) نفسه (٢٠٦).

ذلك، ثم احتلت القدس الشرقية التي بها المسجد الأقصى عام ١٩٦٧م. لتعلن منذ ذلك الوقت وإلى الآن أن القدس بقسميها هي العاصمة الموحدة الأبدية لدولة (إسرائيل)، ويقف الآن خلفهم جُلّ نصارى العالم متنازلين لهم عن مدينة المسيح كما يقولون طمعًا في دخولهم في دينه عندما يعود)[١].

وهنا واقعة يجب التوقف عندها والتنبيه إلى مغزاها الخطير؛ إذ عندما تحقق لليهود النصر عام ١٩٦٧ في «غفلة منا»، دخل ديان وزير الدفاع حينذاك وراء الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي؛ حيث أدى الجميع الصلوات عند حائط البراق (وسط هتافات مدوية يرددها اليهود «يالثارات خيبر، يالثارات خيبر»، وقال ديان يومها: (اليوم فتحت الطريق إلى بابل ويثرب)[٢].

إن أطماعهم إذن لا تتوقف عند امتلاك القدس، بل تتعداها إلى المدينة المنورة، كما هو وارد صراحةً في كلام ديان، **وهو نذير ينبغي أن يزعج كل مسلم على ظهر الأرض!**

هذا، ولقد كان الشيخ مصطفى صبري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، نافذ البصيرة عندما تتبع دور اليهود وفتنتهم المتصاعدة إلى عهد الخلفاء الراشدين، فيقول: (وإني لذو شبهة من أنملة اليهود في اغتيال أكثر الخلفاء الراشدين، وفيهم الخليفة الأعظم والأعدل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجل الإسلام والمسلمين، لاسيما في دم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي كانت مبدأ كل فتنة حدثت في الإسلام)، ثم يلتفت إلى المسلمين المعاصرين ويصفهم بالتقصير في التنقيب عن تلك الوقائع الهامة وتدريس مسائلها في مدارسنا ليتعلم الطلاب والشباب قبل تعلمهم بتاريخ الأجانب، تاريخ الإسلام وما يحوط بحياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلفائه

---

(١) د. عبد العزيز مصطفى كامل «قبل الكارثة نذير ونفير» (ص١٣٥) كتاب (المُنتدى الإسلامي) لندن ط٢ ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٢) نفسه (ص٢٧٠).

من الشئون بتفاصيلها، فنعتبر بها ويعتبر الطلاب والشباب، ويتأدبوا بآداب الإسلام في عصره الذهبي، ولنتعرف ونكتنه عبد الله بن سبأ وما لعب من الدور)[١].

الدولة العثمانية: دولة الإسلام الكبرى:

يذكر الدكتور الشناوي (أن من معالم التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية أن جعلت من نفسها دولة الإسلام الكبرى، بعد أن عقدت لها زعامة العالم الإسلامي، منذ أن خاضت بنجاح في أوائل القرن السادس عشر الصراع الحربي ضد الدولة الصفوية في فارس ثم نجاحها في القضاء على دولة المماليك الشراكسة في الشام أولًا، وفي مصر ثانيًا، وبسط سلطانها على إقليم الحجاز، فدخلت في حوزتها أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على الإطلاق وهي: الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى في بيت المقدس، ثم مضيّها في سياسة التوسع الإقليمي في البلاد الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط وفي شمال أفريقيا حتى إقليم الجزائر، وقد سبق هذا التوسع في البلاد الإسلامية ثم صحبه، ولحقه، توغّل الدولة في قلب أوروبا، وضمها أقاليم أوروبية شاسعة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة إلى دار الإسلام، ونجاحها في انتزاع بعض الجزر في البحر المتوسط، والتي كانت تعتبر قواعد عسكرية صليبية أو جيوشًا صليبية تهدد أمن الدولة في هذا البحر مثل: جزيرة رودس، وقد طردت منها فرسان القديس يوحنا، ومواجهتها بتكتلات دولية أوروبية صليبية كان بابا روما يرأس بعضها وكان الجنود العثمانيون يحملون السلاح في أيديهم، ويحملون العقيدة الدينية في قلوبهم. ونظر العالم في ذلك الوقت إلى الحروب التي كانت تخوضها الدولة ضد الدول

(١) مصطفى صبري «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» (ص٢٦٤) وقد نشرته مع دراسته تحت عنوان (الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية)، دار ابن الجوزي، درب الأتراك بالأزهر ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

المسيحية في أوروبا على أنها حروب مقدسة، وأضفى هذا النشاط على الدولة الطابع الديني)[١].

هذا، وقد جعلت الدولة العثمانية الدين من دعائم الدولة وعبأت الشعور الديني الجارف في أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية، وعملتْ على إعلاء شأن الشريعة الإسلامية، وأضفت على رجالها كثيرًا من الرعاية والنفوذ والامتيازات، وأنشأت هيئة كانت بين أقوى الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة[٢].

ومع تعدد مآثر الدولة العثمانية، فإن ما يعنينا بيان ما يتعلق بحمايتها للدول العربية، فقد ظلت زهاء فترة تراوحت بين ثلاثة وأربعة قرون، من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين، بمنأى عن الزحف الأوروبي الاستعماري عليها ما بقيت الدولة العثمانية قوية مهيبة الجانب. فلما دخلت الدولة في دور الاضمحلال، ووضح للدول الأوروبية أن القوات العثمانية المسلحة لا تستطيع الصمود بنجاح للهجوم الاستعماري، بدأ العالم العربي يتعرض للغزو الأوروبي المسيحي الاستعماري[٣].

ومن ثمّ يتبيَّن من ذلك أن الخلافة العثمانية كانت حامية للدول العربية وليست مستعمرة لها كما يروّج المغرضون!

يبدأ تاريخ الدولة العثمانية الذي امتد نحو ستة قرون، بفتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح ثم أصبحت دولة عالمية إذ كان النجاح حليفها؛ حيث أُتيح الاستيلاء تباعًا على بلغاريا وصربيا والإمبراطورية البيزنطية ثم تطلع السلاطين إلى التقدم إلى روما مقام المرجع الأعلى للكثلكة، ولكن حالت بينهم وبين هذا الهدف النمسا كدولة قوية، لذلك

---

(١) د. عبد العزيز الشناوي «الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفترى عليها» (جـ١) (ص١٥٣)، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠١٠م.
(٢) نفسه (ص١٥٤).
(٣) نفسه (جـ٢) (ص٢١٨).

انصبوا عليها وانتزعوا منها المجر، وجاسوا أراضيها حتى بلغت جيوشهم أسوار ڤيينا عاصمتها ثلاث مرات[١]. ويقول محمد جميل بيهم معلقًا على ذلك: «وما إن استفحل الخطر العثماني، وأحاق بالمجر حتى قدّرت الدول الغربية سوء المصير فتنادت باسم الدين، وتألّبت من أجل دفع الخطر التركي، وعلى رأسها بابوات روما»[٢].

وكان من أظهر سمات العثمانيين تحقيق العدل، وذلك باعتراف بعض المؤرخين الذي لخص أرنولد توبيني اعترافاتهم بقوله: (وكانت أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعًا باتًّا اضطهاد النصارى.. ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور المسيحي فحسب، بل مكّنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين)[٣].

وبينما كانت دولة الروم التي ظَلَّتْ أحد عشر قرنًا من الزمان عدو المسلمين التقليدي، فإن محمد الفاتح لم يدر في خلده الانتقام، بل كان (يحارب حرب الإسلام التي لا تهتك فيه حرمة ولا يقتل فيها صبي ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فيها زرع ولا يتلف فيها ضرع، ولا يمثل فيها بإنسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين)[٤].

---

(١) يقول هتنجتون: كانت الإمبراطورية العثمانية تسيطر على ربع ما كان يعرف بأوروبا (ص٨٦) «صراع الحضارات».

(٢) محمد جميل بيهم «العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب» (ص١٢٣) بالمطبعة الوطنية -بيروت- شوال ١٣٧٦هـ مارس ١٩٥٧م.

(٣) محمود ثابت الشاذلي «المسألة الشرقية -دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ١٢٩٩م -١٩٢٣م» (ص١٠٨)، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

(٤) نفسه (ص١٠٤).

ويقول الأستاذ محمود الشاذلي: (دخل الأتراك أوروبا بعد أن صفّى الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا (أسبانيا) وذبح واسترق وشرّد ما يزيد عن ثلاثة ملايين مسلم!

ومع ذلك دخل الأتراك أوروبا ليعطوا عالم الغرب النصراني درس الإسلام.. درس الحماية والرحمة والأمان؛ لأن دينهم الخالد قد ملأ نفوسهم، فلم يكن هناك طريق إلى قلوبهم يعرف شهوة الانتقام)[١].

ونحن بدورنا عندما نؤرِّخ للدولة العثمانية بمنهج فلسفة التاريخ، فلكي نقف على عوامل النهوض التي جعلت منها دولة إسلامية عالمية لمدة ستة قرون، وما حدث في الماضي يمكن تكراره في الحاضر والمستقبل، كارتباط العلّة بالمعلول.

وللسلطان عبد الحميد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رأي صائب في التفسير التاريخي؛ إذ قال: (الذين يفهمون التاريخ العثماني يعرفون أن هذه البلاد لم تقم مستندة على القوة، ولكن على **العدل**، فلو كانت الجيوش العثمانية حملت معها الظلم إلى البلاد المفتوحة لتفتتت هذه الإمبراطورية إلى أجزاء كالبذور، ولم تكن تقم لها قائمة؛ ذلك لأن **العدل** هو أساس المشروعية، والمشروعية مسند الحاكمية، والقوة مؤيدة المشروعية، والحاكمية مضطرة للاعتماد على العدل، فإذا نهض أحد للحكم بلا عدل واستخدم القوة بلا مشروعية، فلابد لهذا الحكم أن ينهار، كذلك الجيش أيضًا إذا استخدم القوة التي يملكها في إطار غايتها فذلك مشروع، أما إذا وضعها في غير إطار غايتها فذلك غير مشروع، قد يهدم الجيش أشياء، نعم يهدمها، لكنه في النهاية يهدم نفسه، وبكل أسف تنهار دولته تحت الأنقاض)[٢]. وما أروع هذا الدستور الإسلامي الذي وضع أسسه السلطان عبد الحميد!

---

(١) نفسه (ص١٠٥).

(٢) «مذكرات السلطان عبد الحميد» (ص٨٨) ترجمة وتقديم وتحقيق د. محمد حرب عبد الحميد، ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.

هذا، وقد مرّ بنا شهادة بعض مؤرخي الغرب اعترافًا بالعدل الذي قامت عليه الدولة منذ إنشائها.

ومن تجليات العدل العثماني، كما أمر الإسلام، كان التسامح مع رعايا الدولة مهما كانت دياناتهم وأعراقهم وعقائدهم؛ حيث تمتعوا بالحرية الكاملة في إقامة شعائرهم، واتَّسَمَ قانون الأقليات كما يصفه د. مراد هوفمان بكرم بالغ حتى أنه ألحق ضررًا بالأغلبية الإسلامية في القرن ١٩ ويقول: (فلقد مهدت الإمبراطورية العثمانية لانهيارها وأفولها عندما تمسكت بحق الأقليات في البلقان بالتمتع بجميع الحقوق التي يكفلها لها الإسلام ومنحتها حمايتها مما أتاح لهذه الأقليات اليونانية والصربية والبلغارية الفرصة لتكوين إحساسهم بقوميتهم الخاصة)(١).

ويتحدث الأستاذ عبد الرحمن عزام -أول أمين عام للجامعة العربية- في بحثه (الرسالة الخالدة) فيقول: (وقد يظنُّ بعض الناس بها يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عند بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق..

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عددًا من أية أمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رءوسهم جميعًا إلى فيينا تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهّدت للعرب قبلهم أفريقية وأسيا)(٢).

ويقول المهندس عادل سعيد بدوي: (وما يبعث الأمل في نفوسنا ويطرد اليأس من قلوبنا، فهو أن الخلافة كانت قد انتهت فعليًّا مثلما نحن عليه الآن بعد العباسيين،

---

(١) مراد هوفمان «الإسلام في الألفية الثالثة .. ديانة في صعود» (ص٢٥٠).

(٢) نقلًا عن كتاب محمود الشاذلي «المسألة الشرقية» (ص١٠٦-١٠٧) مصدر سابق.

إلا أن العثمانيين نجحوا وبعد فترة ليست بالطويلة في بعث الخلافة ومعها شرع الله من جديد)[١].

وتتعدد مآثر الخلافة العثمانية، فنذكر منها حرصها على تطبيق الشريعة الإسلامية بعناية وجدية، والحرص على كفالة حرية العقائد والعبادات وإقامة الشعائر لرعاياها على اختلاف مللهم ونحلهم، وهو ما تشهد به عالمة مقارنة الأديان بجامعة أكسفورد كارين آرمسترونج؛ إذ تقول: (نجحت الإمبراطورية العثمانية في إقامة الدولة على أسس الشريعة؛ **إذ كانت تستمد شرعيتها من إخلاصها للشريعة الإسلامية**، وكان السلطان يلقى التكريم بسبب دفاعه عن الشريعة فعلى الرغم من أنه كان للسلطان ولكل من حكام الولايات المختلفة ديوانه الخاص، أي قاعة الاستقبال التي يفصل فيها في شتى القضايا، فقد كان هناك قضاة متخصصون يرأسون المحاكم الشرعية والتي كان العثمانيون أول من وضع لها النظم المتسقة، وكانوا يعتبرون القضاة الحقيقيين.. وكان القضاة ومستشاروهم، وكان المستشار يُسمى المفتي آنذاك، والعلماء يتولون تدريس الفقه الإسلامي في المدارس المتخصصة، من موظفي الدولة في الإمبراطورية العثمانية.. وكانت لهم أهمية أساسية للحكومة، شأنهم في ذلك شأن رجال الجيش والإدارة وكان سكان الولايات العربية يقبلون الهيمنة التركية؛ لأن سلطة السلطان كانت تصلُ إليهم من خلال العلماء أي فقهاء الإسلام الذين كانوا يستندون إلى السلطة المقدسة الشريفة. وهكذا كان العلماء يمثلون حلقة وصل مهمة بين السلطان ورعاياه أي بين اسطنبول والولايات البعيدة، وكان من سلطتهم رفع المظالم إلى السلطان **بل ولومه وتعزيره شخصيًّا إذا انتهك المعايير الإسلامية**. وهكذا فقد كان للعلماء أن يشعروا أن الدولة العثمانية كانت دولتهم، وأن السلاطين كانوا يقبلون القيود التي يفرضها عليهم رجال الدين باعتبارهم شركاء في السلطة، فذلك من

---

(١) عادل سعيد بدوي: «المسلمون قادمون.. قادمون» (ص١٦)، دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.

شأنه زيادة سلطانهم ولم يكن للشريعة أن اضطلعت بدور بارز في مجرى الشئون اليومية للدولة مثل الدور الذي اضطلعت به في الإمبراطورية العثمانية).

ثم تقرر آرمسترونج في النهاية أن العثمانيين أثبتوا نجاحهم في القرن السادس عشر بإخلاصهم للشريعة الإسلامية، وهو ما وضعهم حقًّا على الطريق القويم، فقد كانوا متناغمين مع المبادئ الأساسية للوجود[١].

أزمة الدولة العثمانية في آخر مراحلها:

تضاربت آراء المثقفين حول أزمة الدولة العثمانية والحلول المقترحة بحركة الإصلاح.. وكيف اختارت الصحوة الإسلامية الحالية أصوبها؟

شهدت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر حركة إصلاحية تجديدية تسمى في اللغة التركية «تنظيماتي» أي حركة التنظيمات الخيرية من قبيل التفاؤل بأنها ستجلب الخير للدولة ورعاياها، وقد اتجهت أساسًا إلى إعادة تنظيم شئون الدولة على أسس جديدة مكتسبة من الحضارة الأوروبية في جميع المجالات الإدارية والمالية والقضائية والتعليمية والعسكرية وما إليها.. وقد اتضح أن قطاع المثقفين العثمانيين الذين حملوا لواء هذه الحركة قلدوا المظاهر الشكلية للحضارة الأوروبية دون استيعاب جوهر هذه الحضارة.. فأدخلوا في الميدان الاجتماعي تجديدات من قبيل الترف أو الكماليات مثل استخدام الملابس الأوروبية والأثاث ووسائل المأكل ونظام المباني، وما إلى ذلك من مواد استهلاكية[٢] دون إدخال الصناعات الحديثة وغيرها من المشروعات الإنتاجية.. وبلغ من سخف المتحمسين لحركة التنظيمات ومن تفاهة تفكيرهم أنهم طالبوا الرجال بحلق لحاهم!

---

(١) كارين آرمسترونج «معارك في سبيل الإله الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام» (ص٧٢-٧٤) ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني كتاب «سطور بالقاهرة» ط ٢٠٠٠م.

(٢) د. الشناوي «الدولة العثمانية» (جـ ٤) (ص٩٧).

ولم تقبل جماهير الشعب معظم هذه الاصلاحات؛ لأنها كانت بدعة من ناحية، ولأنها كانت غريبة عنهم من ناحية أخرى.. وعلى سبيل المثال: عندما أدخل نظام التعليم الأوروبي في عدة معاهد بقيت المدارس الدينية وغيرها من المؤسسات التعليمية التقليدية دون أن تمتد إليها يد الإصلاح، وكانت النتيجة أن وجدت ازدواجية خطيرة في الحياة العامة والفكرية[1].

وبعض عرض الدكتور الشناوي لنتائج هذه الإصلاحات بين المؤيدين والمعارضين يستخلص من دراسته أن التنظيمات أوجدت في المجتمعات التركية ثلاث شرائح: الطبقة المثقفة للتركية العثمانية الحديثة، وهم يمثلون الصفوة النابهة وشريحة علماء الدين، وهم يعيشون على التراث العربي والفارسي، ثم شريحة الجماهير، وكانت هذه الشريحة تعيش على أساليب وقيم عثمانية بدائية[2].

ويبدو أن الجانب الإيجابي من حركة الإصلاح هو الغالب، وهذا ما يمكن استنتاجه من رسائل السفير البريطاني اللورد بونسوبني الذي كتب سنة ١٨٣٩م إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون.. وقال في بعض عباراته: (إن ما حدث كان أمرًا رائعًا من حيث التصور والتنفيذ؛ إذ يتناغم تناغمًا تامًّا مع الدين ومع مصالح الناس ومشاعرهم، وفي الوقت نفسه يوفر الأمن للمصالح الكبرى لكل طبقات الرعايا، ولا ينتقص من حقوق أو امتيازات أي منها، وفي هذا رد شافٍ على من يقولون: إن الدولة العثمانية لم تكن لتنجو على أيدي حكومتها القديمة، وأن الإحياء الزائف الذي نهض به باشا مصر (محمد علي) كان هو العامل الوحيد للحفاظ عليها.. إن أعداء تركيا وأصدقاء محمد علي يشعرون بثقل الضربة التي وجهت إليهم)[3].

(١) نفسه (ص٩٨).
(٢) نفسه (ص٩٩).
(٣) د. زينب أبو سنة «تركيا الإسلامية.. الحاضر ظل الماضي» (ص١١١) الدار الثقافية للنشر بالقاهرة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، ومن المعروف أن محمد علي كان من أنصار التغريب.

ويتضح مما تقدم خطأ دعاة الحداثة الذين يدعوننا إلى القطيعة مع تاريخنا الممتد نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان، بينما أثبتت الدراسات الموضوعية[١]. أن الصبغة العالمية للدولة الإسلامية نشأت في عصر الخلافة الراشدة، وظلت مَثَلًا أعلى للاقتداء بها للنهوض بالأمة الإسلامية كلما انحدرت على المستوى الراقي التي كانت عليه حينذاك.

والدليل المعاصر الذي نعيشه ممثلًا في التجربة التركية التي تسعى قدمًا نحو النهوض في ظل الصحوة الإسلامية عبّر عنه كل من المهندس نجم الدين أربكان بقوله: (نحن لسنا حزبًا سياسيًّا[٢] ولكننا حركة الملي جورش) وهي تحمل مشروعًا للنهوض التركي مستندًا إلى الأيديولوجيات الإسلامية.

ثم جاء تصريح رئيس تركيا أردوغان مطابقًا أيضًا لهذا الهدف إذ قال: (إن قضية الحضارة في حزب العدالة والتنمية وأنصاره هي قضية قديمة تمتد لـ ١٤٠٠ عام) والجدير بالتنويه أيضًا ها هنا، هو أن تلك التجربة برهنت على خطأ المتوهمين بأن الدين كان سبب تأخر المسلمين فإن هذا الحزب يتمسك بقيمه الإسلامية ويمضي بها قدمًا إلى الازدهار والرقي[٣].

واتضحت معالم نضج الصحوة الإسلامية في تركيا عندما تدخل رئيسها لإنقاذ أهل السنة في سوريا من حركة الإبادة على يد الشيعة الإمامية (إيران) والشيعة الغلاة (النصيرية)، ونادى بضرورة إنقاذ أهل السنة في الموصل بالعراق، وكأن التاريخ يعيد

---

(١) على سبيل المثال: دراسة كل من: لاووست المستشرق الفرنسي، والعالم المصري النابه الدكتور جمال حمدان.

(٢) يقصد بذلك حزب (الرفاه) الذي أسسه حينذاك ثم أصبح يُسمى العدالة والتنمية مع المحافظة على الهدف والمنهج.

(٣) محمد زاهد جول «التجربة النهضوية التركية» (ص٢٣٣)، مركز نماء للبحوث والدراسات ١٤٣٤، الرياض.

نفسه[١]، فقد تحرك الأسطول العثماني في البحر المتوسط لمحاولة نجدة (غرناطة)، ولكن الأمر كان مستحيلًا، ومع ذلك بذل (السلطان أحمد) العثماني جهدًا مكثفًا، واستغل نفوذه القوي وضغط على ملك فرنسا ليحمل في مراكبه المهاجرين الأندلسيين ويوجههم إليه، ضيوفًا ينعمون بأمن الأخوة الإسلامية في دار عثمان.

ويقول الأستاذ محمود ثابت الشاذلي: (وقد أخاف نشاط السلطان أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيليب ملك الإسبان فاضطر إلى التراجع عن قراره البشع باستعباد بقية المسلمين في الأندلس، يباعون أرقاء للخدمة في الكنائس والبيوت الأسبانية، ويقومون بدور الحيوانات في المزارع والجبال.. اضطر هذا الوحش الأسباني إلى ترحيل ستمائة ألف مسلم الذين كان قد حولهم رقيقًا واستقبلتهم الآستانة أحرارًا مخلصين من رق أكيد.. وعلى ذلك فقد أنقذ العثمانيون ما أمكن إنقاذه، استقبلوا المهاجرين وخلّصوا الأرقاء أي ما يقرب من المليون!!)[٢].

ما معنى العثمانية الجديدة؟

تعرِّف الدكتورة باكينام الشرقاوي العثمانية الجديدة بوظيفتها أو -دورها- فهي حركة فكرية تدافع عن اتّباع تركيا لسياسة خارجية نشطة ومتنوعة في المنطقة تأسيسًا على الميراث التاريخي العثماني وترى هذه الحركة تركيا كزعيمة للعالم الإسلامي والتركي وكقوة مركزية في أوراسيا.

وكان الرئيس أوزال أول من بَادَرَ بمحاولات أولية لصياغة وتنفيذ فكر العثمانية الجديدة، إلا أن حزب العدالة والتنمية هو الفاعل الرئيسي المطور لهذه الرؤية.. وهو الذي كسر لأول مرة احتكار المؤسسة العسكرية للسياسة العليا -ووفق داوود أوغلو-

(١) وقد وفقّت الدكتورة زينب أبوسنة عندما اختارت عنوانًا لكتابها «تركيا الإسلامية الحاضر ظل الماضي».

(٢) محمود ثابت الشاذلي المسألة الشرقية (ص٥٢-٥٣) ويرى أن إنقاذ غرناطة كان أمرًا مستحيلًا بسبب أنها كانت غارقة في بحر من الأسبان والبرتغال مدعومين من كافة القوة الصليبية في الشمال (ص٥١).

يتحدد العمق الاستراتيجي للدولة بناءً على العمق الجغرافي والعمل التاريخي لها)[(١)].

ومنذ تصدر حزب العدالة والتنمية الانتخابات البرلمانية للمرة الثانية عام ٢٠١١م، وهو يدأب على تنفيذ خطته النهوض بالاقتصاد التركي وتقديم الخدمات للمواطن.. ومن خطته أيضًا العمل على التغيير طويل المدى مع الأجيال الجديدة، من خلال تغيير مناهج التعليم وإدخال المواد الدينية وهي حاليًّا اختيارية (وقد تميزت فترة حكم حزب العدالة والتنمية بالاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي الكبير، فتوفّر المناخ الداخلي للبحث عن دور إقليمي واسع، ولقد احتل اقتصاد تركيا المرتبة الخامسة بين الاقتصاديات الكبرى في أوروبا والمرتبة السابعة عشر في العالم ومع أهمية تركيا على الصعيد الجيو استراتيجي وقوتها العسكرية الكبيرة، يصبح بحث تركيا من دور إقليمي واسع أمر له شرعية)[(٢)].

ولكي نقدّر الدور الكبير الذي قام به الحزب علينا استرجاع بإيجاز الثورة الثقافية التغريبية التي قام بها أتاتورك؛ حيث أراد بتر الشعب التركي عن ماضيه بشكل كامل ونهائي لا رجعه فيه.. واستقدم الأنظمة الأوروبية في التعليم والإعلام والثقافة، وسيتضح أن دور ما يسمى بالعثمانية الجديدة هو إعادة شعب تركيا إلى الأصل.

وترى الدكتورة باكينام أن مما كان له تأثير كبير على صنع السياسة الخارجية التركية هو الرأي العام التركي الذي كان له اتجاهًا سلبيًّا تجاه الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة، وذلك وفق استفتاء عام ٢٠٠٧م أظهر أن حوالي ٨٥٪ من الأتراك يملكون مشاعر سلبية تجاه الولايات المتحدة، ومؤسسيًّا استطاع أردوغان تنشيط دور مؤسسة رئاسة الوزراء في صياغة وتنفيذ السياسة الخارجية، مع الاستفادة بالجذور الإسلامية لمرجعية الحزب الحاكم[(٣)].

---

(١) د. باكينام الشرقاوي «تركيا: العثمانيون الجدد» (ص١٣٥).

(٢) د. باكينام الشرقاوي، «تركيا: العلمانيون الجدد والعثمانيون الجدد»، (ص١٢٨) مجلة مستقبل العالم الإسلامي -مركز دراسات العالم الإسلامي -ملطا العدد (١٩) ربيع ٢٠٠٩م.

(٣) نفسه (ص١٢٩).

وتأسيسًا على نظرية العمق الاستراتيجي بدأت تنظر تركيا إلى العالم الإسلامي والعربي باهتمام بالغ وتسعى للتقرّب منه بتحرك هادئ ومنظّم ومدروس، لقد شهد عهد أربكان قصير الأجل مساعي حثيثة لتحسين علاقات تركيا الاقتصادية والسياسية مع العالم الإسلامي، حين اضطلعت حكومته بدور قيادي في تأسيس مجموعة الدول النامية الثماني التي أتت كصيغه إسلامية لنموذج مجموعة الثماني الكبار، ثم قام أردوغان باتّباع سياسة خارجية مماثلة للتي اتبعها أربكان[١].

وقد ساعد خطاب وسياسة حكومة حزب العدالة والتنمية على تحسين صورة تركيا التي كانت مشوهة لدى كثير من الأطراف العربية أو الإسلامية؛ وذلك ببناء شبكة علاقات متنوعة أهمها الاقتصادية مع العالم الإسلامي[٢] وهو التحول الذي سمح لتركيا أن تلعب دورًا قياديًّا في منظمة المؤتمر الإسلامي، بعد أن كانت عضوًا غير نشيط بسبب غلبة (الأيديولوجية الكمالية)، ولكن مع وصول الحزب إلى السلطة؛ إذ تصدر حزب العدالة والتنمية الانتخابات البرلمانية عام ٢٠١١م، وعمل على فتح ملف منظمة المؤتمر الإسلامي وتنشيط الدور التركي فيها حتى ينعكس بعد (الهوية الإسلامية) للمجتمع التركي في السياسة الخارجية وبالفعل ولأول مرة حاز أستاذ أكاديمي تركي على منصب الأمين العام للمنظمة[٣].

وقد سهّلت مصادر القوة المتنوعة: اقتصادية وسياسية وحضارية وعسكرية، سهلتْ لتركيا أن تصبح قوة إقليمية داخليًّا وخارجيًّا مع مساعيها للبحث عن دور

---

(١) نفسه (ص١٣٥).

(٢) وقد صرح الرئيس التركي في أحد خطبه أن دعم بلاده للدول العربية ليس دعمًا باسم المصلحة التركية بل باسم الحق والعدل والإنسانية.. ومما يذكر أيضًا أن تركيا رفضت السماح للقوات الأمريكية باستخدام قواعدها العسكرية لشن الهجوم على العراق.

(٣) نفسه (ص١٣٦).

إقليمي أوسع[١] ثم السعي إلى التحول إلى قوة عالمية.. تقول الدكتورة باكينام الشرقاوي: (وقد انعكست العثمانية الجديدة في الخطاب الرسمي التركي، فمثلًا أعلن وزير الخارجية التركي علي بابا جان أن تركيا في طريقها للتحول من قوة محلية إلى قوة عالمية -وربما يؤهلها لذلك ترؤسها الدوري في عام ٢٠١٥م لمجموعة العشرين الاقتصادية الدولية- الأمر الذي يجعلها تسعى في توجيه بوصلة الاقتصاد العالمي وتبني «الحزب الحاكم» مشروع «تركيا الكبرى»).

تدخُّل دول الغرب دفاعًا عن العلمانية في تركيا:

يبدو أن هذه التحوّلات الكبرى المذهلة لم تخف على أجهزة المخابرات الغربية التي كانت ترقب ما يحدث في تركيا عن كثب، وانتفضت أوروبا والولايات المتحدة أخيرًا معترضة على بعض الإجراءات الاستثنائية التي اضطرت الحكومة التركية لاتخاذها حفاظًا على أمنها القومي[٢] وبخاصة عقب الانقلاب العسكري الفاشل في يوليو ٢٠١٦م، وهكذا تتضح ازدواجية المعايير الغربية مع العالم الإسلامي خاصة، فبينما يصمت صمت الخرس على حرب الإبادة التي يشنها حاكم سوريا النصيري[٣] المستبد على شعبه بالبراميل المتفجرة ويخرب مدنه وقراه ويحطم بنيته الأساسية على مسمع العالم وبصره، باستثناء بعض الأصوات هنا وهناك التي تعترض ذَرًّا للرماد في العيون بينما الأوضاع الكارثية كما هي.

وقد تحركت الدوائر السياسية والإعلامية فورًا دفاعًا عن العلمانية التي يمثلها حزب الشعب الجمهوري المعارض، وصحيفة (جمهوريت) التي أسسها كمال أتاتورك

(١) نفسه (ص١٥٢).
(٢) من أواخر عمليات التفجير وليست آخرها عملية حدثت بتاريخ ٤/ ١١/ ٢٠١٦م نجم عنها ٩ أشخاص لتفجير سيارة مفخخة أمام مقر للشرطة في مدينة ديار بكر جنوب شرقي تركيا -جريدة الحياة اللندنية ٥/ ١١/ ٢٠١٦م.
(٣) ويعتبره الغرب صمام الأمان للكيان الصهيوني!

عام ١٩٢٤م بعد ستة أشهر على تحطيمه للخلافة العثمانية، وعندئذٍ أعلن الناطق باسم الخارجية الأمريكية، (إن الولايات المتحدة تشعر بقلق بالغ إزاء ما يبدو أنه ضغط تزايد من الحكومة التركية على وسائل إعلام المعارضة.. وكتب رئيس البرلمان الأوروبي مارتن شولز على موقع تويتر إن استهداف صحيفة (جمهورييت) يشكل تجاوزًا لخط أحمر آخر ضد حرية التعبير في تركيا)، مما اضطر وزير الخارجية التركي للرد عليه بقوة قائلًا: لا نعبأ بخطكم الأحمر، الشعب يرسم خطوطنا الحمر. ما هي شرعية خطك؟ وأضاف (تركيا ليست بلدًا يتأثر بالانتقادات والتهديدات، بل تستمد قوتها من الشعب الذي يحاسبها. ليست لدينا مشكلة مع حرية التعبير، هذا ما لا يمكننا الاتفاق عليه مع أصدقائنا الأوروبين الذين يتحدثون دومًا على حرية التعبير، عندما نتخذ تدابير في حربنا مع الإرهاب)[1].

أما الدافع الحقيقي وراء تلك الزوبعة في الدوائر الأوروبية والأمريكية، فإنه فضلًا عن العداء المتوارث ضد الدولة العثمانية المستمر نحو ستة قرون، فهو خشية الغرب أن تعود تركيا لتقود قاطرة العالم الإسلامي في طريق النهضة الحقة، ومن ثمّ يصبح مرة أخرى مصدر تهديد لحضارته!

ونعود فنبدي امتعاضنا المشوب بدهشتنا من تناقض الموقف الغربي من (الحريات) في تركيا؛ إذ كان يبارك النموذج التركي العلماني، ويدعو على ألسنة كتّابه ومثقّفيه وساسته إلى تصديره وتطبيقه في سائر البلاد الإسلامية، وصمت تمامًا على إجراءات تمت في عهود الحكومات العلمانية السابقة، والدليل على ذلك تلك الانتقادات التي كانت توجه من بعض رجال القضاء التركي بين الحين والآخر حينذاك للنظام والنموذج التركي القائم، وبخاصة لما يقوم به السياسيون بإيعاز من المؤسسة العسكرية لإغلاق الأحزاب السياسية

---

(١) جريدة الحياة اللندنية، في ٢ صفر ١٤٣٨هـ - ٢ نوفمبر ٢٠١٦م.

المنافسة لأحزاب الحكم، وفي هذا الصدد قال المستشار مصطفى بومين رئيس المحكمة الدستورية التركية في حديث صحفي له يوم ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٢م: (نحن أبطال العالم، وإن تركيا هي الدولة الأولى في العالم من حيث إغلاق الأحزاب السياسية.. إنني أقول لمن ينتقدوننا: الأولى بهم عدم توجيه النقد للمحكمة الدستورية، ولكن لمن وضعوا القوانين التي تعمل بها المحكمة)، وفي حديث للمستشار سامي سلجوق (رئيس محكمة النقض التركية) في ندوة بمقدس بتاريخ ١٩/ ٤ قال: (إن تركيا ليس بها ديمقراطية.. وإنما بها لعبة للديمقراطية)[١].

ويقول الأستاذ سعد عبد المجيد: (ولعل من المفيد عند الحديث عن إغلاق الأحزاب السياسية بقرارات قضائية في ظل النموذج التركي للحداثة أن نتذكر كيف أغلقت المحكمة الدستورية التركية حزبين كبيرين مثل: الرفاه والفضيلة.. «بسبب توجهها الإسلامي»... في غضون سنتين فقط! رغم بلوغ عدد أعضائهما ٤ ملايين عضو!)[٢].

محافظة الشعب التركي على هويته الإسلامية:

إن هذه الصحوة دَلَّتْ على أن الشعب التركي حافَظَ على هويته الإسلامية برغم الإجراءات البالغة القسوة لكي يضطر لتقليد الغرب كما أراد أتاتورك، وقد تبين حسب استطلاعات أشرفت عليها مؤسسات أوروبية، فإن خمسة وستين في المائة من الأتراك متدينون يمارسون فرائض الإسلام، وذات النسبة تقريبًا من النساء محجبات، ويقدر عدد أنصار الطرق الصوفية بالملايين، وعدد مرتادي المساجد أكبر بكثير بالقياس للمترددين على الملاهي، وقد عَلَّقَ الأستاذ عبد الحليم غزالي على تلك الإحصائية بقوله: (بغض

---

(١) سعد عبد المجيد مقال بعنوان (النموذج التركي العلماني.. فكرة للتصدير) (ص٧١) مجلة المنار الجديد -ربيع الآخر ١٤٢٣هـ -يوليو ٢٠٠٢م.

(٢) نفسه (ص٧٢).

النظر عن انحياز الجيش والقضاء والإعلام لثقافة الأقلية، التي يضعفها تمترسها وراء الدبابة والسطوة الأبوية لأتاتورك)[١].

ويرى أن الفوز الكبير الذي حققه حزب العدالة والتنمية في انتخابات عام ٢٠٠٢م كان بمثابة (انقلاب أبيض) على العلمانية المتشددة ومستغليها من رموز النخبة الفاسدة، لكن ليست انقلابًا على النظام العلماني المطلق[٢].

ولكن النتيجة المستنبطة من ذلك أن محاولات أتاتورك وكل من سار على نهجه باءت بالفشل، نظرًا للجذور الثقافية والتاريخية الإسلامية الراسخة، فبالرغم من جميع محاولات التغريب، فإن الإسلام كما يقرر د. مراد هوفمان (يؤدي اليوم دورًا أكبر مما كان يقوم فيه في الثلاثينيات في حياة أتاتورك)[٣].

دور أتاتورك في هدم الخلافة العثمانية:

وكان سقوط السلطان عبد الحميد هو الضربة الأولى لتمزيق ذلك التجمع الفكري الممثل في الوحدة الإسلامية العربية، والمتجمع في كيان سياسي واحد هو الدولة العثمانية، حاملة لواء الجامعة الإسلامية تحت اسم الخلافة.

وفي مخطط واحد، جرت الدعوة إلى الطورانية في تركيا العثمانية والفينيقية في لبنان، والفرعونية في مصر، وفرضت الدعوة الطورانية على العرب أن يحملوا لواء الدعوة إلى العروبة المنفصلة عن الدولة العثمانية.

يقول الأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (الاتحاديون إذن وليس السلطان عبد الحميد هم الذين أحدثوا هذا التصدع والتمزق وضربوا وحدة العروبة والإسلام في الصميم،

---

(١) عبد الحليم غزالي: «الإسلاميون الجدد والعلمانية الأصولية في تركيا» (ص٩٩) ظلال الثورة الصامتة -مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(٢) نفسه (ص٤٠).

(٣) د. مراد هوفمان: «الإسلام في الألفية الثالثة .. ديانة في صعود» (ص١٢).

وقضوا على تلك الرابطة القوية الجامعة وأسلموها إلى دعوات العناصر والأجناس، وإلى صراع الدماء والعروق بين عرب وترك، وبين مصريين وسوريين ولبنانيين وعراقيين...

ولم يكن الاتحاديون في هذا إلا أداة النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية لفتح الطريق إلى القدس، وكانت المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية. هي أدوات هذا العمل الخطير ومؤسساته الساهرة)[١].

أما في ظل الدولة العثمانية طوال تاريخها الطويل فقد عاش العرب في وئام وألفة مع الأتراك الذين اجتاحوا بلاد أوروبا -مركز المسيحية- ورفعوا رايات الإسلام عالية أينما وصلوا حتى مشارف فيينا، وهذا مما جعل العرب المسلمين يفخرون بعظمة الأتراك ومكانتهم العالية، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية إمبراطوريتهم تمامًا كما هي للعثمانيين[٢].

وقد قام الأستاذ أنور الجندي بتصحيح بعض الوقائع التاريخية التي انتشر زيفها بأقلام بعض المؤرخين الحاقدين أعداء فكرة الجامعة الإسلامية، من تلك الوقائع أن «الاتحاديين» أتباع أتاتورك وليس السلطان عبد الحميد هم الذين كانوا مستبدين ظالمين وهم الذين ساقوا العرب إلى أشد المهانة وحاولوا تحطيم روحهم المعنوية، كما أن المواجهة العربية كانت مواجهة أصلًا إلى أحمد جمال[٣] وإلى الاتحاديين أنفسهم وليس إلى الدولة العثمانية أو الأتراك الذين كانت تجمعهم بالعرب آصرة قوية لا تنفصم، وهي الجامعة الإسلامية[٤].

(١) أنور الجندي: «العروبة والإسلام، الرد على ساطع الحصري وميشيل عفلق وأنطون سعادة» (ص١٧٣) ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٦م.
(٢) نفسه (ص١٧٩).
(٣) أحمد جمال باشا هذا هو الذي عَلَّقَ العرب على المشانق عامي ١٩١٥-١٩١٦ (ص١٩١) وهو من أتباع أتاتورك، وليس من الأتراك العثمانيين.
(٤) نفسه (ص١٩٥).

والمعروف أن أتاتورك كان عضوًا في الماسونية وعضوًا في الاتحاد والترقي، وكانت أولى خطواته في الحكم بناء منهج سياسي وفكري للدولة العثمانية مستمد من النظرية الغربية العلمانية جريًا وراء الخطة التي رسمتها الماسونية في الثورة الفرنسية، وإلغاء المفاهيم الإسلامية وإحلال مفاهيم غربية، ولذلك فقد سارع الاتحاديون بإصدار تصريحات تقول: بعزل الدين عن السياسة، وقد قال أحدهم: (إنه لا محلَّ للجامعة الإسلامية في برنامج تركيا الفتاة)[١].

هذا، بينما كان العرب حتى اللحظة الأخيرة غاية في الإخلاص والارتباط بالدولة العثمانية إيمانًا بأنه من أخطر الأخطار تركها للتمزق، وكان الشيخ محمد عبده وعبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان ممن يقولون بذلك ويتمسكون به، حتى لقد أثر عن الشيخ محمد عبده قوله: (إن الدولة العثمانية هي ثالثة العقائد)[٢].

كذلك أرخ الأستاذ أحمد أمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ للدعوة إلى الجامعة الإسلامية والقائمين بمساندتها أمثال الشيخ علي يوسف في جريدة «المؤيد» وكذلك «مجلة المنار» إذْ كانت تعبّر عن آراء الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا.

وعندما أحسَّ الأوروبيون بخطر هذه الدعوة، حاربوها بكل قوتهم، بصحفهم ومؤتمراتهم وكل قوة لديهم، لما تبيّن لهم من قوتها وخطرها إذا تحققت، واستنجد بعض الأوروبيين الشعوب المسيحية طالبين إعانة سنوية، والنهضة بالمبشرين.. وإنشاء مجلة لمقاومة فكرة الجامعة الإسلامية، كما اجتهد رئيس المبشرين، وهو زويمر وعقد مؤتمرًا في سبتمبر ١٩١١م.

---

(١) نفسه (١٩٦).
(٢) نفسه (ص١٩١).

وكان هذا الموضوع، موضوع الجامعة الإسلامية وكيفية مقاومتها، من أهم موضوعاته واشترك في هذا المؤتمر ١٦٨ مندوبًا و١١٣ مدعوًّا عن أربع وخمسين جمعية تبشيرية[١].

لذلك يذكر الأستاذ أحمد أمين: أن جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الإسلام، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدًا خفيًّا مسترًا متواليًا لسحق الإسلام سحقًا![٢].

ويستشهد على ذلك بما جاء بالنشيد الإيطالي ونصبه (أمّاه صلي ولا تبكي -بل اضحكي وتأملي -ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن)[٣].

ثم علّق الأستاذ أحمد أمين بعد ذلك بقوله: (ومن المؤسف أن حاجة المسلمين إلى الجامعة الإسلامية هي اليوم كما كانت ولم تتقدم كثيرًا، ولم تكف أوروبا عن مناهضتها، وكل حادثة من الحوادث الكبار تؤيد الرأي القائل: بأن المسلمين لا تقوم لهم قائمة إلا بهذه الجامعة وآخر حادثة كانت هي حرب فلسطين)[٤].

---

(١) نفسه (ص١٤١).
(٢) أحمد أمين: «يوم الإسلام» (ص١١٠) دار الكتاب العربي -بيروت ١٩٥٢م.
(٣) نفسه (ص١١١).
(٤) نفسه (ص١٤٣).
كذلك استند في استنتاجه على روح العداء الصليبي أيضًا بما جاء على لسان صاحب مجلة العالم الإسلامي الفرنساوية؛ إذ قال بالحرف الواحد: العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقًا وجنسية هو عدو مناهض مقاوم للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانية متحدة معًا على دَكّ الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا (ص١٠٩).

الخلافة العثمانية بين الازدهار والانهيار[١]:

إذا التزمنا بمنهج الدراسة التحليلية لتاريخ الخلافة العثمانية، فإنه ينبغي الالتزام بمنهج التصور الإسلامي في نظرته للتاريخ؛ حيث تتشكل أحداثه وتمضي حركته وفق قاعدتيّ:

١- المد والجزر:

إن المد والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الإيمان وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين[٢].

٢- حقيقة الدفع بين أهل الحق وأهل الباطل:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، أي لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا... كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠][٣].

ومثل هذه النظرة تحذّرنا، علميًّا وإسلاميًّا، من اقتفاء أثر كتابات المستشرقين الذين نظروا إلى الخلافة نظرة حاقدة متحيزة، سببها ما ورثوه من آبائهم وأجدادهم عن الدور التي لعبته هذه الخلافة في تاريخ أوروبا، فقد كانت جيوشها بين كرٍّ وفرٍّ حتى طرقت أبواب «فيينا»، إلى جانب خطأ وضع الخلافة في مصافِّ الدول الاستعمارية وتشبيهها بها.

---

(١) يسرنا التنويه بالموسوعة التي أصدرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي تحت عنوان (الدولة العثمانية.. دولة إسلامية مفترى عليها) في أربعة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤م.

(٢) أبو الحسن الندوي: «المد والجزر في تاريخ الإسلام» (ص٩٢)، الشركة المتحدة بيروت -دمشق -دار القلم ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

(٣) تفسير ابن كثير (جـ١) (ص٣٠٤)، دار الفكر -بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

ولعلاج مساوئ هذه النظرة: على الباحث أن يتحرر من نظريات المستشرقين وآرائهم؛ لأنهم مهما زعموا من حيدة في البحث فإن بصمات الحقد والعداء لابد وأن يظهر أثرها في مؤلفاتهم.

على الباحث إذن البدء في التصور الإسلامي للخلافة كنظام للحكم ورابطة دينية وسياسية وحّدت المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، في إطار واحد فأوجدت روح التضامن بينهم وميّزتهم (كأمة إسلامية) بصرف النظر عن تضارب المصالح أو ظهور الاختلافات التي لابد منها بين عناصر الأمة.

والدراسة طبقًا لهذا المنهج تقتضي بحث ما آلت إليه الخلافة العباسية بعد انحلال رابطتها على أثر سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ، مع استمرارها في شكل ولايات متناثرة، حافظت على اسم الخلافة ثم قيامها مرة أخرى على أسس قوية بواسطة الأتراك العثمانيين الذين قاموا بفتح القسطنطينية -العاصمة الشرقية للدولة الرومانية- بواسطة محمد الفاتح، ولا ينبغي أيضًا إغفال الدور الكبير الذي قام به السلطان عبد الحميد في المحافظة على الخلافة في وجه أعدائها في مرحلتها الأخيرة.

يقول الدكتور الريس رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن تاريخ الخلافة الإسلامية في الدول التي تفرعت عنها كانت سلسلة من أمجاد، وحلقات من انتصارات، ففي عهودها حدثت المواقع المجيدة في اليرموك والقادسية ونهاوند وأجنادين وبابليون والقيروان وغيرها، ثم مواقع حطين وعين جالوت والمنصورة وأمثالها، فليت لنا اليوم جزءًا من قوة أو أمجاد الخلافة الإسلامية والدول الإسلامية التي كانت مرتبطة بها أو مماثلة لها»[١].

ويحدثنا التاريخ بأن الخلفاء أو السلاطين العثمانيين الأوائل أبلوا بلاءً حسنًا في رفع شأن دولتهم وفي نصرة الإسلام ونشر لوائه... وظَلّت الخلافة مزدهرة ومؤثرة في

(١) د. محمد ضياء الدين الريس: «الإسلام والخلافة في العصر الحديث (نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم)» (ص٢٨٤) منشورات العصر الحديث ١٣٩٣هـ-١٩٧٢م.

سياسة العالم في القرن الخامس عشر والسادس عشر، فكانت الدولة العثمانية -وهي تمثل الإسلام- أقوى الدول في أوروبا كلها وربما العالم[(١)].

أما الانهيار.. فقد ظهرت بوادره في القرن الأخير وقبل إعلان سقوطها بواسطة حركة الانقلاب العسكري بواسطة أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي)؛ حيث أسهم أعضاء هذه الجمعية بالقسط الوافر في إنهائها، وثبت أنهم لا ينتمون إلى السلالة التركية العثمانية ولكنهم خليط من أجناس وأديان وقوميات مختلفة، وقاموا بحركة الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد بسبب رفضه السماح لليهود بشراء أراضي فلسطين[(٢)].

وفي هذا الصدد كتب السيد رشيد رضا في مجلة المنار آنذاك يقول: «وإن ملاحدة الترك هم الذين يبثون الدعوة إلى تشويه الدولة العثمانية ويبثون الدعوة إلى الإلحاد، ويحرضون الزنادقة والمرتابين على ترك الإسلام، واحتقار تشريعه وآدابه، ولبس قلانس الإفرنج وإثارة الغيرة القومية والعصبية الجنسية.. وقلما ثبت لهؤلاء الملاحدة نسب صحيح في الشعب التركي الذي صار عريقًا في الإسلام، بل هم أو شاب منهم الروسي والرومي والبلقاني واليهودي الأصل، وقد سلطوا على إفساد هذا الشعب بدعاية العصبية الجنسية

---

(١) نفسه (ص٤٠-٤١).

(٢) والآن وبعد نشر مذكرات السلطان عبد الحميد، وظهور كثير من الوثائق التاريخية، فضلًا عن واقع أحوال المسلمين بعد كسر شوكة الخلافة ومعرفة الأسرار وراء حركة إلغائها -الآن ينبغي إنصاف هذا السلطان المفترى عليه وكتابة تاريخ الخلافة العثمانية أيام سلطته بأمانة وصدق لمحو آثار الأكاذيب التي أحاطه بها المؤرخون الغربيون من اليهود والنصارى لدوافعهم التي لم تعد خافية.

ولمناسبة حديثنا عن الخلافة، فإن الرجل رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ كان بحكم موقعه يدرك تمامًا أهمية هذا النظام السياسي الإسلامي وخشية الدول الأوروبية منه، قال في مذكراته: «ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوبًا مسلمة عديدة في آسيا وإنجلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله، لهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية»، (ص٦٧) من مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم د. محمد حرب عبد الحميد، دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.

وترجمتهم للقوانين الأوروبية ولبسهم البرنيطة، وأن السواد الأعظم من الترك يمقتون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يمقتون إخوانهم الاتحاديين»[١].

لذلك يقتضي البحث الاستناد إلى المصادر الإسلامية التي أبعدت عن عمد في الكتب المدرسية، وقدمت بدلًا منها مصادر الدوائر الاستشراقية وتلاميذها.

ونقصد بالمصادر الإسلامية، الكتب التي ألفها العلماء المسلمون المعروفون بالصدق والنزاهة العلمية، والذين نذروا أنفسهم لخدمة الحق وتصوير التاريخ بمحاسنه ومساوئه[٢].

ينظر نقاد الخلافة من زاوية واحدة ويتجاهلون العوامل الآتية:

١- روح العداء الصليبي واليهودي نحو الخلافة الذي ظل حيًّا لم يخمد، وظهر في أشكال المعارك العسكرية الضارية والغزو الثقافي المتواصل.

والقارئ لكتاب «الدولة العلية» كمثال يلاحظ أن الدول الأوروبية كثيرًا ما فرضت الحروب على الدولة العثمانية فرضًا وكان معظم السلاطين يتفادون الحرب لاسيما السلطان عبد الحميد.

---

(١) ينظر كتاب الأستاذ أنور الجندي: «تاريخ الصحافة الإسلامية، الجزء الأول»، المنار (ص١٤٩)، دار الأنصار بالقاهرة، سنة ١٩٨٣م.

(٢) ونقصد مؤلفات أمثال الأفاضل: مصطفى كامل بكتاب (المسألة الشرقية)، ومحمد فريد (تاريخ الدولة العلية)، مصطفى صبري (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة، موقف العقل والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين -الجزء الرابع)، د. محمد ضياء الدين الريس (الإسلام والخلافة في العصر الحديث، الشرق الأوسط في التاريخ الحديث).

الموسوعة التاريخية للأستاذ أنور الجندي ومقالاته عن الخلافة العثمانية، موسوعة الدكتور عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية -دولة إسلامية مفترى عليها) في أربعة أجزاء.

وما كتبه عن الخلافة العثمانية أمثال الأساتذة: د. فهمي الشناوي (لاسيما بمجلة المختار الإسلامي)، والأستاذ سعيد الأفغاني، والأستاذ فتحي رضوان، والشيخ رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، وينظر أيضًا مذكرات السلطان عبد الحميد التي نشرت حديثًا وصححت كثيرًا من المفاهيم بعد أن فضحت التاريخ المزوّر في العصر الحديث.

٢- التفوق العسكري الغربي الذي أخذ يعمل لتحقيقه منذ صدمة الغرب لهزيمته في الحروب الصليبية، فعاد بروح الانتقام والتصميم، فطوّق العالم الإسلامي بالسيطرة على المحيطات (إنجلترا والبرتغال).

٣- لم يحقق أتاتورك أغراضه إلا بكسر إرادة الجماهير المسلمة التي خدعها في البداية ثم تنمّر عليها، فقمع ثورات المسلمين وعلمائهم بأشد أنواع القوة والقسوة، وتاريخ حركة الجهاد الإسلامية بقيادة الشيخ سعيد النورسي تشهد بذلك.

وقام أتاتورك بقمع الحركات الإسلامية الشعبية بالقوات العسكرية والمحاكم الثورية الظالمة التي لا تحمل من حقيقة (المحاكم) إلا الاسم؛ لأنها كانت تنفّذ أحكامًا صدرت قبل انعقادها!!

٤- هذه العوامل وغيرها ينبغي أن تحفزنا إلى دراسة ذلك كله بمنهج التاريخي. وبالنظر إلى أحداث التاريخ بمنظار (التدبر القرآني) فإننا نرى استمرار الحق والباطل، ولكي نمسك بخيوط التدافع في عصرنا الحاضر، لابد أن نبدأ بالغزو الغربي وموجات الاصطدام بالشرق الإسلامي ودراسة الحركات الثورية العسكرية التي سارت على خُطى أتاتورك في البلاد العربية والإسلامية.

٥- البحث عن المخطوطات المدفونة في المكتبات الشرقية والمنهوبة في المكتبات الغربية واتخاذها كمصادر جديدة بدلًا من الحلقات المفرغة الدائرة في فلك نفس المصادر المعتادة والتي روّجها أعداء الخلافة العثمانية[1].

---

(١) ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن في استانبول، وهي العاصمة التي لم يتم غزوها وبالتالي لم تتم سرقة مخطوطاتها وآثارها من قبل المستعمرين.. ففي تركيا حوالي مليون مخطوطة ومائة مليون وثيقة!!
ينظر مقال سليمان الشيخ (عن إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) في مركز الأبحاث باستانبول بمجلة العربي العدد (٣١١) أكتوبر سنة ١٩٨٤م.

واستكمالًا لدراسة الخلافة الإسلامية منذ نشأتها عقب وفاة الرسول ﷺ بمنهج التفسير التاريخي، فإنها على الرغم من الأحداث والوقائع المؤسفة التي تعرضت لها بعد عصر الخلفاء الراشدين، وتنقلها بين عواصم عربية وإسلامية عدة، أو الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها البعض من الخلفاء، بدءًا من النصف الثاني للقرن الأول الهجري وحتى أواخر أيامها في تركيا.. فإن قرار إلغاءها يتعارض مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ومع تطبيقات الخلفاء الراشدين في رأي الباحث الأستاذ سعد عبد المجيد، (ولا يوجد شخص أو جهة إسلامية ما، يحق لها اتخاذ هذا القرار، لذلك فإنه لا قيمة له ولا يعد نهاية المطاف في رسالة الأمة المستمرة، ويعلل ذلك بالسوابق التاريخية؛ إذ إنه سبق وعاش العالم الإسلامي لمدة ٣ سنوات بدون خليفة عند اجتياح جحافل المغول لبغداد ١٢٥٨م ثم عادت في عام ١٢٦١م بمساعدة السلطان المملوكي المصري الظاهر بيبرس، ومن قبل أعادها صلاح الدين الأيوبي للعباسيين، وبذلك يكون قرار تركيا -يقصد أتاتورك- بالإلغاء باطل؛ لأنه قرار محلي لا علاقة له بإجماع واتفاق الأمة الإسلامية، ومن ثَمَّ ومن الناحية الشرعية لا يوجد مانع مطلقًا من إعادة النظر والتفكير في أمرها والتجديد والسعي لتهيئة الأجواء والظروف التي تؤدي إلى إحيائها)[١].

أسباب السقوط:

أما أسباب سقوط الخلافة العثمانية فيرجعها الدكتور غازي التوبة إلى عاملين: أحدهما خارجي والآخر داخلي.

أما الخارجي فهو يشمل العوامل التالية:

١- استعمار بعض البلدان الإسلامية.

---

(١) سعد عبد المجيد، مقال بعنوان (صفحة من تاريخ الخلافة الإسلامية) (ص٥٦) مجلة المنار الجديد -رمضان ١٤٣١هـ -سبتمبر ٢٠١٠م.

٢- مساعدة الدولة الغربية لبعض الحكّام على الانفراد بالسلطة عن الخلافة العثمانية (محمد علي باشا كنموذج).

٣- إشعال الثورات في الجزء الأوروبي من الخلافة العثمانية.

٤- استغلال الغرب للطوائف.

٥- إضعاف الخلافة اقتصاديًّا.

٦- دفع العرب والأتراك إلى الامتثال.

أما الداخلي فيرجع إلى الأسباب التالية:

١- التحريفات التي أُدخلت على عقيدة التوحيد الصافية، ولمّا قام الإمام محمد عبد الوهاب بحركته الإصلاحية في نجد بعث محمد علي جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم فدمّر الدرعية، وأضعف الحركة.

٢- التصوف، فإن الأسرة العثمانية التي أسست الملك العثماني دخلت إلى الإسلام من خلال التصوف، وقد ازدهر ازدهارًا كبيرًا في العهد العثماني.

٣- المعارك الطاحنة بين الدولة الصفوية في إيران وبين الخلافة العثمانية، وقد استمرت لعشرات السنين، وأتاحت للغرب أن يستفيد من هذا التقاتل في وضع أقدام له في المنطقة.

٤- ضعف الأداء الشوري وغياب الاختيار في منصب الخليفة.

٥- القصور في العدل والمساواة بنفس المنوال الذي كان عليه في العهد العباسي والمملوكي[١].

ولنا بعض المآخذ على حركة الصحوة الإسلامية بتركيا، حرصًا منا على وصولها إلى شاطئ النهضة المرجوة بسلام، تنفيذًا للخطط الموضوعة بواسطة عالم الاستراتيجية أوغلو وغيره. ومن هذه المآخذ:

---

(١) د. غازي التوبة (لماذا سقطت الخلافة العثمانية، قراءة في عوامل ضعف الأمة) باختصار شديد (ص٥١) إلى (ص١٠٦) المكتب الإسلامي -بيروت/ عمان ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

أولًا: اعتراضنا على تمييع مصطلح (العلمانية) وكأنه محاولة للتصالح مع العلمانيين بالرغم من تعصبهم الشديد ضد الإسلاميين، ورفضهم المعلن على الملأ (أسلمة تركيا، وكانوا متعاونيين مع الحركات العسكرية الانقلابية التي استهدفت وأد الصحوة الإسلامية في مهدها.

وسنخصص بحثًا لهذه القضية في الفصل الأخير من الكتاب.

ثانيًا: الزج بالسجون لمخالفي الرأي بينما يقتضي (العدل)، وهو القيمة الكبرى للحضارة الإسلامية، التحقيق أولًا، لا أخذ المخالفين بالشبهات أو تقارير المخابرات، قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥]، وكثيرًا ما ترددت بكتب تراثنا الإسلامي العبارة الحكيمة، ومؤداها (إن الله تعالى ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ويخذل الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمة)!

ويرى العلامة محمد تقى الأميني أن أساس الحقوق في القرآن الكريم هو قيم الحياة، وهي قيم خالدة مستقلة، منها: العدالة المطلقة التي لا يخل بميزاتها القرب أو البعد ولا الحب أو البغض، ولكل واحد أن يتمتع بقوانين العدل، فقد أمر الله تعالى بالعدل حتى مع العدو، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨][1].



(١) العلامة محمد تقى الأميني (من كبار علماء الهند) بكتابه (الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآني) (ص٥٣)، دار الصحوة -حلوان ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

فصل

التعريف ببعض روّاد الصحوة الإسلامية الأوائل والمعارضين للعلمانية الكمالية



(١) بديع الزمان سعيد النورسي

تمهيـد:

من نعم الله تعالى على هذه الأمة الإسلامية أنه يبعث لها كل مائة سنة من يجدد لها دينها كما ورد في حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وفي تاريخنا الإسلامي الحديث ظهر الإمام المجاهد بديع الزمان سعيد النورسي في تركيا[١].

سيق الإمام سعيد النورسي للمحاكمة بتهمة الاشتراك في حركةٍ تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية. ففي ساحة المحكمة ومنظر جثث خمسةعشر مشنوقًا تُشَاهَدُ عبر النافذة يسأله رئيس المحكمة قائلًا:

- أنت تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن من يطالب بها مصيره الشنق كما ترى في جثث هؤلاء المشنوقين الخمسة عشر:

هنا يقف بديع الزمان قائلًا: لو أن لي ألف روح لما ترددت أن أجعلها فداءً لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام.. إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه السجن في انتظار القطار الذي يحملني إلى الآخرة... إنني في غاية الشوق لقدومي إلى الآخرة، وإني مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين عُلِّقُوا على المشانق[٢].

ويذكر الأستاذ فهمي هويدي (إن سعيد النورسي هو أبرز الذين حافظوا على وجه تركيا الإسلامي، وقد أسس أتباعه بعد وفاته جماعة «النور» التي سارت على نهجه ومازالت تركز فقط على عملية التبليغ والتربية والترشيد، وبتعبير أحد زعمائها،

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٣).

(٢) د. عبد الودود شلبي: بحث بعنوان (سعيد النورسي، المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والإصلاح) (ص١١٩ -١٢٠) من كتاب (بديع الزمان سعيد النورسي).

فإن الجماعة معنية بالإنسان بالدرجة الأولى، وهي ترى أن السياسة ينبغي أن تكون أداة للدين وليس العكس.

ويبدو أن طريقة جماعة النور هي الملائمة للبلاد التي تعرضت لمثل ما تعرضت له تركيا؛ حيث كانت التجربة الكمالية حربًا على الإسلام، فاهتمت الجماعة بالدفاع عن العقيدة والفكر الإسلاميين محافظة على عقيدة الشعب ومحصّنة له ضد الهجوم الضاري الذي قام به أتاتورك وأتباعه من يهود الدونمة.

- ومما يُدْخِلُ الطمأنينة في قلوبنا أنها الجماعة الأكبر في الساحة الإسلامية (أعضاؤها حوالي مليون شخص) ولهم حضور جماهيري وإعلامي قوي في تركيا بامتلاكهم محطة بث تلفزيوني وصحيفة يومية وعدة مجلات أسبوعية)[١].

يقول الدكتور عماد الدين خليل في أسلوب خطابي بليغ لبيان آثار جهود الإمام النورسي: «أيها المعلم والشيخ والأستاذ.. قم؛ قم لترى ما الذي صنعته يداك.. البذار الذي غرسته يشق الأرض وينهض مستويًا على سوقه.. ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].. قم لترى العالم الذي تحدثت عنه طويلًا.. قلعة الإلحاد الفكري في الشرق «تركيا» وهي تتهاوى فتصير حطامًا.. وقلعة الفساد الخلقي في الغرب يأكله الإيدز، والمورفين...

قم لترى تلامذتك يملئون السهل والجبل.. تغص بهم الطرقات والساحات.. ويملئون مقاعد الدراسة والجامعات.. ويكفيك شرفًا أيها الأستاذ أن تغادر الدنيا والشموع التي أوقدتها في حلكة العالم؛ لا تزال تشتعل لكي يضيء الطريق للمدلجين في الظلمات»[٢].

---

(١) فهمي هويدي (المقالات المحظورة) (ص٢٨٠).
(٢) المصدر السابق (ص٢١٤).

إنَّ الإمام النورسي يعبّر بجهاده عن الصراع بين الحق والباطل في ذروة غروره وبطشه المتمثل في جرائم أتاتورك الذي حَطَّمَ الخلافة الإسلامية بعد نحو أربعة عشر قرنًا منذ وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالرغم من محاكمة بعض أتباع الشيخ النورسي؛ فقد واصلوا نشاطهم في الستينيات بنشر تعاليمهم الدينية الداعية إلى التمسك بالإسلام قلبًا وقالبًا، مع اعتبار الزي الإسلامي جزءًا من الإسلام، كما كانت الجماعة تؤمن بأن الإسلام دين ودولة وحياة وشريعة، وقد طلب الشيخ النورسي إلى مندريس -رئيس الوزراء حينذاك- أن يقرر تدريس مجموعة خطبه المسماة «رسائل النور» كجزء من البرنامج التعليمي، واعتبر أهل النور العلمانية شأنها شأن اللادينية مضادة للإسلام، فالإسلام يمكن أن يكون أساسًا للحكم، فالقرآن الكريم هو الدستور، والشريعة هي القانون، وفي أواخر الستينيات أصبح النشاط الإسلامي ملحوظًا جدًّا؛ حيث عقد اجتماع باسم «حماة المقدسات» أعلن فيه أنه لا يمكن للدين أن يقام دون وجود دولة تحميه، وكان من الواضح أن الغليان الجماهيري ينبئ عن قواعد فكرية وسياسية تعمل بشكل سري[1].

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» في شرق الأناضول وفي أسرة كردية صالحة تقية ١٢٩٤هـ -١٨٧٧م.

---

(١) د. إبراهيم الدسوقي شتا «الحركة الإسلامية في تركيا» صفحات (٩٣، ٩٥ -٩٦) باختصار -ط. الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م.

قال أحد علماء الدين وهو على المشنقة: «إن القبعة من علامات الكفر، ولبسها كفر، أنا أحمد الله أنني أموت دون أن ألبسها»، ويروي أحد شهود العيان من المسنين: «كنت أمرّ من الميدان الذي كان يتدلى فيه المشنوقون، لم يكن هناك أحد باستثناء بعض الجندرمة -الجند- وبدأت الريح تهب، ولا أستطيع أن أنسى منظر اللحى البيضاء وهي ترف مع الريح». المصدر السابق (ص٣٩ -٤٠).

ويصف الدكتور كمال السعيد جرائم أتاتورك بأنها شكلت اصطدام وتحولات عنيفة، وأنها حالة فريدة لم يعرفها العالم من قبل، حتى إبان الحكم الليني الستالين في روسيا الشيوعية (ص١٣٣).

وانتقل في القرى والمدن بين الأساتذة والمدارس ليتلقى العلوم الإسلامية، وسنحت له الفرص لمطالعة الكتب العلمية الإسلامية في علم الكلام والمنطق والتفسير والحديث والفقه والنحو.

كذلك انكبَّ على دراسة الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء وعلم طبقات الأرض والفلسفة الحديثة والتاريخ والجغرافية «حتى تعمق فيها إلى درجة إفحام الأساتذة المختصين، فسمي لأول مرة «بديع الزمان» اعترافًا من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير»[١].

وحفلت حياة الإمام بالمضايقات المستمرة والمحاكمات الظالمة، ولكنه شق طريقه بقوة وأخذ يرشد تلامذته ويدرسهم «رسائل النور» حتى وفاته في الخامس والعشرين من رمضان ١٣٧٩هـ الموافق للثالث والعشرين من مارس ١٩٦٠م[٢].

ونجتزئ من حياته الحافلة بالجهاد واقعتين:

إحداهما مع أتاتورك الذي بعث إليه يقول: «نحن فخورون بك كزعيم لكنك لسوء الحظ خلقت الخصام وبذرت الشقاق والفتنة بتأكيدك على أهمية أداء الصلاة».

فرد عليه بديع الزمان منتهرًا وموبخًا إياه باحتقار قائلًا: «أترفض يا باشا الصلاة؟

الصلاة هي عماد الدين، والتي لا يعرف المرء مسلمًا إلا بها... أترفض الصلاة وتنكرها؟ إن من ينكر الصلاة يا باشا مرتد عند الله، وأنت مرتد، وحكمك أنك كافر»[٣].

---

(١) د. محسن عبد الحميد: «النورسي متكلم العصر الحديث» (ص١١) ط. سوزلز للنشر -مدينة نصر ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق (ص٤٩).

(٣) مريم جميلة «شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث» (ص١٦) -ترجمة طارق السيد خاطر- ط. المختار الإسلامي -بدون تاريخ.

وهناك واقعة أخرى حدثت عندما كان جنديًّا بالجيش التركي في الحرب العالمية الأولى، وقد أبلى فيها بلاءً حسنًا وأظهر بسالة غير عادية ولكنه وقع في الأسر، ولما قام القائد الروسي بزيارة معسكر أسرى الحرب، هَبَّ الأسرى جميعًا واقفين لتحيته ما عدا الشيخ بديع الزمان مما لفت نظر القائد فسأله: ألا تعرفني؟ فأجابه: أجل أعرف أنك الجنرال نيكولاس.. كل ما في الأمر أنني مسلم، وأعتبر المسلم أعلى شأنًا من أي كافر.. إنني أعبد الله عَزَّوَجَلَّ، لذلك لا يمكنني أن أعيرك اهتمامًا»[1].

وصدر الحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص، وحثّه زملاؤه للذهاب إلى الجنرال والتوسل إليه لتخفيف الحكم، فأبى شاكرًا لهم صنيعهم بقوله: «قد يكون هذا الحكم هو جواز سفري إلى جنَّة الخلد».

ولم يملك الجنرال الروسي أمام شجاعته إلا أن زاره ومعه بعض كبار القادة وهو يربت على كتفه قائلًا: «بديع الزمان! أرجو منك قبول المعذرة، وأن تسامحني، من فضلك سامحني، لقد قمت تلقائيًّا بإلغاء حكم الإعدام تقديرًا لإيمانك القوي، وتقديرًا لشجاعتك وإخلاصك الطاهر، وتقديرًا لشخصك النظيف النبيل»[2].

موقفه من الشريعة:

سنقصُّ هذه الواقعة ليتضح لنا مدى استمساك الإمام النورسي بالشريعة، فقد أسس حزبًا منافسًا للجنة التي كان يسيطر عليها الماسونيين أتباع أتاتورك وسماه «الاتحاد المحمدي» فقبض عليه وأعدم تسعة عشر من أتباعه، ثم التفت القاضي «خورشيد باشا» إليه وسأله: «هل مازلت تريد تطبيق الشريعة؟» فأجابه الشيخ: «لو أعطاني الله سبحانه ألف روح لشرفني التضحية بهم جميعًا في سبيل الله نصرة لدينه الحنيف».

---

(١) المصدر السابق (ص١٤-١٥).

(٢) المصدر السابق (ص١٤).

ولما صدر حكم بإعدامه قامت ثورة شعبية عامة. اضطرت المحكمة العسكرية أمامها إلى تبرئة ساحته[١].

وقاوم السفور الذي أمر به أتاتورك مثبتًا أن حجاب المرأة عمل بالشريعة الربانية الفطرية التي تصون النساء من المهانة والسقوط في الرذيلة، ولكن التشريعات الغربية عندما أطلقت حرية المرأة أضرت بها ضررًا كبيرًا[٢].

وعارض التصوف في رسائله: «إن هذا العصر ليس بعصر تصوف وطريقة، وإنما هو عصر إنقاذ الإيمان»[٣].

وكان الإمام قد درس الفلسفة دراسة وافية بمدارسها المتنوعة منذ عصر اليونان إلى زمانه، ولكنه رفضها ورفض مناهجها المستقلة عن الدين الحق الذي هو الإسلام[٤].

ويصف حكمة القرآن الكريم بأنها تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلًا من القوة، وتجعل رضى الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدلًا من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسًا في الحياة بدلًا من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين بدلًا من العنصرية والقومية السلبية[٥].

ومن كلماته دفاعًا عن «رسائل النور» التي كان يقبل على قراءتها فئات المجتمع التركي من عمال وطلبة وفلاحين وموظفي الحكومة. قال: «ليس من العار علينا كمسلمين

---

(١) الكاتبة الأمريكية مريم جميلة: «شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث» (ص١١) ترجمة طارق السيد خاطر -ط. المختار الإسلامي بدون تاريخ.

(٢) د. محسن عبد الحميد «النورسي: متكلم العصر الحديث» ط سوزلر -مدينة نصر -القاهرة ١٤١٤هـ -١٩٩٤م.

(٣) المصدر السابق (ص٢٠٥).

(٤) المصدر السابق (ص١٨٨).

(٥) المصدر السابق (ص١٩١).

أن نترك للماسونيين شتم الإسلام وتشجيع الزنا والفجور وشرب الخمر ولعب الميسر كجزء من الحملة القومية للبلاد لتطبيع اقتباس الحضارة الغربية في الوقت الذي يزج بي أنا ورفاقي في غياهب السجن، وأحاكم لأنني أدعو لفلاح الناس وأنشر رسالة القرآن وأخدم في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه عَزَّوَجَلَّ. لقد اتُّهمتُ بأنني متمرد على الديمقراطية في حين أنني في الواقع بطلها الأوحد منذ نعومة أظافري...»[١].

وتلخص هذه الكلمات موجزًا للرسالة التي عاش من أجلها، والصراع مع أتاتورك وأعوانه الذين أرادوا فرض النموذج الغربي على الشعب التركي بعد الإطاحة بالخلافة العثمانية، وإلغاء الشريعة الإسلامية، وإقصاء اللغة العربية حتى فرضوا الأذان للصلاة باللغة التركية.

وتلخّص الكاتبة الأمريكية مريم جميل رحلة حياته الحافلة بالكفاح وأثرها الممتد حتى الآن عبر رسائله وتلاميذه بقولها: «بديع الزمان النورسي مصلح بديع من عظماء المصلحين في التاريخ الإسلامي الحديث، أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليجاهد لنصرة دينه وإحياء الإسلام، فقد ظهر بديع الزمان النورسي في تركيا ليحارب شرور ومفاسد النظام المرتد لمصطفى كمال أتاتورك، وبالرغم من أن عقودًا من الزمن قد مرت بعد وفاة الطاغية الديكتاتور مصطفى كمال أتاتورك، إلا أن قوة تلاميذ وأتباع بديع الزمان تتعاظم بسرعة يومًا بعد يوم. فهؤلاء التلاميذ والأتباع يبذلون كل ما في استطاعتهم لإحداث الصحوة والنهضة الإسلامية بالطرق السلمية من خلال الاشتغال الشاق في المهمة عبر الأنشطة الثقافية ودور ومؤسسات التربية والتعليم والوعظ والإرشاد... إلخ»[٢].

(١) مريم جميل: «شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث» (ص١٧).
وجاءت هذه الكلمة أثناء دفاعه عن نفسه وعن تلامذته أمام المحكمة بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم!
(٢) المصدر السابق (ص٧).

موقفه من حضارة الغرب:

يرى الدكتور عبد الودود شلبي أن موقف سعيد النورسي مطابق لموقف محمد إقبال من الحضارة الغربية، فكلاهما لم تخدعه الظواهر البراقة الزائفة أو طبول الدعاية الكاذبة، لقد نظرا إلى جوهر الحضارة وروحها، وتعمقا في فهم خفاياها وأسرارها[١].

وقد وَصَفَ الشيخ سعيد النورسي هذه الحضارة بقوله: «... تنشر الكفر وتثبت الجحود، ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد»[٢]؟!

السمات المنهجية لرسائل النور:

لخصها الأستاذ محمد رشدي عبيد في السمات الآتية:

١- اعتماد الكتاب والسنة الصحيحة مصدرين معصومين، ونفي العصمة والكمال عن المضامين المعرفية المتحصلة بطرق أخرى عقلية أو روحية.

٢- تقديم اجتهادات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ما تَمَّ بعد عصرهم من اجتهادات.

٣- عدم جعل العلم أو العقل بما يحملانه من طوابع النسبية والقصور حكمين على الحقائق الدينية اليقينية.

٤- الاستشهاد بالمعطيات العلمية الزمنية لتأصيل قضايا الإيمان وتوصيل مناهج الإسلام وبيان محاسنه.

٥- احترام الحدود الفاصلة بين عالم الغيب غير المسموح نصًّا باختراقه، وبين عالم الشهادة المسخر للاكتشاف والاستثمار.

---

(١) د. عبد الودود شلبي بحث بعنوان (سعيد النورسي المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات الإصلاح) (ص١١٦).

(٢) المصدر السابق (ص١١٧).

٦- التعبير الأدبي عن بعض الحقائق الدينية، وبما يحمله من مجازات لغوية.
٧- الأسلوب السهل الممتنع والغامض أحيانًا والتكرار لبعض الأفكار في صيغ مختلفة والانتقال من المحسوس إلى المعلوم[١].

وقد بلغت رسائل الشيخ النورسي وأبحاثه نحو المائة والثلاثين رسالة، وصلت إلى مختلف أنحاء العالم، وترجمت إلى اللغات العربية والإنجليزية والكردية والفارسية والأردية وغيرها[٢].

ويبدو من ترجمة حياته أنه كان واسع الاطلاع، مُلمًّا بمؤلفات ابن تيمية وابن القيم؛ حيث وصفهما «بالجهبذين الذهبيين و«المثيرين للإعجاب» و«المشهورين»، ويصف كتبهما كذلك بأنها من المؤلفات ذات الجاذبية القوية جدًّا والعجيبة جدًّا[٣].

أما بالنسبة لمحيي الدين ابن عربي، فقد وصفه بقوله: «لا يسعني الوقت الكافي لوضع ميزان بين الإفراط والتفريط بحق هذا الشخص، فأكتفي بما يأتي «أنه لا ينبغي أن يكون مرشدًا أو قدوة في جميع ما كتبه رغم أنه شخص مقبول ومجتهد، ولكن لمخالفته القواعد الثابتة لأهل السنة فإنه يمضي غالبًا دون ميزان في الحقائق، لذا أفادت بعض أقواله -ظاهرًا- الضلالة، غير أنه بريء من الضلالة، والكلام قد يبدو كفرًا بظاهره ولا يكون القائل به كافرًا».

ويحدد رأيه في كتبه بختام الرسالة قائلًا: «لذا فإن قراءة كتب محيي الدين مما يضر في زماننا هذا، وبالأخص آراؤه في وحدة الوجود»[٤].

---

(١) محمد رشدي عبيد: «ملامح تربوية في رسائل النور» (ص٩٤).
(٢) المصدر السابق (ص١٨٢).
(٣) المصدر السابق (ص١١١).
(٤) المصدر السابق (ص١١١-١١٢).

كيف أزاح تلامذة النورسي الأيديولوجية الكمالية اللادينية؟:

إنها قصة طويلة واقعية لابد أن تروى للأجيال الشابة من المسلمين لتقوية عزائمهم وتثبيتهم في مواقفهم الدفاعية عن الإسلام؛ لأن ما حدث في تركيا هو صورة نمطية معبّرة عن واقع بلاد المسلمين بين المثقفين المسلمين وخصومهم من العلمانيين.

يصوّر الدكتور كمال السعيد حبيب ذلك بقوله: «المهمة الأولى للمثقف المسلم في تركيا هي الدفاع عن الإيمان والعقيدة والفكرة الإسلامية في مواجهة اكتساح الأفكار المادية واللادينية... وبينما كان دور المثقف الإسلامي هو المقاومة؛ كان دور المثقف العلماني هو الالتحاق، وبينما كان حظ المثقف الإسلامي التهميش والحصار والهجرة من الوطن، كان حظ المثقف العلماني التواجد في المراكز المتقدمة متقاسمًا مع النظام المغانم والأضواء والحضور»(١).

وقد عرض الدكتور كمال سعيد للتطورات التي حدثت بتركيا بالساحتين الداخلية والخارجية، واتخذت خطوات لعودة تركيا إلى أحضان الأمة الإسلامية من جديد بعد أن سلخها أتاتورك منها، فقام نجم الدين أربكان بإنشاء رابطة الدول الإسلامية الثمانية في ١٥/ ٦/ ١٩٩٧م، وهي تركيا ومصر وباكستان وإيران وبنجلاديش ونيجيريا وماليزيا وإندونيسيا، والغرض تأسيس سياسة خارجية تستند إلى التوحيد مع العالم الإسلامي انطلاقًا من مفهوم الأمة الإسلامية عن طريق الأمم المتحدة الإسلامية والسوق الإسلامية المشتركة والجيش الإسلامي المشترك ومشروع العملة الإسلامية المشتركة «الدينار الإسلامي»، ومنظمة الدول الإسلامية للتعاون الثقافي(٢).

---

(١) د. كمال سعيد حبيب: «الدين والدولة في تركيا -صراع الإسلام والعلمانية» (ص٨١-٨٢).
(٢) المصدر السابق (ص٢٨٦-٢٨٧).

وقد سجّل الدكتور كمال السعيد الخطوات التي خطاها أربكان ملخصًا مشروعه الفكري الذي تبناه حزب الرفاة:

وقال نجم الدين أربكان: نحن لسنا حزبًا سياسيًّا، ولكننا حركة «الملي جورش» وهي تحمل مشروعًا للنهوض التركي مستندًا إلى الأيديولوجية الإسلامية...».

وقال: «نحن كالشرطة نمسك الأذن الصهيونية ونقاوم السيناريو الصهيوني»[(١)].

أما ما يعنيه حزب الرفاة بفكر الأمة، فهو الفكر الذي ينبع من شعبنا، ولم تكن أمتنا في تاريخها الطويل قائمة على القوة والجبروت، إنما هي أمة صاحبة فكر، وقد أنتجت دولًا عظيمة مثل: الدولة السلجوقية، والدولة العثمانية، وقد عكست عبر التاريخ أفضل مثال فيما يتعلق بحقوق الإنسان والسلام والعدالة، وهي أمة ذات خصائص ناصعة ومشرّفة، وأمة لديها هذه المزايا لا ينبغي لها أن تكون خاضعة للغرب الذي يقوم على التسلّط ولا يليق بها أن تقلده وتسير وفق خطواته.

ثم جاء فوز حزب العدالة والتنمية، والذي لم يكن متوقعًا بهذا الحجم، جاء عنوانًا لفشل العسكر في الحملة التي دشنوها ضد ما أطلقوا عليه استئصال الأصولية أو الرجعية.

ويُعلق على ذلك الدكتور كمال السعيد حبيب بقوله: «على العسكر أن يدركوا أن تطرفهم في مواجهة التوجهات الإسلامية في تركيا لن يقضي عليها بل سيؤدي إلى زيادة تصويت الناخبين لهم»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق (ص٢٣٣- ٢٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص٣٢٢).

ولأربكان تصريحات أطلقها بمكة المكرمة قال فيها: «تخلينا عن القرآن ما يقارب الخمسين سنة الماضية، إن الدين والدولة فُصِلا، ويتعين علينا أن نعمل من أجل كلمة القرآن كي تكون فاعلة مرة أخرى، ولهذا الهدف نحن في حاجة إلى الجهاد»[١].

وكان من دوافع الإمام لكتابة تلك الرسائل شعوره بأن الإيمان في ظل حكم أتاتورك في خطر فنذر نفسه للقرآن بعد أن نمى إلى علمه أن جلادستون رئيس وزراء الإنجليز قال بعد أن رفع نسخة من المصحف الشريف: «ما دام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[٢].

دور رسائل النور في المحافظة على الإيمان:

وإني لأكاد أجزم بأن رسائل النور للإمام النورسي قد أتت أكلها فأثمرت رجالًا ونساءً عضّوا على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنواجذ ثم تناقلته الأجيال بعناية وحرص.. وإلَّا كيف نفسِّر ظهور بواكير هذه الصحوة الإسلامية في تركيا شعبًا وقادة؟!

يقول الدكتور محمد حرب: «إن رسائل النور التي ألفها سعيد النورسي تبلغ ١٣٠ رسالة أصبح لها من الطلاب أعدادًا كثيرة منتشرين في جميع أنحاء تركيا، ويشكلون قوة لها تأثيرها في تيار الحركة الإسلامية في تركيا، بل في مجريات السياسة التركية أيضًا»[٣].

ويبدو أنها -على العكس- أثارت غضب المؤسسة العسكرية الحارسة لعلمانية أتاتورك فبلغ الحقد بالقائمين بالانقلاب العسكري في ١١/ ٧/ ١٩٦٠م إلى الأمر بفتح قبره وإخراج جثته وإعادة دفنها في أسبرطه[٤].

---

(١) المصدر السابق (ص١٩٦).

(٢) المصدر السابق (ص٥٧).

(٣) د. محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص٢٥٦).

(٤) نفسه، وكان الانقلاب بقيادة جمال كورسيل ضد حكم عدنان مندريس ثم أعدموه.

ولنصوّر التحول المثير للعجب من نبضات الصحوة الذي حدث في تركيا على أثر الصحوة الإسلامية التي تتضح معالمها في كثير من الظواهر اللافتة لنظر الدارسين المدققين ومنهم الدكتور عماد الدين خليل (أستاذ التاريخ الإسلامي) الذي قارن بين جيل الشباب الذي أدار ظهره بتأثير حملات أتاتورك وحزبه لما اعتبره ماضيًا غير جدير بالالتفات، ويمم وجهه صوب الغرب... وإذا كان سلاطين آل عثمان قد مضوا، فإن الإسلام نفسه مضى معهم.. هذه الرؤية المسطحة للظاهرة الإسلامية أُرِيدَ لها أن تمر إلى عقول الأجيال التالية.

ولكن عندما عقد المؤتمر العالمي حول تجديد الفكر الإسلامي في استانبول أيلول عام ١٩٩٢م حفلت قاعة المؤتمر بالجيل الشاب نفسه الذي يعود إلى الطريق كما يعود الابن الضال إلى أمه وأبيه.. إنهم يجدون أنفسهم في مكانهم تمامًا. في الحصن الدافئ في الوعد المبشر بحياة سعيدة في هذه الدنيا وفي الأبدية.. وأخذ الدكتور عماد الدين خليل يسجل خواطره أمام هذا الحدث العجيب بقوله: (بعد رحلة تغرّب معذّبة دامت خمسين عامًا. هاهم الآن يرجعون.. أنظر على عجل -قبل أن أجلس- فتقر عيني.. واحدة من أسعد اللحظات في حياتي.. يخفق قلبي كطائر يريد أن يصفق وأن ينطق ولكن إلى أين؟

أتمتم بيني وبين نفسي: الحمد لله.. وأقول لجاري الأخ (أديب): انظر إنهم لا يجدون موطئ قدم! فيرد مشبعًا باليقين: ألم أقل ذلك؟!... ثم يستطرد مستعيدًا ذكرياته الماضية، فيقول: (عندما كنت في بلدي العراق ولسنوات طويلة، ربما تتجاوز الأربعين عامًا كنت أسمع عن تيار شاب يشق طريقه في الأناضول.. ما كنتُ بقادرٍ على أن أتخيل حجم التيار.. وأن أسبرغوره اللحظة أرى.. أسمع.. وأسبر.. فتقر عيني)[1].

---

(١) كتاب بعنوان (بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي) -إستانبول٢٧-٢٩/ ١٩٩٢ أيلول (ص٢١٣) ط سوزلر للنشر -مدينة نصر بالقاهرة ١٩٩٣م.

ولما كان المؤتمر منعقدًا لدراسة فكر بديع الزمان سعيد النورسي، فكانت مناسبة ليقارن الدكتور خليل أحوال تركيا بين عصر أتاتورك وبين الصحوة الإسلامية الكبرى الآخذة في الانتشار، فعبّر عنها بشكل نداء وجهه إلى الإمام، فقال: «يا سعيد النورسي.. رفعتُ ندائي.. يا بديع الزمان.. أيها المعلم والشيخ والأستاذ.. قم!..قم. لترى ما الذي صنعته يداك.. البذار الذي غرسته يشق الأرض وينهض مستويًا على سوقه.. يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.. قم لترى العالم الذي تحدثت عنه طويلًا.. قلعة الإلحاد الفكري في الشرق وهي تتهاوى فتصير حطامًا.. وقلعة الفساد الخلقي في الغرب يأكله الإيدز، والمورفين.. قم لترى تلامذتك يملئون السهل والجبل.. تغص بهم الطرقات والساحات.. ويملئون مقاعد الدراسة والجامعات.. ويكفيك شرفًا أيها الأستاذ أن تغادر الدنيا والشموع التي أوقدتها في حلكة العالم، لا تزال تشتعل لكي تضيء الطريق للمدلجين في الظلمات»[1].

(٢) الشيخ مصطفى صبري:

سنعرّف بالشيخ مصطفى صبري، هذا العالم الجليل في أواخر عهد الدولة العثمانية، وكانت الدولة مقبلة على الانهيار، ودعاة التغريب في أوج قوتهم، من المناصب التي تبوأها أمانة مكتبة السلطان عبد الحميد، وكان عضوًا في المجلس النيابي، وعمل رئيسًا لتحرير مجلة «بيان الحق» ثم أصبح عضوًا في دار الحكمة الإسلامية، وعندما عمل بالسياسية كانت السياسة عنده لها معنى واحدًا هو **جعل الشريعة الإسلامية أساسًا لإدارة الدولة**، وأخذ يتصدى بمفرده لكل من أنجبتهم حركة حزب الاتحاد والترقي التي كانت ترى في الإسلام عقبة كؤودًا ضد حركة التغريب الشاملة للدولة العثمانية، وواجه بمفرده الذين

(١) نفسه (ص٢١٤).
والدكتور عماد الدين خليل أستاذ التاريخ الإسلامي ومناهج البحث في جامعة الموصل في العراق.

تسموا باسم (الإسلام الجدد) متحديًا بقوله: «يجب علينا أن نمسك الإسلام في أيدينا -نلصقه بها- ونضعه على رءوسنا»[١].

وفي عام ١٩٢٢م أُجبر الشيخ مصطفى صبري على مغادرة بلاده فهاجر إلى اليونان وأصدر جريدة سماها (يارين) أي الغد تفاؤلًا بغد إسلامي مشرق، ونقد نظام حكم أتاتورك محللًا المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي من جراء حركة التغريب.

ثم سافر إلى مصر ثم الحجاز ثم مصر مرة أخرى؛ حيث استقر في القاهرة حتى وفاته عام ١٩٥٤م رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وكان الشيخ في نظر الكماليين مجرمًا أوردوه ضمن قائمة الـ ١٥٠ شخصًا غير المرغوب فيهم، لكنه في نظر الإسلاميين الأتراك بطلًا، ويرى الدكتور محمد حرب أن فكر الشيخ مصطفى صبري يتلخص في ثلاث قضايا وهي:

١- استنهاض الأمة الإسلامية لإزالة كل مظاهر العلمانية والتغريب الحضاري والخلقي.

٢- التمسك بطريق أهل السنة والجماعة.

٣- إعادة الخلافة الإسلامية[٢].

(٣) الإمام سليمان حلمي:

نال الإمام سعيد النورسي حقه من التعريف به ونشر كتبه ورسائله وإقامة المؤتمرات من أجله، ولكن لم يحظ غيره كالإمام سليمان حلمي بنفس القدر من العناية إلى أن قامت الدكتورة هدى درويش مشكورة بتأليف كتاب عنه جمعت فيه بين ترجمته الذاتية ومؤلفاته ودوره الكبير في حركة الإحياء الإسلامي في تركيا أثناء الحركة الكمالية[٣]؛ حيث رأى

---

(١) د. محمد حرب: «العثمانيون في التاريخ والحضارة» باختصار (ص٢٠١) إلى (ص٢٠٣).

(٢) نفسه (ص٢٠٥).

(٣) د. هدى درويش: «الإسلاميون وتركيا العلمانية نموذج الإمام سليمان حلمي» (ص١١)، تقديم د. محمد حرب -ط، دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ومن الدعاة الذين كان لهم دور متميز في الإحياء الإسلامي أيضًا: الشيخ عاطف الإسكليبي كما سيأتي...

أنه لا سبيل إلى الحفاظ على الإسلام، وما كان عليه من سطوة وانتشار في النفوس بين الأتراك إلا عن طريق الأعمال التالية:

١- العمل على إحياء القرآن الكريم عن طريق تحفيظه بإنشاء كتاتيب ومدارس لتعليم الإسلام في سرية تامة خوفًا من العقاب.

٢- نشر اللغة العربية لتعليم الشعب التركي الاتصال بالقرآن الكريم اتصالًا مباشرًا.

٣- نشر العلوم الإسلامية من فقه وتفسير وحديث، وعُنيت المدارس التي أقامها الإمام سليمان حلمي بدراسة أمهات كتب اللغة والفقه والحديث والعلوم الإسلامية.

وظل يعمل في سرية إلى عام ١٩٤٥م عند قيام الديمقراطية في تركيا، ثم خرجت هذه الحركة من حيز السرية إلى العلنية، وأصبحت تؤدي دورها في أرجاء تركيا حتى الآن[١].

وتقول الدكتورة هدى درويش: «أما بالنسبة لاختياري نموذج دعوة الإمام سليمان حلمي؛ فذلك لأنه أول حركة إصلاحية دينية تتخذ من اللغة العربية أساسًا لإصلاح المسار الإسلامي، في بلاد كان مقدرًا لها حسب إرادة البشر أن يُقْضَى على كتاب الله تعالى وعلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية فيها»[٢].

هذا، وقد ورد في تقرير المخابرات الأمريكية عن أهم وأكثر التيارات الإسلامية تأثيرًا في الشعب التركي، وهي على التوالي:

١- حركة الطريقة النقشبندية بكل فروعها، وهي التي أوجدت التيار السياسي الإسلامي وعلى رأسه نجم الدين أربكان، وهي التي ابتدعت الاهتمام بالإعلام الإسلامي عن طريق إنشاء القنوات التليفزيونية الإسلامية الخاصة بديلًا عن قنوات التلفزيون الحكومية العلمانية والقنوات اليسارية.

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه (ص١٢).

٢- تلامذة الإمام سليمان حلمي، وهؤلاء يبتعدون عن السياسة ويبتعدون عن الدعاية والإعلان والإعلام بشتى مظاهره ولكنهم يتتشرون؛ إذ جعل أتباع الإمام سليمان حلمي الأساس في الدعوة الإسلامية في القرى أولًا ثم المراكز ثم المدن عن طريق نشر العناية بحفظ القرآن الكريم، ونشر اللغة العربية لكي يسهل على الأتراك الوصول مباشرة إلى المنبع، ثم نشر العلوم الإسلامية بالتالي(١).

وبالرغم من انتماء الإمام سليمان حلمي للطريقة النقشبندية، إلا أن الغالب على حركته هو: العودة للإسلام باتخاذ منابعه الأصيلة وسيلة لاستبقائه في النفوس والقلوب، ولذلك عني بتعميم اللغة العربية كوسيلة لفهم مصادر الإسلام من الكتاب والسُّنَّة وفهم التابعين واجتهادات المجتهدين كذلك العناية بتحفيظ القرآن الكريم؛ لأنه الوسيلة الوحيدة لاستقرار كلام الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب، وبِلُغَتِهِ العربية عن طريق التفسير التركي له بالإضافة إلى تدريس العلوم الإسلامية من فقه وتفسير وحديث وسيرة(٢).

وننصح بالرجوع إلى كتاب الدكتورة هدى درويش الممتاز عن هذا الإمام الكبير الذي كان أحد الدعاة الذين حافظوا على إسلام الشعب التركي في ظروف قاسية لم تحدث لأي شعب مسلم طوال تاريخنا، وإن دراسة طريقته في الدعوة إلى الإسلام ما زالت رائدة للأقليات الإسلامية التي تعاني من الغربة في مجتمعاتها، ونشارك الدكتورة في قولها: «وهذا النموذج الناجح الذي بدأ جهاده منذ ٦٠ عامًا منذ قيام الحركة الكمالية ولا يزال مستمرًّا حتى الآن، يمكن أن يكون نموذجًا صالحًا للدول التي عانت مما عانته تركيا، سواء في اتخاذ العلمانية، أو في قبول الحروف غير العربية في كل من دول آسيا الوسطى الإسلامية، مثل: أذربيجان وأوزبكستان وطاجكستان وتركمانستان وقازاقستان وبلاد

---

(١) نفسه (ص١٦١).
(٢) نفسه (ص٢١٩ - ٢٢٠).

الشيشان وقيرغيرستان، أو دول البلقان المسلمة التي تحررت حديثًا من ربقة الشيوعية مثل: ألبانيا، والبوسنة والهرسك، ومقدونيا[1].

كذلك عُنيت الدكتورة هدى درويش بتعريفنا بإمام آخر هو:

(٣) الشيخ عاطف الإسكليبي:

كان من أبرز علماء الدولة العثمانية، تخرّج من كلية الإلهيات وكان ترتيبه الثاني، وعيّن معلمًا في جامع الفتح وبدأ تدريسه للعلوم الدينية، وكان يكتب المقالات الدينية والشرعية في مجلتي «بيان الحق» و«صراطٍ مستقيم» أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية، وكان ينتقد موقف أتاتورك تجاه المسلمين وتنفيذ حكم الاتحاد والترقي، فأخذ ينشر المقالات الدينية لتوعية المسلمين بأوضاعهم، وكان الشيخ مقصد المسلمين الوافدين من جميع أنحاء العالم إلى (استانبول)؛ حيث كانوا يعتبرونها مركز الخلافة الإسلامية، وكانوا يستفتون الشيخ عاطف في أمور دينهم.. وعندما صدرت قوانين الحكومة التركية بإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م، وقانون الملابس عام ١٩٢٥م الذي استبدل الطربوش بالقبعة، دعا الشيخ عاطف مسلمي العالم في كل مكان أن يلتفوا حول دولة الخلافة ويتبرعوا لبناء قوتها البحرية.

كما أصدر الشيخ رسالة بعنوان «الفرنجة والقبعة» هاجم فيها تقليد الغرب، وحذّر أن يتنازل المسلمون عن أخلاقهم ومقدساتهم، وكان لهذه الرسالة أثر كبير في إحداث الكثير من الثورات بسبب ارتداء القبعة حينما أخذت الجماهير يرجمون رجال الشرطة لقيامهم بمصادرة الطرابيش من فوق رءوس المارة في الشوارع الرئيسية وجميع المدن والقرى، وحينئذٍ قام أتاتورك بإعلان: (إن الثورات يجبَ أن تبنى على الدم)، وبدأ

(١) نفسه (ص٢٢٠).

بتنفيذ الحكم على المئات من المخالفين بالشنق والرمي بالرصاص وإلقائهم في السجون، وتَمَّ القبض على الشيخ عاطف بسبب كتاباته ضد القبعة، وكان لها أكبر الأثر في نفوس المسلمين، كما كانت سببًا في قيام ثورة القبعة في ٢١ يناير ١٩٢٦م، ومن ثمّ قبض عليه ونفّذ فيه حكم الإعدام[١].

ولما أرادت زوجته التأكد من خبر إعدامه جاءها الرد «مات الشيخ عاطف أفندي» وعلّق على ذلك المؤرخ صادق آل بإيراق قائلًا: «لم يستطيعوا أن يقولوا قتلناه؛ لأنهم كانوا يخافون، كانوا يخافون حتى من جثته بعد موته»[٢].

ومن أعمال الشيخ عاطف، والتي كان لها تأثيرها القوي على الشعب التركي كما كانت سببًا في إعدامه:

١- مرآة الإسلام.
٢- طريق الإسلام.
٣- دعوة الإسلام.
٤- المسكرات في دين الإسلام.
٥- القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة.
٦- الحجاب الشرعي.
٧- حضارة الإسلام.
٨- تقليد الفرنجة والقبعة.

وتقول د. هدى درويش: «وبعد الأحداث الدامية التي شهدتها تركيا في هذه الفترة، بدأت المعارضة تظهر في شكل نشاط إسلامي هادئ، بعيد عن الثورات الدموية، وقد تمثَّل هذا النشاط في حركة الشيخ سعيد النورسي الذي حاول استقطاب الشباب المسلم حوله في تركيا»[٣].

(١) نفسه باختصار (ص١٤٤-١٤٥).
(٢) نفسه (ص١٤٦).
(٣) نفسه (ص١٤٦).

وخلاصة القول، رأينا أن الجهاد المستمر للدعاة المخلصين الذين عرفناهم، فضلًا عن الجنود المجهولين الذين لا يعلم عددهم إلا الله عَزَّوَجَلَّ، هذا الجهاد بعد عون الله تعالى وفضله ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، كان سببًا في الإبقاء على الإسلام في تركيا بالرغم من الحرب الضروس التي كُنَّا نظنُّ معها أنه لن تقوم له قائمة!

ومن المبشِّرات أنه حسب استطلاعاتٍ أشرفت عليها مؤسسات أوروبية (فإن خمسة وستين في المائة من الأتراك متدينون يمارسون فرائض الإسلام، وذات النسبة تقريبًا من النساء محجبات)[١].

هذا، ولا نستطيع أن نغفل أيضًا دور أولئك الدعاة في تربية الأجيال بعدهم، وهانحن نعثر على آثارهم في تكوين الشخصيات التركية المعاصرة، أمثال: نجم الدين أربكان وصحبه من أعضاء حزب السلامة الوطني، يقول د. علي محمد الصلابي: «وبتأثير حزب السلامة الوطني، وطلاب النور في تركيا، خرجت إلى حَيِّز الوجود سلسلة (ألف كتاب) التي دعّمتها وزارة التربية، وتناولت هذه السلسلة الثقافية التركية بمعيار إسلامي، وأخذ حزب السلامة يعمّق المفاهيم الإسلامية في المجلس الوطني التركي الكبير، وهاجمت الصحف الإسلامية في تركيا كمال أتاتورك، وأطلقت عليه اسم (الدّجال)، وضغط حزب السلامة الوطني على رئاسة الشئون الدينية حتى أصدرت بيانًا في عام ١٩٧٣م أكدت فيه على دعوة المرأة التركية إلى الحجاب»[٢].

وقد ختم الدكتور الصلابي دراسته عن التجربة الإسلامية في تركيا بإجابة أربكان على سؤال صحفي مسلم؛ إذ سأله: (إن المشاركة في العملية الانتخابية أمر

---

(١) عبد الحليم غزالي: «الإسلاميون الجدد، والعلمانية الأصولية في تركيا» (ص٩٩) ظلال الثورة الصامتة -مكتبة الشروق الدولية -بالقاهرة ١٤٢٨هـ -أغسطس ٢٠٠٧م.

(٢) د. علي محمد الصلابي: «الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط» (ص٥٢٥) دار المعرفة -بيروت ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.

لا يجوز من الناحية الشرعية.. وهي مساهمة في تقوية النظام الجاهلي الذي يعتمد مثل هذه الأساليب»[١].. فرد أربكان بقوله: «ماذا نفعل إذن؟.. هل كان بإمكاننا أن نحقق المكاسب الكبرى على صعيد الحريات الشخصية والعامة.. ونؤسس هذه المئات من المدارس الإسلامية.. ونرفع أصواتنا في البرلمان لتعديل المواد الدستورية التي تَحُدُّ من الحريات الدينية، ونُعيد للناس ثقتهم بأنفسهم وبدينهم، ونحاصر الشر بأنواعه حتى يكاد ينحسر عن بلادنا، بغير هذه الوسائل التي ترفع من مستوى أداء الجميع أفرادًا وجماعات وتدفع الجميع لتحمل مسئولياتهم في إعادة البناء».

ثم يقول الدكتور الصَّلابي: «إن التيار الإسلامي في تركيا لا يزال في نمو متصاعد على الرغم من ضخامة مخططات الأعداء المحيطين به، وجسامة الأخطار التي يواجهها بين اليمين واليسار على السواء، وإننا لمنتظرون تحقيق وعد الله تعالى في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. [التوبة:٣٢][٢]

(٤) أحمد نعيم بابان زاده:

وهو من العلماء المسلمين الذين عارضوا أتاتورك لاتخاذه الغرب مثلًا أعلى، رافضًا إسلامية البلاد الشرقية ومتبينًا القومية الطورانية.

يصفه الدكتور محمد حرب بأنه واحد رجال العلم المسلمين النابهين الذي عُرِفَ بجمعه بين الثقافتين الشرقية والغربية، لكن شهرته طبقت الآفاق عندما دافع عن الفكرة

(١) نفسه (ص٥٢٩).
(٢) نفسه (ص٥٣٠).

الإسلامية في مواجهة القوميين في الدولة العثمانية، وكان يكتب في الصحف والمجلات، ثم وجد في العمل السياسي ما يلائم دعوته عندما كان عضوًا في مجلس الأعيان ثم في الجامعة ١٩٢٢م، ولكنه فَصَلَ منها عام ١٩٣٢م بعد ما اتخذ الكماليون عدة قرارات منها: عدم السماح للمطالبين بتحكيم الشريعة الإسلامية لا بالكتابة ولا بالكلام[١].

كتب أحمد نعيم المقالات في جريدة وطنية وفي (مجلة كلية الآداب بجامعة استانبول) وفي مجلة (صراط مستقيم)، و(سبيل الرشاد)[٢].

وكان يعالج في كتاباته الأسباب التي أدت إلى انتشار الإسلام وتعليلها بالعقيدة الدينية لا القومية فكتب يقول: (كان العرب وهم أول من دخلوا في دين الله أفواجًا ونشروه، كانوا يعيشون على هيئة قبائل مختلفة كانوا يتلاعبون بحياة بعضهم بعضًا، وهم تحت تأثير فكرة الثأر وفكرة الحصول على الغنائم. فجمعهم فيض الإسلام حول كلمة واحدة كما أن هذا الفيض الإسلامي قد حوّل هذه القبائل المتفرقة إلى قوة مجتمعة ثم دفعتهم الغيرة الدينية والقوى المعنوية إلى التضحية والفداء، فلم يعد ينسحب أو يفكر في التقهقر عن مكانه بين المجاهدين أي فرد منهم حتى في أحرج مواقف القتال وأدقها. لقد كان يعلم حتى أجهل الجاهلين منهم أن كل ميت في سبيل الدين شهيد، وكل من يحيا فهو غازٍ، وأن أي إنسان يُلقي بنفسه في المخاطر لن يموت إذا لم يكن ذلك مكتوبًا، وأن الأجل إذا حان وقته فلا يمكن أن يوقفه شيء. ولأن هذه الفكرة العلوية لم يكن لها وجود عند هؤلاء الذين يحاربون المسلمين، فقد كان شرف النصر في كل معركة من نصيب المجاهدين المسلمين)[٣].

---

(١) د. محمد حرب: «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٢٣٩).

(٢) نفسه (ص٢٤٢).

(٣) نفسه (ص٢٤٥).

وعارض إثارة النعرة القومية باعتبارها بدعة أجنبية مهلكة بالدرجة الأولى قائلًا: «أرى فيها -أنا العبد العاجز- أنه يمكن أن نطلق عليها اسم: داء السُّل في جسم الأمة الإسلامية، كما أنها بدعة مضرّة استعرناها من أوروبا بدافع الجهل.. والواقع الفعلي أن القومية تعتبر من أعظم مصائبنا التي تشد الانتباه، وأكثر ما يشد الانتباه في ذلك أننا لا نأخذ من أوروبا إلا أسوأ ما عندها، وأننا لا نطبق هنا الأمور الطيبة في أوروبا إلا فسدت.. والقومية بالتعبير الشرقي دعوى جاهلية[١]».

وأخذ يوجه نداءه برقة إلى من سماهم (إخواننا) الأتراك القوميين الإسلاميين، وينهاهم عن التفاخر بدعوى الجاهلية وبالأنساب وبالأقدمية، وينصحهم ألا يفصلوا تاريخ الترك عن تاريخ الإسلام، وإن إحياء الأساطير الخرافية التي مرت عليها آلاف السنين، سينمي بلاشك في الإخوة المسلمين الآخرين إحساس الانفصال، ويسبب لهم الانزعاج ويناشدهم بقوله: «لذلك أستحلفكم بالله أن تصرُّوا على أن يولي الأتراك وجوههم نحو الكعبة وألا يحوّلوها إلى طوران»[٢] مؤكدًا أن معرفة قانون جنكيزخان لا يهمنا في شيء، فالذي يلزمنا معرفته هو الشرع المحمدي والوطن الإسلامي ومعرفة المجاهدين المسلمين (شرف العنصر لا قيمة له أمام شرف الإسلام، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾)[٣].

ولا يفرّق بين الطرفين: الأتراك والعرب؛ إذ في الختام يقول: «هذه نصيحتنا للقوميين الإسلاميين، وهذا أيضًا عين ما نقوله لإخواننا العرب الذين بهر هوى العصبية أعينهم»[٤].

---

(١) نفسه (٢٤٧).
(٢) نفسه (٢٥١).
(٣) نفسه (٢٥١).
(٤) نفسه (٢٥١).

فصل

التحديات الكبرى
أمام الصحوة الإسلامية في تركيا



إذا راجعنا مرّة أخرى تلك الإجراءات التي اتخذها أتاتورك في حربه للإسلام والمسلمين، حتى اعتبره بعضهم مارقًا من الدين، إذا راجعناها وجدناها كالسلاسل التي تكبّل صاحبها وتجعله عاجزًا عن الحركة، فمن إغلاق المدارس الدينية، إلى شنق العلماء المعارضين، إلى تحويل الأذان باللغة التركية ثم الفعلة الشنعاء التي لم يسبقه إليها فيها أحد، أي فرض الكتابة بالحروف اللاتينية، فقطع صلة الأجيال الجديدة بتراثها الإسلامي، وكأنه قطع أحد شرايين الجسد وأصابه بالشلل، ودعنا من فرض لبس القبعات وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد وفرض الأزياء الأفرنجية على الرجال والنساء، والتشجيع على الاختلاط وفتح أدوار السينما والمسارح لشغل أفراد الشعب التركي المسلم بالاستغراق في اللهو وصرفهم عن ارتياد المساجد، وقد حرص أتاتورك على ترك مهمة المحافظة على العلمانية التي أرسى قواعدها للمؤسسة العسكرية. يقول الكاتب زكي سارجيل: (إن الجمهورية الأولى ١٩٢٤ -١٩٦٠م قد شكلت مرحلة مثيرة في تاريخ العلاقات المدنية العسكرية التركية من ناحية، لقد ساهم المؤسسون الأوائل في تشكيل دور الحراسة العسكرية داخل الجمهورية ومن ناحية أخرى، عمل العسكريون كالوكيل المخلص للمبادئ المدنية أي مبادئ أتاتورك العلمانية)(١).

لذلك حرص العسكريون في دستور ١٩٢٤ على إيجاد أساس قانوني لنفوذهم طبقًا للمادة الثالثة، ثم جاء دستور ١٩٦١ بنص آخر لمصلحة العسكرية التركية، فقسّم السيادة بين السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية (متضمنة العسكريين).

ويقول الكاتب معلقًا على ذلك: «هذا التغيير سمح للعسكريين بممارسة درجة أكبر من التأثير على السياسة المدنية»(٢).

---

(١) مقال بعنوان (العسكرية التركية.. الفاعل الرئيسي أم الوكيل؟) (ص٩٢) بقلم زكي سارجيل -ترجمة سندس محفوظ -مجلة «شئون تركية» تصدر عن مركز الأهرام بالقاهرة -العدد الخامس -صيف ٢٠١٦م.
(٢) نفسه (ص٩٢).

وقد تتبع الأستاذ ممدوح المنير الانقلابات العسكرية في تركيا منذ وفاة أتاتورك؛ إذ (منذ تأسيس الدولة التركية الحديثة على يدِ أتاتورك مطلع القرن الماضي على أنقاض الخلافة العثمانية آخر مظهر للوحدة السياسية للمسلمين في العالم[١]، حرص (أتاتورك) في الدستور التركي على جعل الجيش حامي حِمَى العلمانية في البلاد، بحيث يحق له التدخل في أي وقت وفقًا لتقديره هو للإطاحة بأي نظامِ حكمٍ قائم بدعوى انتهاك علمانية البلاد، وبهذ الدور المرسوم له في الدستور بدأت الانقلابات العسكرية مع حكومة مندريس ١٩٦١م ثم حكومة فاتح ديميريل ١٩٧١م وصولًا إلى الانقلاب ضد حكومة سليمان ديميريل ١٩٨١م، وآخر التدخلات العسكرية كان ١٩٩٧م ضد حكومة نجم الدين أربكان بالضغط على حلفائه من الأحزاب الأخرى، واستعراض مثير لوحدة من الدبابات ثم حظر حزب الرفاه الإسلامي والزج بقادته من بينهم رجب طيب أردوغان في السجون)[٢].

هذا، وقد اتضحت الصلة الوثيقة بين المجلس العسكري التركي المحافظ على التجربة الكمالية العلمانية وبين مؤسسة القضاء التي تسانده في كل قراراته؛ إذ عندما أجريت الانتخابات عام ١٩٦٢م أثبتَ حزب الفضيلة أنه ثالث قوة سياسية في البلاد،

---

(١) تحدث الشاعر أحمد شوقي معبرًا عن شعور المسلمين في أرجاء العالم بسبب إلغاء الخلافة من هول ما حدث فقال:

ضجَّت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند وَالِهَةٌ ومصر حزينة ... تبكي عليك بأدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أَمَحَا من الأرض الخلافة مَاحِ؟

المصدر: عبد الحميد الكاتب: «حكاية أتاتورك والإسلام» (ص١٢٥) كتاب اليوم ١٩٩٣م، ولكنه علق على البيت الخامس بقوله: وأظن أن شوقي أسرف قليلًا عندما ذكر بلاد فارس، فإن الفرس لم يعترفوا أبدًا بالخلافة العثمانية، السنية، وآمنوا ومازالوا مؤمنين بالإمامة الشيعية وحدها!

(٢) ممدوح المنير مقال بعنوان (محاكمة قادة الانقلاب العسكري في تركيا) مجلة الشعب القاهرة (ص١٤) في ١٧/٩/٢٠١٣م.

وأن تياره قادر على إيصال مائة من نائبيه إلى البرلمان بتأييد الناخب التركي ولكن صدر ضده قرار الحل بواسطة القضاء!

هذا الحزب، الذي حظرت أنقره نشاطاته، هو الحزب السياسي الثالث والعشرين الذي يَلْقَى هذا المصير في تركيا بقرار من المحكمة الدستورية منذ تأسيس هذه المحكمة عام ١٩٦٢م، أما الذريعة فإنه تبنّى أفكارًا إسلامية تهدد نظام الدولة العلمانية الذي أسسه أتاتورك[١].

والدليل على ذلك أنه عندما بدأ يصعد نجم حزب السلامة (الرفاه) بزعامة نجم الدين أربكان، قام أتباع أتاتورك المتمركزون في الجيش التركي بضرب هذا التيار الإسلامي، فقام الجنرال كنعان إيفرين بانقلابه المشئوم ليزج بأربكان وإخوانه في ظلمات السجون[٢].

وهكذا ظلّ الجيش سائرًا في طريقه الذي خطّه له أتاتورك فقام بأكثر من حركة انقلابية عسكرية لوأد أيّةِ حركة إحياء إسلامي مستخدمًا أقصى أساليب القمع، دالة على قلوب أشد قسوة من الحجارة، ومتذرعة بالمحافظة على مبادئ أتاتورك؛ إذ جاء في البيان الأول للانقلاب العسكري في ٢٧/ ٥/ ١٩٦٠م أن مجلس قيادة الثورة يتعهد بالمحافظة على المبادئ الأتاتوركية وحمايتها من عبث العابثين[٣]... واعتبرت بعض الدوائر أن هذا الانقلاب كان جزءًا من مخطط أمريكي غربي للسيطرة على المد الإسلامي في تركيا[٤].

ثم جاء انقلاب عام ١٩٨٠م الذي وصفه كرم أوكتم مؤلف كتاب (تركيا.. الأمة الغاضبة) بأنه واحدة من أكبر الفظاعات في التاريخ التركي المعاصر، فيما حدث

---

(١) مجلة البيان، العدد (١٦٥) جمادي الأول ١٤٢٢هـ -أغسطس ٢٠٠١م (ص١٦٥).

(٢) زياد أبو غنيمة: «السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية» (ص١٩٢) -دار عمار الأردن ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

(٣) رضا هلال: «السيف والهلال» -المفصل الرابع -دار الشروق ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

(٤) كمال حبيب: «الدين والدولة في تركيا» (ص١٩٥) مكتبة الأسرة ٢٠٠٩م.

عندئذ لم يَبْقَ له مثيل[١]، حتى في أشد فترات العنف السياسي في تركيا؛ فخلال سنوات حكمه الثلاث اعتقل الجيش حوالي ٦٥٠ ألف رجل وامرأة؛ حيث بلغت أقل مدة قضاها أحدهم تسعين يومًا، ولكن الغالبية قبعت في السجون لسنوات دون توجيه أية تهمة لهم... وحكم القضاة بالإعدام على خمسمائة من ضمن ستة آلاف طلب المدّعون إعدامهم، وتَمَّ بالفعل إعدام ٤٩ رجلًا وامرأة[٢].

ويذكر مؤلف الكتاب أنه في ظل غياب التقارير الإعلامية المستقلة، كان القليلون على وعي بجسامة انتهاكات حقوق الإنسان، كما رحبت الولايات المتحدة بالانقلاب.. ويعلّق على ذلك بقوله: (وفي الحقيقة إن تورط الولايات المتحدة لم يقتصر على هذا الترحيب الحار بالانقلاب، فقد تم التخطيط للانقلاب بتواطؤ وربما بدعم مباشر من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية)[٣].

وقد استغلَّت قيادة الجيش أسابيعها الأولى في الحكم في تدمير المجتمع المدني، فتَمَّ حظر كل الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات، حتى أبعدها عن الشك، وتم سجن كل السياسيين النشطاء في الجزر المنعزلة ببحر مرمرة، ووضعت الصحف تحت رقابة صارمة، ومنعت من نشر أي مواد نقدية للمجلس العسكري الحاكم[٤].

ومَضَتْ عملية إعادة هياكل الحكم التسلطي بعيدًا بتبديل دستور ١٩٦١.. وطرح الدستور الجديد للتصويت في نوفمبر ١٩٨٢م من أجل إضفاء مسحة الموافقة الشعبية عليه.. ونظرًا لمناخ الخوف السائد في تلك الأيام فلم يشترك في الانتخاب إلا أقل من

---

(١) كرم أوكتم: «تركيا، الأمة الغاضبة» (ص١٠٩) ترجمة مصطفى مجدي الجمال، تقديم د. عاصم الدسوقي، ط سطور ٢٠١٢م.

(٢) نفسه (ص١١٠).

(٣) نفسه (ص١١١).

(٤) نفسه (ص١١١-١١٢).

١٠٪ من عدد الناخبين وهم الذين واتتهم الجرأة للتصويت بلا، وهكذا تم التصديق على دستور ١٩٨٢م في استفتاء عسكري صارم[١].

ودخل السجون أكثر من نصف مليون مواطن، وفرّ عشرات الألوف من السياسيين إلى أوروبا الغربية.. وفقد أكثر من عشرة آلاف لاجئ مواطنتهم فعليًا ولم يتمكنوا من استعادتها ثانية إلا في أواخر التسعينيات... ولكن الجنرالات اضطروا بعد ذلك لاتخاذ خطوات لتعديل الاستقطاب الأيديولوجي تتفق مع نظرية (**الحزام الإسلامي الأخضر الأمريكية**)، فقد استهدفت سياسة الرئيس الأمريكي كارتر الذي وقع الانقلاب أثناء ولايته، ومجلس الأمن القومي الأمريكي وقتذاك، استهدفت إضعاف النفوذ السوڤيتي في العالم الإسلامي بدعم اليقظة الإسلامية ضد الاتحاد السوڤيتي، وتبلورت سياسة الحزام الأخضر في دعم طالبان وحربها ضد الاتحاد السوڤيتي، وتشجيع الحركات الإسلامية في آسيا الوسطى، وفي تركيا تطابقت هذه السياسة مع عزم الجنرالات إعادة تشكيل الكمالية وأسلمتها[٢].

وقد أطلق على هذه الأيديولوجية (التوليفة التركية الإسلامية).. وتم بناء آلاف المساجد، وزيدت ميزانية إدارة الشئون الدينية بأكثر من الضعف.. وتم إنشاء ٢٣ كلية للفقه الإسلامي، وذلك للتحول الأيديولوجي والمؤسسي والسياسي نحو الدين والقومية العرقية[٣].

ولكن يتضح وجه الغرابة الشديد في الجمع بين إعادة التوجه الصريحة هذه نحو الدين، وبين إحياء الجنرالات عبادة الشخصية المرتبطة بأتاتورك بعد ما كانت آخذة في الشحوب في السنوات السابقة على الانقلاب، فبلغ تبجيل أتاتورك حد السفه في صورة

(١) نفسه (ص١١٢).
(٢) نفسه (ص١١٣).
(٣) نفسه (ص١١٤).

الآلاف من النصب التذكارية والتماثيل والصور، مما خلق أحد أكثر التناقضات وضوحًا.

وهنا يتساءل مؤلف الكتاب متعجبًا (كيف يمكن للمرء أن يكون مسلمًا كما طلب الجنرالات وأن يبدي الاحترام لتماثيل أتاتورك؟ كيف يمكن للمرء بناء آلاف المساجد، وآلاف الأصنام أيضًا التي تحرِّمها التقاليد الإسلامية تحريمًا بيِّنًا؟ غير أن الانقلابيين اتبعوا منطقًا عسكريًّا، وليست منطق الحس العام)[١]!!



(١) نفسه (ص١١٤).

طابع الغلو والتشدد للعلمانية الأتاتوركية

(قضية الحجاب نموذجًا)

حرصت الدولة العثمانية منذ تأسيسها عام ١٢٩٩م على تطبيق الشريعة الإسلامية (فكانت أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ في ذلك الوقت، عاشت ستة قرون على الإسلام، ومن أبرز سمات تطبيق الشريعة محافظتها على المرأة المسلمة باعتبارها أساس الأسرة أولًا ثم المجتمع)[١].

وظلت كذلك إلى أن قام أتاتورك -وهو من يهود الدونمة- بإلغاء الخلافة واستبدل الشريعة الإسلامية بالقانون المدني السويسري.. وقام بحظر ارتداء النساء الحجاب والحض على السفور.. وبعد وفاة أتاتورك حمل الجيش التركي لواء محاربة الحجاب باعتباره من الأمور التي أوصى بها أتاتورك بهدف تحديث الدولة وتحقيق تقدمها[٢].

وتذكر الدكتورة هدى درويش أن يهود الدونمة في تركيا[٣] كان لهم دور كبير في هتك حجاب المرأة المسلمة هناك؛ (إذ نادوا برفع حجاب المرأة التركية، وقاموا بنشر رسائل عبر صحفهم ومجلاتهم، يعلنون على صفحاتها الحرب على الحجاب، معلنين أن الحجاب ليس من الإسلام وأنه عادة يونانية!»[٤].

---

(١) د. هدى دوريش: الحجاب (ص١٣٠).

(٢) نفسه (ص١٣٢).

(٣) وقد أضاف الأستاذ عبد الحميد الكاتب إلى معلومتنا عن يهود الدونمة الجديد، مُفسّرًا عما هو معروف عنهم من انتحال الإسلام وتأدية شعائره في الظاهر خداعًا للمسلمين، ولكنهم في حقيقتهم يعتنقون اليهودية ويقومون بشعائرهم في الباطن، يُضاف إلى ذلك أن لهم صلاتهم الخفية بيهود العالم، فإن منشئ حركتهم كان حاخامًا أوروبيًّا قام بحركة كبيرة وسط اليهود حتى أسموه «موسى الثاني».
انظر: «حكاية أتاتورك والإسلام» عبد الحميد الكاتب (ص١١١) كتاب اليوم بمصر ١٩٩٣م.

(٤) نفسه (ص١٤٥).

ولكن في عام ١٩٥٠م نجح الحزب الديمقراطي بقيادة «عدنان مندريس»، وكان له توجّه إسلامي؛ إذ أعاد دروس الدين للمدارس، وسمع بالحج والرجوع للقرآن الكريم، وأعاد الأذان باللغة العربية، وكان من أهمّ بنود هذا الحزب إطلاق الحرية للنساء في ارتداء الحجاب[١].

وفي عام ١٩٨٠م أصدرت إدارة الشئون الدينية في تركيا فتوى عن الحجاب توضح أن الحجاب أمر إلهي يجب تنفيذه.. ولكن الدولة وعلى رأسها الجيش وقياداته تصدت لهذا الزي الإسلامي وعارضت ارتداءه في الجامعات.. ثم قام قادة الأركان بالجيش التركي واستصدروا ثمانية عشر إجراءً من مجلس الأمن التركي في ٢٨/ ٢/ ١٩٩٧م، من أهمها: منع أي دعوات مؤيدة لتطبيق الشريعة الإسلامية، وحظر ارتداء النساء للحجاب[٢].

وظلت المعركة قائمة بين المؤسسة العسكرية وأربكان رئيس الحكومة عام ١٩٩٧م؛ إذ رأت أن رئاسته للحكومة تمثل خطرًا على تركيا بسبب توجهاته الإسلامية، فأطاحت به وحزبه (الرفاه) أيضًا، وتشكلّت حكومة جديدة برئاسة مسعود يلمظ بهدف تطبيق إجراءات الجيش ووقف المد الإسلامي.

وبسبب تضييق الخناق على المحجبات اضطرت الفتيات التركيات المحجبات إلى الالتحاق بجامعات خارج تركيا، مثل: المجر والنمسا وألمانيا وهولندا للدراسة والحصول على شهادات وأخذ حريتهن في ارتداء الحجاب دون مضايقات، ولكن دفع التعنت والإصرار على منع أيّة ظاهرة إسلامية، دفع المجلس الأعلى للتعليم في تركيا بإصدار قرار بعدم إجازة الشهادات الممنوحة خارج تركيا إلا إذا اجتازت الطالبة امتحان آخر للقبول في تركيا عقب العودة إليها، لكي تضطر الطالبة إلى خلع حجابها مرة أخرى حتى تستطيع أداء الامتحان![٣].

---

(١) نفسه (ص١٦١). (٢) نفسه.

(٣) نفسه (ص١٧٧).

ولا أدل على ذلك من الكراهية الكامنة في النفوس والقلوب إزاء الإسلام وما يمثّله حتى لو كان مجرد غطاء رأس لامرأة مسلمة!

ودأبت الحكومة آنذاك على القضاء على مظاهر الأسلمة في الدولة بمكافحة التعليم الديني وحظر الحجاب.. وعلى أثر ذلك حدث العديد من المظاهرات وتصاعدت عمليات اعتصام الطالبات المحجبات في استانبول وأنقره وقونيا وتضامن معهن رؤساء البلديات وحزب الرفاه.. وقد أدت هذه الأعمال إلى سقوط عشرات الجرحى، واعتقال البعض الآخر، مع قيام الحكومة بحملات تفتيش المدارس وإنهاء خدمة كل معلمة لا تلتزم بالزي القومي.

وظلت المعركة مستمرة ضد حظر الحجاب في الجامعات والمدارس مع إصرار مجلس الأمن القومي في ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٨م والأعضاء العسكريون على رفض مناقشة التساهل مع قضية الحجاب، مما دفع القوى الإسلامية إلى الاحتجاج بالمظاهرات والاعتصامات[١].

وقد عرضت الدكتور هدى درويش لقضية الحجاب بكافة جوانبه باعتباره يمثّل المشكلة الرئيسية التي تتصدر المواجهة بين الجيش والإسلاميين في تركيا، وسجّلت بكتابها قضية حجاب مروة قاوفجي الشهيرة التي تعرضت لأعمال تضييق وترهيب بسبب إصرارها على ارتداء الحجاب، وهي نائبة في البرلمان ممثلة لحزب الفضيلة[٢]..

وقد أصبحت مروة بشجاعتها وصمودها أمام الإجراءات التعسفية نحوها، أصبحت رمزًا للصراع الدائر حول الإسلام السياسي في تركيا، وقد عبرت عن موقفها النضالي بقولها: «إن نضالنا في سبيل الحرية والحقوق سيكون مماثلًا لنضال السود

(١) د. هدى درويش: «الحجاب» (ص١٦٣).
(٢) نفسه (ص١٦٧).

في الولايات المتحدة، وعلينا نحن المسلمين أن نقاتل ضد الكيان الصهيوني في أرض فلسطين، وهذا حق أو في مناطق حرب أخرى»، وقالت أيضًا: «إن عقيدة الرفاه تتطلع إلى إعلان الجهاد في صفوف المسلمين، ليس في تركيا فقط، وإنما في العالم بأسره ولخير البشرية كلها»[١].

ويبدو في النهاية انتصار **الصحوة الإسلامية** في هذه المعركة الطويلة مع العلمانيين؛ حيث أسهمت تركيا بإنشاء قناة إسلامية تابعة للدولة بظهور مذيعات النشرات الإخبارية، وهن مرتديات الحجاب[٢]. وهكذا كانت قضية الحجاب رمزًا للصراع بين التغريب والأسلمة في تركيا؛ إذ علينا في النهاية ألا نغفل دور الحقد الدفين الأوروبي للدولة العثمانية طوال تاريخها؛ حيث ظلت أوروبا تحاربها علنًا منفردة ومجتمعة، وتثير الاضطرابات والثورات في الداخل حتى استطاعت بواسطة (رجلها) أتاتورك، هدم الخلافة الإسلامية وتفتيت الأمة واستعمار أراضيها، بل لم تنقطع الحرب حتى وقتنا هذا بافتعال أزمات وإثارة نعرات وتشجيع أعمال الإرهاب في داخل تركيا.

واستطرادًا لقضية الحجاب لا نغفل عن ذكر واقعة لها دلالة هامة؛ إذ سنحت فرصة ذهبية لإعلان أحد الأوروبيين انتصار حضارته النهائي!

وكانت المناسبة عقب نجاح يهود الدونمة باجتذاب بعض الفتيات التركيات للاشتراك في مسابقة اختيار ملكات جمال العالم ١٩٢٣م؛ حيث فازت فتاة تركية بلقب ملكة جمال العالم.

وكانت فرصة سانحة لرئيس اللجنة الأوروبي ليعبّر عن مكنونات صدره؛ حيث قال: (أيها السادة أعضاء اللجنة في أوروبا كلها نحتفل اليوم بانتصار النصرانية، لقد

(١) نفسه (ص١٧١).
(٢) نفسه (ص١٨٣).

انتهى الإسلام الذي ظلّ يسيطر على العالم منذ ١٤٠٠ سنة، إن كريمان خالص ملكة جمال تركيا تمثل أمامنا المرأة المسلمة، تلك المرأة التي لم تخرج إلى الشارع، وإنما كانت ترى الناس من وراء المشربيات، ها هي كريمان خالص حفيدة المرأة المسلمة المحافظة تخرج الآن أمامنا (بالمايوه) ولابد من الاعتراف أن هذه الفتاة هي نتاج انتصارنا، ثم أعلن أيضًا سخريته من تحفظ المرأة المسلمة التركية في عهد الدولة العثمانية، فقال: «ذات يوم من أيام التاريخ، انزعج السلطان العثماني -سليمان القانوني- من الرقص الذي ظهر في فرنسا، عندما جاوزت الدولة العثمانية حدود فرنسا، فتدخل السلطان لإيقاف الرقص خشية أن يسري في بلاده، وها هي حفيدة السلطان العثماني المسلم تقف بيننا ولا ترتدي غير المايوه، وتطلب منا أن نعجب بها، ونحن نعلن لها بالتالي أننا أعجبنا بها مع كل تمنياتنا بأن يكون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حسب ما نريد، **فلتُرفع الأقداح تكريمًا لانتصار أوروبا!!**»[1]! ولكن خاب ظنّه إذْ لم يكن يدري أن الصحوة الإسلامية ماضية في طريقها كما سنرى.

الصحوة الإسلامية ماضية في طريقها:

فبالإضافة إلى أن طموح الحزب لم يقتصر على دراسة شئون تركيا وحدها بل تخطاه لإنشاء مركز حضاري إسلامي يؤثر بإشعاعه على العالم وقد رصد (أحمد داود أوغلو) بكتاباته بعض عناصر القوة الكامنة التي من شأنها زيادة جاذبية الرؤية الإسلامية أو المنظور الإسلامي ونموذجه كبديل نظري أكثر قدرة على معالجة أزمات النظام العالمي.

ويقول الأستاذ علي جلال معوض: «كما يطرح أوغلو بعض الأبعاد والتطورات الواقعية الإيجابية التي تؤذن باحتمالات تفعيل برنامج سياسي لإنشاء مركز حضاري إسلامي على أرض الواقع، وهو ما يرتبط بحركة الإحياء الإسلامي وانكشاف إفلاس

---

(١) نفسه (ص١٤٨).

وعجز النخب التغريبية المحتكرة للسلطة السياسية في الدول الإسلامية، وعجزها عن تحقيق ما وعدت به من إنجازات سياسية واقتصادية، فضلًا عن تجلّي انحياز الغرب ومعاييره المزدوجة في التعامل مع العالم الإسلامي وقضاياه ودوله مما يعزِّز الوعي الإسلامي، وذلك في إطار ما يسميه (أوغلو) (مرحلة تجديد الإدراك الذاتي الإسلامي) وتخلّصه تدريجيًّا من عقدة الدونية التي سيطرت على الذهنية المسلمة إبان الحقبة الاستعمارية[1].

أن أوغلو بهذا الرأي يعبّر عن التصميم على حركة الصحوة الإسلامية التركية ويغذيها بما يسميه (الإدارك الذاتي الإسلامي) الذي يهدف إلى ثلاثة أغراض:

الأول: التخلص من عقدة الدونية، أي الارتفاع إلى المستوى الإيماني المتصل بوصف الأمة الإسلامية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

الثاني: إفلاس النخب السياسية التغريبية بعد أن أعطيت الفرصة كاملة في مجالي السياسة والاقتصاد لعقود مضت.

الثالث: إيقاظ الوعي الإسلامي لكي يدرك انحياز الغرب ومعاييره المزدوجة في علاقته بالعالم الإسلامي، ويحترس من أساليبه المراوغة، وللعلم فإن أوغلو مفكر أكاديمي متخصص في الفلسفة السياسية والعلاقات الدولية من جهة، بالإضافة إلى دورة كرجل السياسة والتنفيذ العملي بحكم شغله لعديد من المناصب السياسية منذ وصول حزب العدالة والتنمية للسلطة في نوفمبر ٢٠٠٢م[2].

ولا نستبعد مع رؤية أوغلو وخبرته السياسية وثقافته الواسعة -أن يتسع اهتمامه بالدور الفعال الذي ينبغي على تركيا الاضطلاع به، كما كان دأبها في تاريخها طوال

(١) مقال بعنوان (قراءة في فكر داود أوغلو) بقلم علي جلال معوض في مجلة «السياسة الدولية»، العدد (١٧٩)، يناير ٢٠١٠م المجلد ٤٥.

(٢) نفس المصدر.

نحو ستة قرون -أي حماية الأقليات الإسلامية المضطهدة في العالم؛ لأن صور العدوان والهوان التي تصب على عقائد المسلمين وجماعاتهم (ما كان لها أن تقع لو أن الذين يفارقون تلك الأعمال أدركوا أن لأولئك المسلمين وزنًا يُعمل له حساب، أو إرادةٍ ذات صوت مسموع، يستوي في ذلك ما يفعله بابا روما في مجتمعات المسلمين الأفارقة، الذين دعا علنًا إلى تنصيرهم، أو تمارسه حكومة بورما ضد المسلمين المنكوبين هناك، أو ما يلقاه مسلمو الهند على أيدي الجماعات الهندوسية المتطرفة، أو ما يتعرض له المسلمون في ليبيريا من اضطهاد)[١].

ونأمل في طريق النهضة المرتقبة، امتلاك تركيا لأدوات الضغط الاقتصادية والسياسية والعسكرية في عالم لا يحترم إلا القوة ولا نَغُضُّ بذلك من شأن الجمعيات التي أنشئت بنظام الأوقاف لأغراض النفع العام، ويسهم فيها أهل الخير بزكواتهم (وهي جمعيات عاملة في مختلف المجالات الثقافية والعلمية والإنسانية.. وقد نهضت إحدى هذه الجمعيات للدفاع عن حقوق المظلومين والمستضعفين، ودعت إلى تنظيم مؤتمر عالمي في استانبول لمناصرة مسلمي البوسنة أيام محنتهم الكبرى لفضح جرائم الصرب)[٢].

تبنّي فكرة الجامعة الإسلامية:

وقد تبنّى قادة حركة الصحوة الإسلامية الصاعدة في تركيا فكرة الجامعة الإسلامية أو الوحدة الإسلامية، ووضعوها نصب أعينهم كهدف استراتيجي عن أهداف الصحوة.

فبالرغم من تضييق الخناق بواسطة العلمانيين والمؤسسة العسكرية على نجم الدين أربكان -زعيم حزب الرفاه التركي حينذاك- ألقى خطبة ذات مغزى في افتتاح المؤتمر العالمي الخامس للتجمعات الإسلامية الذي افتتح في اسطنبول في مايو ١٩٩٦م، وحضره حشد هائل من العالم العربي والإسلامي يمثلون مختلف الجماعات والحركات الإسلامية،

---

(١) فهمي هويدي: «المقالات المحظورة» (ص٣٠٨-٣٠٩).

(٢) فهمي هويدي: «المقالات المحظورة» (ص٢٨١) بتصرف يسير.

بالإضافة إلى الجاليات الإسلامية، وهتف في الحاضرين: «أنتم القوة الديناميكية في القرن الواحد والعشرين»، وتحدث عن قوة إسلامية موحدة على غرار حلف شمال الأطلنطي، وعملة إسلامية موحدة بدل الدولار، كما تحدث عن أمم إسلامية متحدة بجوار هيئة الأمم العالمية[١].

ويرى أربكان أن سياسة بلاده الخارجية تعمل على:

١- تشكيل منظمة الأمم المتحدة الإسلامية تجعل من العالم الإسلامي قوة عالمية مؤثرة.

٢- إنشاء «منظمة التعاون والدفاع المشترك بين الدول الإسلامية».

٣- إنشاء الأسواق الإسلامية المشتركة.

٤- قيام العملة الإسلامية الموحدة.

٥- قيام التعاون بين الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث[٢].

وبهذا المشروع وحده -دون غيره- تستطيع الأمة الإسلامية المحافظة على هويتها الإسلامية وتناضل دفاعًا عن نفسها في مواجهة المشروع الأمريكي الذي يهدف إلى إعادة تشكيل عالمنا الإسلامي بالكامل وتحوّله من أمة عربية واحدة كنواة لأمة إسلامية واحدة إلى شيء هُلامي اسمه «الشرق الأوسط الكبير»[٣].



---

(١) د. أحمد شلبي: «صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع» (ص١٢١-١٢٢) مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٦م.

(٢) د. عبد الرحمن النقيب: «مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية» (ص٢٤٣) دار السلام -١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

(٣) د. محمد حرب: رئيس مركز بحوث العالم التركي والدراسات العثمانية بالقاهرة مقال بعنوان «(الأرباقانية) حركة نجم الدين أرباقان» مجلة المنار الجديد بالقاهرة. جمادى الآخرة ١٤١٩هـ -أكتوبر ١٩٩٨م.

فصل

مناقشة دعاوى الكماليين وتفنيدها

فضلًا عن القضية المحورية التي دار حولها الخلاف، أي فصل الدين عن السياسة فقد تعرضت أعمال أتاتورك وحزبه إلى نقد علمي من بعض علماء المسلمين وقتذاك، فقاموا بتفنيدها مثبتين الأسس الواهية التي قامت عليها، وتتلخص فيما يلي:

أولًا: النظر السطحي للحضارة الغربية دون الوعي بحركة تاريخها.

ثانيًا: تمسك الشعب التركي بإيمانه.

ثالثًا: الجهل بمرونة الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل العصور.

رابعًا: التعليم الديني وصلته بالثقافة الإسلامية المتكاملة.

خامسًا: العناية بالتعليم الديني في أوروبا.

سادسًا: علمانية أتاتورك وحزبه في ميزان الإسلام.

ولمّا كان العلمانيون يشاركون أتباع أتاتورك في بعض هذه الظنون، رأينا عرضها بإسهاب فيما يلي:

فصل الدين عن السياسة: الأغلوطة التي روّج لها أتاتورك:

كانت قضية فصل الدين عن السياسة من القضايا التي أولاها شكيب أرسلان اهتمامًا كبيرًا كما رأينا وأطلق عليها اسم «الأغلوطة»؛ لأنه لا أساس لها من الصحة عند دراسة طبيعة الحكومات الأوروبية في الحقيقة والواقع، وإن الحكومة التركية في عصر أتاتورك لا تصْدُق رعيتها القول أصلًا عندما تقول لهم: إن دول أوروبا قد نبذت الديانة المسيحية ظهريًّا، وأن رقيها المادي لم يتهيأ لها إلا بنبذ العقائد الدينية، ويرى أن هذا الكذب الصريح زعمته فئة وساسة من روّاد الاستعمار وأعداء الإسلام وخدعوا المسلمين وأوهموهم إن أوروبا فصلت الدين عن السياسة بتاتًا، وطلقت هذه من هذا ثلاثًا!.. وأنه إنْ كان المسلمون يريدون أن يفلحوا فلا مناص لهم من الاقتداء بالأوروبيين في هذا المشرب، ولما كان الأوروبيون قد نزعوا من حكوماتهم كل صفة مسيحية كان على

المسلمين المقتدين بهم في طلب الفلاح أن ينتزعوا عن حكوماتهم كل صبغة إسلامية بحيث تنظر إلى الدين نظر من لا ناقة له في الأمر ولا جمل[١].

ثم ألقى بثقله على أتاتورك وحزبه في تركيا فقال: «ولقد روّج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقره لغرض في نفسه من جهة سلخ الترك تدريجًا من العقيدة الإسلامية وصرفهم عن اللغة العربية، فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامي أجنبيًّا عن الحكومة التركية كما أن الدين المسيحي -بزعمه هو- أجنبي عن الحكومات الأوروبية الراقية! وتابعه في ذلك الحزب الذي يسمى في تركيا -أي حزب الشعب الجمهوري الذي أسّسه أتاتورك- والذي هو من أوله إلى آخره أشبه بجند لمصطفى كمال تحت قيادته لا يملكون معه قبضًا ولا بسطًا، فألغوا جميع ما يُشْتَمُّ منه رائحة الإسلام من أوضاع الحكومة التركية... وكانوا على مدة بضع سنوات أبطلوا إقامة مراسيم العيدين النحر والفطر، وقالوا: إن الحكومة التركية لا تعرفهما ولكنهم وجدوا فيما بعد أن المأمورين شاء رئيس الجمهورية أم أبى لابد لهم من الاحتفال بهذين العيدين، فعادوا في السنة الماضية يعطّلون دوائر الحكومة فيهما، وعاد رئيس الجمهورية يقبل فيهما التهاني»[٢].

خطوات أتاتورك نحو إلغاء الخلافة:

وقد سار أتاتورك في طريقه وفق خطوات مدروسة تدلُّ على دهاء ومكر، فبدأ بنزع السلطة من الخلافة، وقال: «الخلافة تبقى كرياسة روحية، أما السلطة الزمنية فيكون لها سلطان حتى ينطلي على الشعب الأمر ولا يسيئون الظن في هذه المرحلة الأولى».

ثم جاءت الخطوة الثانية: وهي عزل السلطان ذاته «وحيد الدين» ونفيه.

---

(١) نفسه (ص٣٥١).

(٢) نفسه (ص٣٥١-٣٥٢).

ثم جاءت الخطوة الثالثة والأخيرة: وهي إلغاء الخلافة بالكامل.

وكان مؤتمر لوزان هو مكان التفاوض مع إنجلترا.. وكان ممثل تركيا هو الحاخام ناحوم أفندي، (بعد ذلك جاء كحاخام في مصر)، واليهودي قره صوه.. إلى جانب عصمت إينونو ورضاتور.. تم التفاهم على مناصرة كمال أتاتورك نظير أن يتخلى عن الموصل (النفطية)! وعن الخلافة الإسلامية.. ونظير ذلك يناصروه ضد اليونان ويساعدوه على تكوين دولة (صورية) واستقلال (صوري).

وهلّل كتّاب وأدباء وشعراء لنصرٍ مزعوم؛ حيث تحرر أتاتورك من احتلال يوناني! حتى أن شوقي الشاعر سمّاه خالد الترك يعيد عصر خالد العرب.

وبعد فوات الأوان أدرك شوقي وغيره أن كل شيء قد ضاع.. الدولة ضاعت والدين ضاع، ثم يختم الدكتور فهمي الشناوي تعليقه بقوله: «ورثى شوقي بقصيدة دامعة الخلافة.. ولا أدري ماذا كان يقرض من الشعر لو عاش ليرى إسرائيل على أنقاض الخلافة، ثم تحوّل إسرائيل إلى إمبراطورية.. وكل هذا بسبب فصل الدين عن الدولة، حوّلت تركيا جامع أياصوفيا إلى كنيسة! فهل رضي الغرب؟ أبادت تركيا الأتاتوركية طلبة وأساتذة المعهد الديني القائم في جامع السلطان محمد.. فهل رضي الغرب؟ ألغوا اللغة العربية ومنعوا كتابة التركية بالحروف العربية.. فهل رضي الغرب؟ غيّروا قانون الميراث والزواج والحجاب، وحلّلوا شرب الخمر، ونشروا الفساد والسفاح بينهم، فهل رضي الغرب؟ صفّوا جسديًّا وأعدموا علماء الدين، فهل رضي الغرب؟ بالعكس تحولت تركيا إلى دولة درجة ثانية[1].

ويضيف الأستاذ محمد جميل بيهم تفاصيل أخرى بقوله: «ولقد استهل أتاتورك عهده بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وبإلغاء وزارة الأوقاف ونظام الوقف

(١) د. فهمي الشناوي: «مصرع الخلافة العثمانية» (ص ١١١) ط المختار الإسلامي بالقاهرة ١٩٩٥م.

والمحاكم الشرعية وقوانينها، ثم عمد إلى رفع الحجاب وإلغاء تعدد الزوجات، وأمر بإلغاء الطرق الصوفية والتكايا ومصادرة أموالها، وبإخلاء جامع أياصوفيا وإعداده في مصافِّ الآثار القديمة... كما حذف العبارة التي تنص في الدستور أن الإسلام دين الدولة، وألغى تدريس العلوم الدينية وحوّل الأذان إلى اللغة التركية، ورفع من برنامج جامعة اسطنبول القسم الديني، وحظر على علماء الدين الاستمرار بلباسهم القديم... بالإضافة إلى تبديل الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وحمل الشعب على تغيير أسماء أبنائه بأسماء ترجع إلى الطورانية وذلك أسوة به؛ إذ سمى نفسه -أتاتورك- عوضًا عن مصطفى كمال.. وأطلق حرية نقد الدين، فشجّع بعض التُّرك على التعرض له، وعلى انتقاصه، جريًا على ما فعله بعض علماء فرنسا أثناء الثورة الفرنسية(١).

دول أوروبا لم تنبذ العقائد الدينية:

يستهل الأمير شكيب أرسلان في ردّه على حكومة أتاتورك بقوله: «يكثر في الشرق الآن كلام الخلق في «فصل الدين عن السياسة»، ويظن بعضهم أن الأوروبيين فصلوا الدين عن السياسة فصلًا تامًّا، وأن الحكومات في الغرب لا تعني بشيء من أمر الدين وغير ذلك من الترهات التي هي أبعد الأمور عن الواقع»(٢).

ويذكر أن حكومة تركيا الكمالية لا تصدق رعيتها القول أصلًا عندما تقول لهم إن دول أوروبا قد نبذت الديانة المسيحية ظهريًّا، وأن رقيها المادي لم يتهيأ لها إلا بنبذ العقائد الدينية، **فإن أوروبا وأمريكا وجميع الأمم المنسوبة إليها باقية على نصرانيتها تمامًا لم يتغير شيء من صبغتها المسيحية**، بل لم يتغير شيء من عقائدها الكنسية التي كانت عليها من قرون(٣).

(١) محمد جميل بيهم: «العرب والترك» (ص١٧٨-١٧٩).
(٢) «حاضر العالم الإسلامي» (جـ٣) (ص٣٥٩).
(٣) «حاضر العالم الإسلامي» (جـ٣) (ص٣٥٩).

ثم أخذ يعرض لواقع الحكومات الأوروبية واحدة تلو أخرى، موضحًا صلة كل منها بالدين:

في إنجلترا عرض للمناقشات التي ثارت في مجلس اللوردات الإنجليزي ومجلس البرلمان الإنجليزي من أجل استحالة الخبز والخمر بتقديس القسيس إلى جسد المسيح ودمه، فإنه لم يعلم مسألة أخذت من الأهمية في إنجلترا كما أخذته هذه المسألة، حتى إن المرضى من اللوردات حضروا جلسة هذه المسألة محمولين على الأسرَّة![(١)].

ثم يقول: (فأنت ترى مسألة دينية صرفة كهذه قد كانت مدار جميع المناقشات في مجلس الشيوخ والنواب في أعظم دولة أوروبية وأعلاها كعبًا في المدنية، وترى أيضًا أن ملك هذه الدولة هو نفسه رئيس كنيستها، وهو الذي يُدْعَى له على منابر كنائسها بموجب دستور إيمانها، كما يُدعَى للخليفة على منابر الإسلام. بل الدعاء للخلفاء والملوك في المساجد لم يتفق على وجوبه جميع مجتهدي الإسلام. وأما الدعاء لملك الإنجليز في الكنائس، فقد اتفقت عليه شيوخ الأمة الإنجليزية ونوّابها، فهذا الذي يسمونه بفصل الدين عن السياسة ويزعمون أن أوروبا اتخذته قاعدة أساسية لسياستها، لا جرم أن هذا تضليل للأذهان وبهتان ما وراءه بهتان)[(٢)].

وفرنسا -وإن كانت حكومتها ذات صبغة لا دينية في القانون- فإنها تظهر في كل فرصة بمظهر ديني مسيحي لا يجد القائل فيه مقالًا، ومنها: إقامة مراسم دينية في فرنسا وفي سفاراتها بالخارج لمناسبة موت قائدين، وأقامت الحكومة الفرنسية حفلة دينية في إحدى الكنائس شكرًا لله على انتصار الجيش الفرنسي في المغرب.. إلى غير ذلك من المظاهر الدينية التي تقوم بها الحكومة الفرنسية، والتي شهد فيها شكيب أرسلان بنفسه في سوريا أيضًا ما لا مجال فيه للمراء[(٣)].

(١) نفسه (ص٣٥٥).
(٢) نفسه (ص٣٥٦-٣٥٧).
(٣) نفسه (ص٣٥٤).

ثم يضيف أنه لولا النعرة المسيحية ما كانت الحكومة الفرنسية تعضد الآباء البيض والفرنسيسكان وسائر المبشرين الجائلين في الجزائر وتونس والصحراء والسودان الغربي وتسّهل لهم عقبات تنصير الأمم الإسلامية وغيرها... وهذه القضية البربرية فهي مظهر من مظاهر فرنسا المسيحية (فكيف تكون فرنسا الرسمية قد خلعت عنها الرداء الكاثوليكي؟ وكيف يسوغ في الأذهان قولٌ ينفيه ظاهر الحال؟!)[١].

وبلجيكا جعلتْ في برنامج حكومتها الرسمي العمل لتنصير زنوج مستعمرتها الكونغو. وإيطاليا صديقة تركيا، جمعتْ ألوفًا من أطفال عرب طرابلس أخذتهم من بين أيدي والديهم بالقوة وحملتهم إلى إيطاليا لأجل تربيتهم في الديانة الكاثوليكية[٢].

وعندما ضبطت حكومة ألمانيا نشرات شيوعية تتضمن دعاية لهدم الدين المسيحي قام أحد رؤساء ألمانيا حينذاك معلنًا: (أن الثقافة الألمانية مبنيّة على النصرانية)، مع العلم بأنه قبل الحرب العامة كان إمبراطور ألمانيا وملك بروسية هو الرئيس الرسمي للكنيسة اللوثرية، كما أن ملك إنجلترا حينذاك هو الرئيس الرسمي للكنيسة الأنجاليكانية[٣].

والملاحظ لأحوال أوروبا يجد ملوكها ورؤساء جمهورياتها، وكذلك أمريكا لا يدعون فرصة لتعزيز المبدأ المسيحي والتصريح على الملأ بالعمل في سبيله إلا انتهزوها[٤].

وأما عون الدول الأوروبية للرسالات التبشيرية بالدين المسيحي، فهذا موضوع ذوبال وطويل الأذيال[٥].

---

(١) نفسه (ص٣٥٤).

(٢) نفسه (ص٣٥٤).

(٣) نفسه (ص٣٥٥-٣٥٧).

(٤) نفسه (ص٣٥٥-٣٥٧).

(٥) ويوصى بقراءة كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) تأليف شاتليه رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي، وترجمة محب الدين الخطيب واليافي.

وخلاصة القول أن فصل الدين عن السياسة لم يكن معناه في أوروبا إهمال الدين ولا تجريد الحكومات من صبغته؛ إذ إن الحكومات إنما هي ممثلة للشعوب، فكما تكون الشعوب تكون الحكومات، **وما دامت شعوب أوروبا وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولًا واحدًا.**

وليس في الدنيا -كما قال أحد كتّاب فرنسا المشهورين- وهو شارل موارس سوى ثلاث حكومات تناهض الدين باطنًا وظاهرًا، وهي:

١- الشيوعيون في روسيا وهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين في بلد أهلها ١٤٢ مليونًا كلهم متديّنون، وهم يعلمون أنه إن عادت الكنيسة الأرثوذكسية إلى الظهور كان لابد من إعادة الحكم القيصري أو تأسيس حكومة جمهورية مسيحية، فلا تبقي منهم ولا تذر وستثأر من الشيوعيين عن كل ما سفكوه من الدماء التي أسالوها أنهارًا.

٢- وأما المكسيك، فإن أحبار الكثلكة كان لهم فيها الكلمة العليا، وكانوا مستبدين فوقع الخصام بينهم وبين رجال الحكومة، واشتد إلى أن تحولت الحكومة نفسها إلى عدو لدود للديانة. وهذا أمر لا يلبث أن يزوال ويعود الدين هناك كما في سائر البلاد الأمريكية.

٣- وأما في أنقره فإن أتاتورك يعلم أن المبدأ الديني في تركيا هو والسلطنة توأمان، فهو يعمل لتوهينه اتقاء رجوع آل عثمان إلى السلطنة والقضاء على الجمهورية التي هو الألف والياء فيها، فهو يعمل لتوهين مبدأ إن عزّ وتغلّب (كان فيه سقوطه وسقوط الحزب الذي يرأسه في شر مستطير، ويوم عبوس قمطرير)[1].

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن فصل الدين عن السياسة هو فصل إداري كما هناك فواصل في سائر فروع الإدارة بعضها عن بعض، وأنه ليس من المعقول أن الدولة

---

(١) نفسه (٣٥٨).

الراقية لا تكترث لأمور الدين، وهو الذي عليه يحيا ويموت السواد الأعظم من رعاياها. فالدولة التي لا تهتم بأمور رعاياها الدينية تكون جاهلةً معنى السياسة بالمرة، وينبغي أن نفهم أن هذا الفصل من الناحية الإدارية البحتة لا يعني أن الدولة أهملت تعزيز ديانة قومها[١].

كذلك يستند إلى أقوال كلٍّ من لوثر وكلفن وهما المصلحان المسيحيان، وسبب وجود البروتستانتية في العالم؛ إذ يقول الأول: (إن الدولة المسيحية رأسها هو الله. فلأجل أن يكون الإنسان تابعًا لهذه الدولة، ينبغي له أن يقم الإيمان بعدم الحيد عن خِطَّةِ الإنجيل وبالمواظبة على إقامة الشعائر المسيحية ويتناول القربان أربع مرات في العام؛ وذلك لأن الاشتراك في المائدة الإلهية هو عبادة لله رأس الدولة المسيحية، وليسوع المسيح رأس الكنيسة. فهاتان السلطتان الدنيوية والروحية باتحادهما من شأنهما تنفيذ إرادة الباري تعالى. **فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص إن لزم. كما أن السلطة الروحية لها حق الوعظ وحق التحريم والتحليل، وكلا نوعي الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يُبْنَى على الكتاب المقدس**)[٢].

ويقول كلفن: (إن الملك الذي لا ينشد مجد الله فليس بالَّذِي يقيم مملكة، وإنما هو يُقِيم لصوصية. وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رعاة الدين، ويوطد بالاتفاق معهم نظام الدولة، لا النظام المدني فقط، بل النظام الديني أيضًا والنظام الأدبي والاجتماعي، وعليه أن يعاقب اللصوص والفسّاق والمومسات والقتلة والقاذفين بالدين وأتباع البابا الذين يشهدون القداس، وأن يحرق بالنار السحرة، ويجزي بالغرامة من يشتغلون يوم الأحد ومن يهملون إقامة الشعائر الدينية... إلخ)[٣].

---

(١) نفسه (٣٥٧).

(٢) نفسه (ص٣٦٣-٣٦٤).

(٣) نفسه (ص٣٦٤).

وأخيرًا علق شكيب أرسلان على ذلك بقوله: (فروح هذا البروجرام هو الساري إلى هذه الساعة في الحكومات البروتستانتية، ولن تجد الحكومة الكمالية في تركيا، ولا مقلّدوها في البلاد العربية جوابًا واحدًا مقنعًا على هذه القضايا التي قدمناها. وما بعد الحق إلا الضلال)[١].

ويُلاحظ أنه عُنِي عناية خاصة بتنفيذ مزاعم أتاتورك وحزبه بالفصل بين الدين والسياسة وأطلق عليها ساخرًا اسم «الأغلوطة» متهمًا إياهم بالعمل على سلخ الشعب التركي من العقيدة الإسلامية! وروّجوا تضليلًا وكذبًا أن انسلاخ الحكومات الأوروبية من الدين المسيحي هو سبب نهضتها، وعلى تركيا إن أرادت الفلاح فعليها أن تفصل بين الدين والسياسة!.. كذلك كان شكيب أرسلان واعيًا إلى أثر هذه الأغلوطة في بلاد المسلمين، فقال في رسالته الموجهة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بمصر: (وليس هذا منحصرًا في الترك وفي الفئة الطورانية منهم، بل عندنا نحن من هذا النحل فسيل في مصر والشام وغيرهما»[٢]. كذلك ناقش شكيب أرسلان باقي أوهام الكماليين، وهي:

أولًا: النظر السطحي لقشور الحضارة الغربية كما بدى أمامهم جذابًا مغريًا بتقليده، دون الإحاطة الكافية بتدهورها في واقعها المعاصر الذي صوّره المؤرخ البريطاني توبيني أدق تصويره وأصوبه لخبرته بتاريخ الحضارات ومنها: الغربية، فكشف عن تخلخل بنيتها وعدّد أسباب انحدارها؛ لأنها بناءً على دراسته دخلت من أوائل القرن الماضي في مرحلة التوسع والسيطرة على البشر جعلت منها ما يسميه توبيني بالحضارة العالمية أو الجماعة العالمية لابتلاعها لكل ما استطاعت ابتلاعه من عناصر الحضارة المعاصرة، فدخلت في تركيبها اليوم عقائد غير مسيحية مثل: البوذية والهندوكية، وظواهر حضارية غير غربية

---

(١) نفسه (ص٣٦٤).

(٢) مصطفى صادق الرافعي: «تحت راية القرآن» (ص٣٨) المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

مثل: الموسيقى الزنجية، وهي عناصر من حضارة البدائيين.. وأخذوا من الهند والصين أشياء مثل: اليوجا والكراتيه، وكل ذلك ناشئ من أبنية مجتمعهم تخلخلت وفقدت تماسكها الأول، فانتشر الإلحاد وانعدم الحياء حتى أصبح كشف المرأة عن جسدها كله أمرًا عاديًا لا يستنكره الكثيرون، وانتشرت المخدرات ومذهبات الوعي الكيميائية التي يتعاطاها الكثيرون وخاصة من الشباب والشابات هربًا من الواقع.. وفقدان الصغار احترامهم للكبار، وزالت هيبة الرجل من عين المرأة، وفقدت المرأة حياءها الذي هو أكبر أسلحتها، وهكذا تجاوزت واختلطت في تلك الحضارة الغربية اليوم عناصر شتى غريبة عن طبيعة الحضارة الغربية، ففسدت كما فسدت طبيعة الحضارة الرومانية من قبل نتيجة لما يسميه توبيني المخالطة الجنسية غير المشروعة، ويريدبها تخلخل بناء حضارة من الحضارات وبداية تدهورها نتيجة لدخول عناصر حضارية غريبة عنها وتزاوجها بها زواجًا غير طبيعي أي غير شرعي.. وفي هذه الحالة: حالة تقلقل قواعد المجتمع نتيجة لفساد البنية ذاتها نجد المسئوليين عن الجماعة الغربية يبحثون عن وسائل عنيفة لتأمين مجتمعهم من الضياع.

وما دامت المناعة الداخلية للمجتمع قد ضَعُفَتْ، ولم تَعُدْ كافية للحفاظ على المجتمع، فإن حكومات الغرب لجأت نتيجة لذلك إلى استخدام أساليب العنف، للحيلولة بين مجتمعهم والانفراط. وإذا كان الرومان عندما دخلت حضارتهم في دور العالمية قد حوّلت دولتهم إلى استبدادية عسكرية غاشمة، فكذلك تُحاول القوى الكبرى اليوم المحافظة على أنفسها بأسلحة مخزية، كما نرى في الأسلحة غير التقليدية والأسلحة الذرية، وهذه كلها ظواهر قوة خطرة وعلائم مرض اجتماعي حضاري، تنشأ عن عوامل ضعف وخوف، وعندما اشتد الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية، أو الشيوعية والرأسمالية، وكلتاهما فقدت كل مقومات المجتمع القديم، أو انهارت بنيتها.

فالكتلة الشيوعية -مثلًا- أنشأت لنفسها بنية جديدة قائمة على القوة العسكرية الغاشمة التي تتستر وراء الفكر المادي الماركسي، أما الكتلة الغربية فهي كتلة الحضارة الغربية التي دخلت بالفعل دور انحلالها وتفككت بنيتها، ولم تعد لها مناعة داخلية فاتجهت إلى الحماية الخارجية عن طريق التسلّح والإنفاق في غير حساب على غزو الفضاء وما إلى ذلك مما يدل في الحقيقة أن حضارة الغرب التي كانت قائمة قد تضعضعت بنيتها التقليدية وبدلًا من أن تقوم على الأخلاقيات فهي تقوم اليوم على قوة المال وقوة السلاح، وهي في الحقيقة خاوية الروح، وأبسط الظواهر التي تدلُّ على ذلك هو زوال الأمن، ففي بلاد الغرب الكبرى لا يأمن الإنسان على ماله أو نفسه، ولا تأمن امرأة على نفسها، والمعتدي على النفس والمال والمعتدي على العفاف لا يَلْقَى جزاءه؛ لأن إطارات المجتمع قد تداعت ولم يحفظها إلا المال والبوليس والقوة العسكرية[1].

لم يتنبّه أتاتورك وحزبه إلى هذه الأمور إطلاقًا، وتعليل ذلك في رأي الدكتور حسين مؤنس أنه لا يتنبّه لها إلا المؤرخ الواعي لحركة التاريخ وديناميكيته، ولا يتنبه لها السياسي؛ لأن السياسي مشغول بمشاغل الساعة التي هو فيها، والأزمات التي تظهر أمامه ومن حوله.

أما المؤرخ فهو راصد حركة المجتمع والتاريخ، وهو المسئول في النهاية عن مسار أمّته ومصير شعبه، وقد ظهر عجز الفلسفة عن مداواة أمراض البشرية أو إنقاذ الحضارة. وكذلك وقف علم الاجتماع عند حد محدود في بحثه عن أدواء المجتمع، ومثال ذلك عالم الاجتماع الكبير ليفي شتراوس، فنجد عنده وصفًا أو تحليلًا، ولكن لا نجد عنده حلا[2].

---

(١) د. حسين مؤنس: «التاريخ والمؤرخون -دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ» (ص١٤٤-١٤٦) دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

(٢) د. حسين مؤنس: «التاريخ والمؤرخون -دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ» (ص١٤٤-١٤٦) دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

وقد ختم توييني نقده لحضارات الغرب في عبارة مختصرة ولكنها جامعة؛ إذ قال: «إن حضارات الغرب بطبيعتها ومراميها والروح التي تسودها، لابد أن تؤدي إلى فساد الإنسان؛ لأن حضارتنا تفسد الأرض والبيئة، وتسمّم الجو وتحرم الإنسان من عناصر قوته الكبرى، وهي الحرية وسلامة الحياة وصحة البدن وصفاء النفس وحسن المقاصد[1].

ولكن لم يتنبه أتاتورك وأعوانه -كما قلنا- إلى هذا الوصف الواقعي من فيلسوف مؤرخ له وزنه وقيمته بين مؤرخي العصر جميعًا.

ونحن نقدّمه بدورنا كتحذير للتغريبيين من الذين مازالوا مفتونين بحضارة الغرب ولم يفيقوا من سباتهم بعد!

ثانيًا: تمسُّك الشعب التركي بإيمانه:

تأسست الجمهورية التركية أول ما أسسّت على عداوة وخصومة شديدة للإسلام، وجعلت (العلمنة) الترس الوحيد الذي يحتمي خلفه جميع من له غرض على الإسلام والمسلمين من الشيوعيين والشيعة والدونمة اليهود والصليبيين الحاقدين.. ولا شغل لهم إلا (الهجوم الوقح على الإسلام وانتهاك قداسته وتشويه سمعته وتلويث كرامته)[2].

يقول د. إسماعيل المنصور بمقال كتبه في أكتوبر ٢٠٠١م: (يمرّ الإسلام والمسلمون في تركيا الكمالية في هذه الأعوام الأخيرة، ومنذ تسلم أربكان الحكم في ١٩٩٦م لمدة قصيرة لا تزيد على أحد عشر شهرًا بأزمات ومصاعب تقشّعر منه الجلود وتشمئز منه النفوس ويعانون من الحكومة التركية العلمانية ضغوطًا ومطاردات وملاحقات وتشريدات وتعذيبات لم يشهدها التاريخ أبدًا، لا في أيام هولاكو، ولا في أيام أتاتورك

(١) نفسه (ص٢٠٣).

(٢) د. إسماعيل المنصور مقال بعنوان (تركيا الكمالية تشترك مع الصهاينة في العداء للإسلام) (ص٩٥) مجلة البيان -تصدر عن المنتدى الإسلامي -رجب ١٤٢٢هـ-أكتوبر ٢٠٠١م.

وعصمت إينونو اللذين كُلفا في معاهدة لوزان من طرف سادتهما الغربيين بالقضاء على الإسلام قضاءً باتًّا)[١].

وتنفيذًا لهذا الغرض حملوا على تحريف العقائد الإسلامية، وهدم القيم الأخلاقية وإشاعة الفجور وتشجيع الانحلال في صفوف الشباب والشابات، واغتيال علماء المسلمين المخلصين المعارضين لهم وقتل آلاف الأبرياء من الشباب المتدينين، مع ملاحقة رجال الأمن والمخابرات السرية لجميع النشاطات الإسلامية، ومنع المواعظ في المساجد والجوامع إلا في مسجد واحد فقط يبث منه عن طريق الراديو إلى الجوامع الأخرى، مع محاولة منع الأذان أيضًا إلا من مركز واحد يبث فيه إلى المساجد الأخرى، وقد تمت ترجمته إلى التركية![٢].

ومع كل هذا الذي ظهر لنا وما خفي كان أعظم، هل أفلحوا ونجحوا؟

إن الإجابة بالنفي القاطع بل إنهم خسروا خسرانًا مبينًا، وهو ما يتضح لكل من قام بدراسة أحوال الشعب التركي منذ الثورة الكمالية على الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م حتى عصر الصحوة الإسلامية في الوقت الحالي، فهناك إجماع على أن الشعب التركي بالرغم من كل ما عاناه من التضييق والظلم والقتل، احتفظ بالإسلام في قلبه وضمّه إليه كما تضم الأم الحنون ابنها إلى صدرها، كما حافظ أيضًا على شعائر الإسلام من الصلاة والصوم وأعمال الخير والبر سرًّا بعيدًا عن أعين حكومة أتاتورك المستبدة![٣].

(١) نفسه (ص٩٤).. وكانت المؤسسة العسكرية ترى أن مجرد وصول أربكان للسلطة كارثة على الجمهورية الكمالية؛ لذلك قادت من وراء الستار حملة إعلامية ضد حزب الرفاه، وضغطوا على النواب للانسحاب من الائتلاف مما اضطر أربكان إلى الاستقالة في يونيو ١٩٩٧م. د. علاء بكر «تركيا التي لا نعرفها» (ص٥٤-٥٥).

(٢) المقال السابق باختصار شديد.

(٣) وطبقًا للحكمة القائلة: «إن الحق ما اعترف به العدو» صرح رئيس حزب الصراط المستقيم التركي في أواسط الثمانينيات «إننا لو أفسحنا المجال للمسلمين وأعطيناهم الحرية الدينية لخرجوا أيام الجمعة من المساجد يرفعون المصاحف طلبًا للشريعة» المقال السابق (ص٩٥).

تقول الكاتبة إيفا نجيليا: (إن خطأ الكمالية هو أنها تتجاهل أو ترفض واحدة من الخصائص الأساسية المميزة للثقافة التركية، ولذلك لا يقلل حزب العدالة والتنمية من أهمية الاعتراف بالإسلام كجزءٍ لا يتجزأ من عملية المداواة وتضميد الجراح ولم يؤدِ الإنكار المؤسسي لتراث تركيا الإسلامي من جانب الدولة الكمالية إلى رفض الدين من جانب الأتراك أنفسهم، فإنه على الرغم من علمنة الحياة السياسية... والمشروع الكمالي الفاشي الذي أصاب المجتمع التركي بصدمة نفسية عميقة، إلا أن هناك تصاعدًا في الشعور الديني بين أفراد الشعب كتركة موروثة من الماضي العثماني. إلا أن المرء يشعر بأن الاهتمام المتجدد بالماضي العثماني والإسلام عمومًا لا يمكن عزوه -إلى- أو تبريره فقط على أساس نمو العاطفة الدينية في تركيا أو ازدياد الإيمان في نفوس الشعب التركي، بل يبدو بالأحرى أنه مسألة أصالة وهوية، فالتيار العام في تركيا يشجع حركة اجتماعية تسعى لإعادة الارتباط بهويةٍ تركيَّةٍ حقيقيةٍ واستعادتها)[١].

ويقول شريف ماردين، وهو أحد علماء الاجتماع البارزين في تركيا: (إنّ الإسلام قدم للمسلمين الأتراك أنماطًا ليتّبعوها في المجالات الثقافية والدينية والاجتماعية، ولذلك فقد كان ولا يزال شديد الأهمية بالنسبة لهم[٢].. ثم يضيف إلى ذلك التعليل المنطقي لما حدث، فمن رأيه أن الثقافة العلمانية الكمالية تركت جيوب الثقافة التركية هذه خاوية، بمعنى أنها تكوّنت فقط من وصايا ونصائح عامة باتخاذ الغرب مثلًا وقدوة، ولم تقدم شيئًا مرادفًا ومساويًا للغة الإسلامية المستخدمة في نطاقٍ واسعٍ، ولم تفهم إلى أي مدى كانت تكوينات المكان -الزمان القائمة متجذّرة، ولم يكن لديها استراتيجيات تقدمها للجماهير)[٣].

---

(١) إيفا نجيليا أكسيارليس: «الإسلام السياسي والدولة العلمانية في تركيا» (ص١٢٨).
(٢) نفسه (ص١٢٥).
(٣) نفسه (ص١٢٦).

ويؤكد د. علاء بكر ظاهرة (شدة العاطفة الدينية عند الشعب التركي، وتمسكه بإسلامه، رغم كل الجهود الكبيرة التي بذلتها النخبة التركية العلمانية المتشددة والمؤيدة بقوة الجيش العسكرية -المفرطة أحيانًا- طوال عقود عديدة لمنع المظاهر الإسلامية وتربية النشء بعيدًا عن الإسلام، وقطع صلتهم به، والتجاهل المتعمد للهوية العثمانية لتركيا الإسلامية، وتاريخها المجيد في نشر الإسلام، والدفاع عنه في أوروبا وخارجها لقرون عديدة)[١].

وقد لخص الأستاذ العقاد ما حدث في تركيا منذ أتاتورك حينما قيل إن تركيا تعود إلى الدين بعد ثورته على تقاليدها الدينية، فكان تعليقه (ولكن تركيا في الواقع لم تفارق الدين حتى يقال إنها تعود إليه، وكل ما حدث إنما هو تغيير في مراسم الحكم، فلم يتغلغل قط إلى ضمير الأمة)[٢].

وهو يعلل ذلك بأن العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب إبان النشأة والظهور، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين... وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال الشدة والسطوة، ولاسيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون.

وضرب على ذلك أمثلة من التاريخ.. إذ انقضى القرن التاسع عشر كله والأمم الإسلامية مخذولة متخاذلة والدول المستعمرة غالبة متحكمة، وخيّل إلى الناظرين أن الحاضر والمستقبل جميعًا للاستعمار.. ثم انتهى القرن التاسع عشر والإسلام تبرز له دولتان في آسيا، عدد المسلمين في كل منهما يزيد على سبعين مليونًا حينذاك، وهما دولتا إندونيسيا وباكستان: إن قوة الصمود العجيبة هنا كقوة الغلبة هناك[٣].

---

(١) د. علاء بكر: «تركيا التي لا نعرفها.. الانقلابات العسكرية في الجمهورية التركية» (ص٧)، دار الخلفاء الراشدين بالإسكندرية ١٤٣٨هـ-٢٠١٦م.

(٢) عباس محمود العقاد: «الإسلام في القرن العشرين» (ص١٤٣)، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٣م.

(٣) نفسه (ص١٢).

ولكن فات الأستاذ العقاد الاستدلال بالآيات من القرآن الكريم المتصلة بتلك القضية، منها قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح:٢٨].

وتفسير الآية: قد أظهره الله علمًا وحجة وبيانًا على كل دين، كما أظهره قوة ونصرًا وتأييدًا، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمّته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم دائم لا يقدر أحدٌ أن يزيله، كما زال مُلك اليهود، وزال مُلك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

قال ابن جرير: «والله معلن الحق، ومظهر دينه، وناصر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من عاداه، فذلك إتمام نوره»، فـ (نور الله) استعارة تصريحية لدينه، و(الإطفاء) ترشيح، أو التركيب استعارة تمثيلية، مثلت حالهم في اجتهادهم في إبطال الحق، كحال من ينفخ في نور الشمس بِفِيهِ ليطفئه تهكمًا وسخرية بهم.

ثالثًا: جهلهم بمرونة الشريعة الإسلامية واستيعابها لقضايا العصر:

عرض الأمير شكيب أرسلان بأمانة لأقوال شيعة أتاتورك التي زعموا بها أن سبب تقهقر المسلمين هو الشريعة الإسلامية، وهي من الأقوال التي تلقفوها من الأوروبيين دون روية ولا إمعان نظر، ومنهم من يعلم سر المسألة ولكنه يتجاهل ذلك عمدًا كراهية منه للإسلام وعملًا لهدمه.

(١) القاسمي: «محاسن التأويل» (جـ١٥) (ص٥٤٣١) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط عيسى الحلبي ١٣٢٧هـ.

وفي رأي أولئك أنه لا ضرورة للأمم الإسلامية بزعمهم إذا أرادت الرقي في معارج الفلاح من أن تنبذ هذه الشريعة القديمة البالية التي أصبحت لا تصلح لعصر كعصرنا هذا، لا مفرّ لها من الأخذ بشرائع وقوانين إنما صَلُحَتْ لهذا العصر؛ لكونها وضعت لهذا العصر، ويظنون أنهم أتوا بالقول الفصل، وهي (نحن لا نريد شرعًا فيه قال وقالوا ولكن شرعًا فيه قلنا ونقول)... وطاب لمقلدة الأتراك من أهل مصر وغيرهم أن يرددوا ما يردده الكماليون بدون تأمل في حقائق الأمور، ولا في حقائق تلك الألفاظ التي يلوكونها[١].

وقد بدأ الأمير شكيب أرسلان الرد عليهم بقوله: «وحقيقة الحال أنه ليس في الدنيا شرع ولا قانون يخلو من (قال)، و(قالوا)، ولا يستقي في منابعه إلى قواعد وأصول وأوضاع وأقوال سبقت منذ مئين السنين وربما من آلاف من السنين»[٢]. وقد قدّم الحجج التالية:

أولًا: عندما أخذ الأتراك بقانون سويسرا المدني، وبقانون الجزاء الإيطالي أخذوا بقوانين بعيدة عن عقليتهم وذوقهم ومنازعهم بعد المشرق عن المغرب، وأدّى ذلك إلى تحيّر في القضاء والصعوبة في التطبيق.. وبقيتْ قضاة تركيا مدة طويلة لا تكاد تفهم من هذا القانون شيئًا، وما باشروا تعديل القانون السويسري الذي اتخذوه قانونًا مدنيًا إلا بعد اتخاذه ببضع سنوات، وأما قانون العقوبات الإيطالي الذي اتخذوه للأمور الجزائية، فإن إيطاليا نفسها عادت فأدخلتْ فيه تعديلات توخّت فيه زيادة المطابقة بينه وبين مبادئ الكنيسة[٣].

---

(١) نفسه (ص٣٤٣-٣٤٤)، وقد وُصِفَ هذا الزعم الكاذب بأنه خرافة.

(٢) نفسه (ص٣٤٤).

(٣) نفسه (ص٣٤٦) وقال: (وقد بلغني أنهم اضطروا فيما بعد لتعديلات كثيرة في هذه القوانين بعد أن كانوا قبلوها على علّاتها).

ثانيًا: استند إلى رأي الكاتب الفرنسي «موريس برنو» الذي كان من أشدّ الناس ابتهاجًا بخلع تركيا للتقاليد والقواعد الإسلامية، ومع ذلك فقد صَرَّحَ بكتابه المسمَّى في (آسيا الإسلامية) بأن زعم الكماليين أنهم أخذوا بقوانين لا تستند على أقوال ماضية، واتهم **أولئك بالجهل**، فقال: «فهل يجهل أتاتورك أن هذا القانون ناشئ عن منبعين أحدهما روماني والآخر مسيحي؟ وهل يجهل الدور الذي تلعبه في هذه القوانين العادات القديمة والعرف الجاري الذي يريد هو إلغاءه؟!».

وهكذا، فإن «موريس برنو» لم يقدر أن يهضم هذه السفسطة التي معناها أن القوانين العصرية لا يجوز أن يكون فيها مبادئ وأصول قديمة، وأن هذا القانون المدني السويسري التي اتخذته تركيا لنفسها يتضمن أصولًا وقواعد ترجع إلى التشريع الروماني القديم، فهي أقدم عهدًا من الفقه الإسلامي الذي يزعم أتاتورك أنه ألغاه بسبب توغله في القدم[١].

ثالثًا: قانون العقوبات الإيطالي فإنه قانون روماني مسيحي وإيطالي كاثوليكي، وفيه من الأوضاع اللاتينية القديمة والأعراف المسيحية الموروثة ما لا ينكره إلا مكابر، فكيف يريد أتاتورك سير أمته على نهج عصري محض لا مدخل فيه لقال وقالوا، ولا لرأي عتيق؟ ولقد نسي أن القوانين ينبغي أن تكون لا وفقًا للزمان فقط بل للمكان أيضًا، وإن بين المكانين تركيا وسويسرا، وتركيا وإيطاليا بُعْدًا شاسعًا في المشرب والمذهب والعرف والعادة. وناهيك أن جميع سويسرا بلاد مرتبطة بعضها ببعض وسكانها لا يبلغون أربعة ملايين، وهم لا يزالون غير متفقين على قانون واحد بل تجد في المقاطعة الواحدة قانونًا غير المقاطعة الثانية، وذلك بحجة اختلاف الأعراف والعادات بين المقاطعتين.

(١) نفسه (ص٣٤٥).

رابعًا: ليس في أوروبا قانون غير متأثر بالتعليم المسيحي والتشريع الروماني، وعليه يكون من الخطأ المبين الاعتقاد بأن القوانين الأوروبية هي كلها من باب التشريع الإنساني الصرف، وأنه لا مدخل فيها للمبادئ الدينية، ويكون تحكمًا القول بأن الشريعة الإسلامية وحدها هي التي جمعت بين أحكام الدنيا والآخرة! **ومن طالع الشرائع الإنسانية عرف أنها بأجمعها سماوية بشرية، أي أنها راجعة إلى أصول دينية واجتهادات بشرية معلقة عليها، وهذه الاجتهادات يراعي فيها المشرعون مصلحة الأمة**[1].

خامسًا: بلغ المسلمون في باب الاجتهاد ما لم تبلغه أمة قبلهم ولا بعدهم، وقد عظم على من تضيق صدورهم بالإسلام أن يكون فقهاء الإسلام بلغوا من الإحاطة بالنوازل البشرية وتبيين وجوه أحكامها ما بلغوه، فزعموا أن أئمة الإسلام إنما أخذوا ما أتوا به عن الفقه الروماني وهذا من أغرب المزاعم في الباطل، وقد فنّد العلامة صاوا باشا الرومي هذا الزعم الباطل وأثبت أن أئمة الإسلام إنما فرّعوا على أصلين، هما: القرآن والحديث، ولكنهم أضافوا إليهما الإجماع والقياس، فتوسعوا في الفقه ماندر أن يكون تيسر لغيرهم، وكل من زعم أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا يكون اطلع على شيء من تاريخ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ولا التابعين. فالشرع الإسلامي هو شرع سماوي باعتبار الأصل وتشريع إنساني باعتبار الاجتهاد والتفريع.

هذا، وقد ألف فائز بك الخوري من أدباء المسيحين السوريين والحقوقيين البارعين تأليفًا في الفقه الروماني والفقه الإسلامي، وأثبت عدم اشتقاق هذا من ذاك[2].

سادسًا: توسع الأمير شكيب أرسلان في بيان أن مصلحة الأمة هي المحور الذي يدور عليه الاجتهاد، وأينما تكون المصلحة فثمّ دين الله، والذي يعلم أن المذاهب الأربعة

---

(١) نفسه (ص٣٤٦).

(٢) نفسه (ص٣٤٧-٣٤٨).

الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي قد أجازت العمل بالمصلحة المرسلة، يدرك من مرونة الشرع الإسلامي، ومن سعة مذاهبه، ومن تنزله على كل الحوادث، ومن مناسبته لجميع الأمكنة والأزمنة ما لا يدركه الجاهل، ولا يريد أن يدركه المتعنت. وليس بصحيح أن المسلمين لا يعملون إلا بنص من الكتاب والسنة، بل هم يعملون بالنص ما وجدوه، فإن لم يجدوه عملوا بالقياس وما منع علماء الإسلام العمل بالرأي لا في القديم ولا في الحديث، وغاية ما في الأمر أنهم اشترطوا في الرأي بلوغ مرتبة من العلم يصحُّ بها إعطاء الرأي، وهذا لا يقدر أحد أن يقول فيه شيئًا؛ لأن الاجتهاد له شروط لا يصح بدونها، وليس لكل إنسان أن يجتهد وأن يستنبط أحكامًا شرعية، وهذه مرتبة عالية جدًّا لا يرقاها إلا من أحاطوا بالكتاب والسنة، ووصلوا إلى الأمد الأقصى من الرواية والدراية ثم عرفوا من أحوال المجتمع البشري ما تتجلى لهم به وجه المصالح، ويظهر مكان سد الذريعة[(١)].

وأما الرأي نفسه لمن قدر عليه فلم يمنعه أحد، وكل رأي اتفقت عليه الأمة أجازوه، وقالوا: إن الأمة لا تتفق إلا على صواب، واستدلوا على جواز العمل برأي الأمة بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، وقال ابن قيم الجوزية في «إعلام الموقعين»: «كانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس فيها عنده نص عن الله تعالى ولا عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع لها أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم جعلها شورى بينهم».

وعن شريح القاضي قال: قال لي عمر بن الخطاب: «اقضِ بما استبان لك من قضاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك

(١) نفسه (ص٣٤٨-٣٤٩).

واستشر أهل العلم والصلاح، وكتب عمر إلى شريح: (إذا حضرك أمر لابد منه فانظر في كتاب الله فاقضِ به، فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل، فإن لم يكن فأنت بالخيار فإن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك، وإن شئت أن تؤامرني ولا أرى مؤامرتك إياي إلا خيرًا لك)(١).

ولما بعث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ بن جبل واليًا على اليمن، قال لمعاذ: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسُنَّة رسول الله، قال: فإن لم يكن بسنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو، ففرح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله هذا، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»(٢).

وبعد أن عرض شكيب أرسلان هذه الحجج الناصعة والأدلة القاطعة، علل حكاية جمود الشرع الإسلامي الكاذبة بأنها من جملة الدعايات التي يبثها أعداء الإسلام ورواد الاستعمار الأوروبي لإدخال الشبه على الأجيال الشابة من المسلمين حتى تكره إليهم هذا الشرع وتحبب إليهم المروق منه، ولمعرفة أوروبا أنه ما دام الشرع المحمدي هو مدار العمل عند المسلمين، فإنهم يرون خضوعهم للأجانب ذنبًا لا يغفره الله لهم إلا بالاستقلال التام، وعارًا لا يمحوه إلا طرد الأجنبي المتغلب من المستعمرات التي تغلب فيها عليهم. وأية مصيبة على أوروبا أعظم من هذه؟!(٣).

وبدورنا نختم هذا المبحث، بما قاله الدكتور سيزل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر عالمي ١٩٢٧م: «إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها،

---

(١) نفسه (ص٣٤٩).
(٢) نفسه (ص٣٥٠).
(٣) نفسه.

فإنه على أمّيته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إليه بعد ألفي عام»[(١)].

رابعًا: تاريخ التعليم الديني وصلته بالثقافة الإسلامية المتكاملة:

حَرَمَ الكماليون الشعب التركي من التعليم الديني، وزعموا أن المدارس الفرنسية الأميرية ليس فيها تعليم ديني وأنهم اقتدوا بفرنسا في نظامها التعليمي.

وكنتُ أود الاكتفاء برد الأمير شكيب أرسلان على هذه الفرية الكاذبة.. ولكن إحساسي بثقل الأمانة العلمية دفعني دفعًا إلى عرض القصة كاملةً منذ بدايتها، ومصدري كتاب العلامة الشيخ محمود شاكر بكتابه الفريد في بابه منهجًا وأسلوبًا وكشفًا عن حقائق كبرى غابت عنا طويلًا، فتناول تاريخ الاستعمار الفرنسي الشديد الوطأة على مصر بقيادة نابليون، ومسئولية المستشرقين عن (**الانشطار الثقافي**) في نظامنا التعليمي إلى وقتنا هذا، وروى لنا تاريخ التعليم الديني، وكيف انفصل عن الثقافة الإسلامية المتكاملة[(٢)].

ويرجع تاريخ الفصل بين التعليمين الديني والمدني إلى ما قبل ثورة أتاتورك؛ لأن الواقعة ترجع إلى أحد جرائم الحملة الفرنسية على مصر والدور المخرّب الذي أداه محمد علي خدمةً للاستعمار الفرنسي ثم جاء الاستعمار الإنجليزي في مصر ونصب القسيس (دنلوب) وزيرًا للمعارف، وظَلَّ هدفه الاستراتيجي تطويق الأزهر وتحجيمه تمهيدًا لنسفه إن استطاع!

حقًّا إنها رواية محزنة، ولكن لابد من أن تروى وتعرف، ويعالج آثارها على التعليم لا في مصر وحدها، ولكن في البلاد العربية والإسلامية التي سارت على خطاها ومع

---

(١) علي القاضي: «أضواء على التربية الإسلامية» (ص٥٥) دار الأنصار بالقاهرة ١٤٠٠هـ-١٩٧٩م.

(٢) محمود محمد شاكر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نهاية الكتاب: «وعسى أن أكون قد أدّيت بعض أمانة القلم وبعض أمانة العلم.. وعسى أن أكون قد بلغت مبلغًا يرضي الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اتباع أمره؛ إذ قال: «ألا لا يمنعن رجلًا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه» (ص١٤٩-١٥٠).

هذا المختصر، فإني أضع القضية برمتها بين يدي رجال التربية والتعليم لتقديم العلاج الحاسم، وإلا فلا أمل في تخريج أجيال جديدة، تحرص على هويتها الإسلامية، وتعرف عقيدتها وشريعتها المعرفة الصحيحة، ومن ثمّ تسهم في إحياء حركة نهضة حقيقية تعيد مجد الحضارة الإسلامية. وسنختصر عرض القضية بالفقرات التالية:

أولًا: الهدف الرئيسي لحملة نابليون:

أمدّ الاستشراق الحكومة الفرنسية بخبرته الواسعة المتمادية بأحوال دار الإسلام لتوجيه جيشها لإعداد العدة لاختراقه ووأد (اليقظة) التي تولاها الخمسة الكبار من رجالها، وهم البغدادي في مصر، والجبرتي الكبير في مصر، ومحمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب، والمرتضى الزَّبيدي في مصر، والشوكاني في اليمن، فهذه «النهضة» وهذه «اليقظة» لا يعرفها على حقيقتها، ولا يعرف مغبتها غير الاستشراق[1].

ويقول الشيخ شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «لقد شغلتني قصة وأد «اليقظة» وقضية الخراب والتدمير، وقصة السطو الدنيء، شغلتني عن نذالة هذا السّفاح الصليبي المبير، وما كان من بشاعة سفكه الدماء في القاهرة، وأوامره إلى قواده في الأقاليم أن يوغلوا في سفك دماء «الترك»، أي المسلمين المصريين وأن يتشبهوا به؛ إذ يقتل في القاهرة وحدها كل يوم خمسة أو ستة، ويأمر أن يُطاف برءوسهم في شوارع القاهرة، ويقول: هذه هي الطريقة

(١) نفسه (ص١١٧) و(ص٨٢).

ويقول الدكتور مصطفى عبد الغني: (كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر على تطور حضاري، وتقني على عكس ما هو شائع، وهو مما كشفت عنه عديد من الدراسات التاريخية، يأتي الجبرتي في مقدمتها ويمضي في خط متصل، على سبيل المثال: الدكاترة شفيق غربال، أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى، وعبد العزيز نوار، وغيرهم... وآخرهم. د. عبد الله الغرباوي الذي حصلت أطروحته عن الأزهر في القرن الثامن عشر على درجة الدكتوراه، كلية آداب عين شمس ١٩٧٦، رسالة غير منشورة.
د. مصطفى عبد الغني: «حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية» (ص٥١-٥٩) بمكتبة الأسرة بمصر ٢٠٠١م.

الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح في قصة طويلة فظيعة ليس لها شبيه، هي أفظع من بلايا «جنكيزخان»[(١)].

وتعليل ذلك كله هو ما قام به المستشرقون من اكتشاف هذه اليقظة، وهم حملة هموم المسيحية الشمالية، فتبينوا العواقب الوخيمة المخوّفة من هذه اليقظة، وأنه لابد من معالجتها في مهدها قبل أن يتم تمامها ويستفحل أمرها وتصبح قوة قادرة على الصراع والحركة والانتشار، فإنه إن تم ذلك، فما هو إلا أن تعود الحرب بين الشمال والجنوب جزعة (أي استئناف الحروب الصليبية) وعندئذٍ لا يضمن أحد مغبة الصراع المشتعل بين سلاحين متكافئين، وثقافتين متكاملتين.. فزع الاستشراق لعلمه أن الفرق بيننا وبينهم كان يومئذ خطوة واحدة تُستدرك باليقظة والهمة والصبر والدأب لا أكثر[(٢)].

عندئذٍ وضع نابليون (هذا الفتى الأهوج المحترق مشروعه الذي بينه لخليفته كليبر).

ثانيًا: كيفية تمزيق الثقافة المتكاملة[(٣)]:

كانت هناك وسيلتان للوصول لهذ الغرض:

الأول: جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص من المماليك أو غيرهم وتسفيرهم إلى فرنسا لمدة سنة أو سنتين ليعتادوا على لغتها وتقاليدها، إذا عادوا إلى مصر كانوا حزبًا لفرنسا يُضم إليه غيرهم.

الثانية: استطاع أحد دهاة المستشرقين وهو جومار، بإقناع محمد علي لإرسال البعثات إلى فرنسا، وكانوا بضعة من الشباب الصغار الذي صنعهم جومار على عينه،

---

(١) نفسه (ص١٠٠).

(٢) نفسه (ص١١٧).

(٣) ويصف الثقافة المتكاملة ودورها بقوله: «عاشت فيها الأمة الإسلامية ثلاثة عشر قرنًا في حضارة متكاملة متراحبة مترامية الأطراف، متباينة الدرجات، متنوعة العلوم، قد بلغت في العظمة والجلالة مبلغًا لم تدركه قبلها أمة من الأمم» (ص١٤٢).

ليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يغني من (الثقافة المتكاملة)، واستجاب له محمد علي، وكانت دولته في قبضة القناصل والاستشراق ومشورتهم، وكان جاهلًا لم يتعلم قط، حتى الخط والكتابة لم يتعلمها إلا وهو في الخامسة والأربعين من عمره ١٨١٥م-١٢٢٩هـ[1].

وكانت البعثة الأولى على رأسها رفاعة الطهطاوي شابًّا في الثالثة والعشرين من عمره، سلمه جومار إلى أحد دهاقنة الاستشراق البارون (سلفتردي ساسي) فوقع في أحابيله ومكره وقضى ست سنوات في باريس عاد بعدها حاملًا فكرة إنشاء مدرسة الألسن ١٨٣٦م، أي بعد عودته بخمس سنوات.

وذكر الشيخ محمود شاكر أنها ليست من فكر رفاعة الطهطاوي، ولكنها ثمرة من ثمار الاستشراق.

ونقل رأي المؤرخ الرافعي في هذه المدرسة؛ إذ وصفها بأنها عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية، ثم الإيطالية والإنجليزية وعلوم التاريخ والجغرافية والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية، فهي أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق، فلا غرو إن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر، وعلّق على ذلك بقوله: «**ما أعجب هذا المؤرخ المدجّن..**» ثم ناقشه بالتفصيل شارحًا موقفه بالتفصيل، فقال: «وبأقل التأمل في مناهج مدرسة الألسن تعلم يقينًا لا شك فيه أن رفاعة الطهطاوي نفسه لم يكن مؤهلًا لتدريس أكثر هذه العلوم، ولا كان في مصر يومئذٍ من المصريين من هو مؤهل لتدريسها، فلا مناصَ من استقدام من يُظن فيه أنه مؤهل لتدريسها من الأجانب ومن المستشرقين خاصة، وكذلك كان، فكان هؤلاء الدهاة من صنائع الاستشراق هم الذين تولوا ١٥٠ تلميذًا، كان رفاعة

(١) نفسه (ص١٤١).

الطهطاوي يختارهم صغارًا من مدارس الأرياف والأقاليم، ومن طلبة الأزهر، وبذلك وضع رفاعة الطهطاوي أساسًا لمدرسة ملفقه: (لا كلية كما يقول الرافعي)، مبتورة الصلة كل الصلة من مركز الثقافة المتكاملة التي كان الأزهر مهدها على قرون متطاولة، وكان هو وحده على طول هذه القرون، مركز ثقافة دار الإسلام في مصر، وكذلك أحدث رفاعة الطهطاوي صدعًا مبينًا في ثقافة الأمة وقسمها إلى شطرين متباينين:

(الأزهر) في ناحية و(مدرسة الألسن) في ناحية... وكذلك حقّق رفاعة لدهاة الاستشراق أهم ما يتوقون إليه، من وَأْدِ اليقظة الواحدة المتماسكة التي كان الأزهر مركزها منذُ عهد البغدادي والزبيدي والجبرتي الكبير، وفي وقتٍ كان فيه محمد علي الجاهل، يحطّم أجنحة الأزهر ويضعه في قفص لا يستطيع الإفلات منه، ويدبر كل مكيدة لإسقاط هيبته وهيبة مشايخه، ويعزلهم عن جمهور الأمة عزلًا بين قضبان من حديد وجدران من الصخور.. ومرّت الأيام والسنون، وهذا الصدع يتفاقم، حتى انتهينا إلى ما نحن عليه اليوم من الانقسام والتفريق، وذهبت الثقافة المتكاملة في دار الإسلام في مصر أدراج الرياح[(١)].

ثم قال أيضًا: «وانشطر تعليم الأمة شطرين، ونمت المدارس وتكاثرت.. وجعلت الهوة بين الأزهر والمدارس تتسّع وأصبحت المناهج تتباين تباينًا شديدًا، أما مناهج الأزهر في عزلته فجعلت تضعف وتذوي.. وأما مناهج المدارس فجعلت تنمو، ولكن نموها قائم على القشور التي تغرّ ولا تغني فتيلًا.. وجعلت تزداد تباعدًا مقطوع الأواصر من الثقافة المتكاملة التي عاشت بها الأمة قرونًا متطاولة)[(٢)].

وجاء احتلال إنجلترا عام ١٨٨٢م، ومعه الاستشراق الإنجليزي ليحدث في ثقافة الأمة المصرية صدعًا متفاقمًا أخبث وأعتى من الصدع الذي أحدثه الاستشراق

---

(١) نفسه (ص١٤٦).

(٢) نفسه (ص١٤٧).

الفرنسي، وضع «دنلوب» أسس التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلامية، ومهّد إلى ملئه بماضٍ آخر بائدٍ في القدم والغموض، لم يبقَ من ثقافته ألتبة، ليزاحم هذا الماضي الفارغ بقايا الماضي المتدفق الحيّ الذي يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرة مدمرة بين انتمائين، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم، وبين الانتماء إلى الفرعونية التي بادت وبادت ثقافتها ولم يَبْقَ منها إلا أطلال من الحجارة[١].

وبدورنا، لا نعجب إذا جاء أحد ذيول الاستعمار الأمريكي أيضًا ليقترح علينا أنه من الأوفق أن نعد مناهج الدراسة في المعاهد الدينية على غرار المناهج في المدارس الأميرية التابعة لوزارة التعليم[٢].. يقترح هذا، مع أنه نفسه نقل عبارة عن أحد طلاب الدراسات العليا بقوله: «نحن وفي هذه السن على الأخص في أشد الحاجة إلى التعليم الديني، فهناك الكثير مما يعجم علينا إدراكه، ولا ندري أيتفق هذا مع ديننا أو لا يتفق»؟![٣].

وقد عبّر ذلك الطالب بصدق عما يجول في نفسه، وانطبق عليه وصف الشيخ شاكر بأنه ينتمي إلى **الجيل المفرّغ**، حتى يومنا هذا![٤].

وقد حرمت هذه المناهج أكثر الأجيال الماضية من الانتماء إلى وطنهم والتشبع بثقافتهم العربية الإسلامية، بل إن بعضهم أصبح ناقدًا للتراث ومفضلًا ثقافة الغزاة عن ثقافة الآباء والأجداد! (والإنسان عدو ما يجهل)، وأصبح التلاميذ بالمدارس يرتبطون

---

(١) نفسه (ص١٤٨-١٤٩).

(٢) د. بيارد ددج وكان يعمل أستاذًا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كتاب «الأزهر في ألف عام» (ص١٧٧) ترجمة د. حسين فوزي النجار -الهيئة المصرية لكتاب (الألف كتاب) ١٥٤ -١٩٩٤م.

(٣) نفسه (ص١٨٠).

(٤) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (ص١٦٠).

ارتباطًا وثيقًا بالثقافة الغربية بعد أن قطعت مناهج التعليم الصلة بينهم وبين ماضيهم، اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، إلا فيما ندر وبصور مشوّهة ومزوّرة للتاريخ.

ويرى الشيخ محمود شاكر أن النظرية التي وضعها المستعمرون في نظم التعليم مازالت سارية المفعول حتى اليوم[١].

العناية بالتعليم الديني في أوروبا المسيحية:

وبعد سرد المأساة الأليمة لخلفيات شطر ثقافتنا الإسلامية التي نبَّهنا إليها الشيخ محمود شاكر وأيقظنا من سباتنا؛ إذ رأينا كيف استطاع الاستشراق وتلاميذه الوصول إلى هدف الغرب البعيد، فنجح في سلب الأمة الإسلامية سلاحها الثقافي المتكامل التي حاربت به الغزاة طوال تاريخها... وفي خاتمة المطاف جاء أتاتورك أيضًا وشيعته للقضاء على البقية الباقية، فألغوا التعليم الديني في تركيا، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا حريصة كل الحرص على تعليم أبنائها الدين المسيحي في مدارسها.

وها هي الأدلة يقدمها الأمير شكيب أرسلان، للرد على شيعة أتاتورك بزعمهم أن المدارس الأميرية في فرنسا ليس فيها تعليم ديني، وأنهم إنما يقتدون بفرنسا، فيقول: «ولكنهم يتجاهلون أن المدارس الخاصة والمدارس العائدة للرهبان وللأساقفة وللجمعيات الدينية من كاثوليك وبروتستانت هي في فرنسا أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولذلك التربية الدينية لا يمكن أن يُخشى عليها هناك»[٢].

أما إيطاليا التي تواليها تركيا وتتخذ لنفسها قانون الجزاء الإيطالي، وبين الدولتين اتفاق سياسي كما لا يخفى، فلماذا لا تريد الاقتداء بإيطاليا في جعل التعليم الديني، وهو من أهم برامج المدارس الأميرية؟!

---

(١) سامح كريّم: «قمم وأفكار إسلامية» (ص٢٥٨) دار الوفاء بالقاهرة ١٩٨٤م.

(٢) نفسه (ص٣٥٣).

وأيضًا فالأمة الألمانية التي هي في الذروة العليا من المدنية تفرض التعليم الديني في جميع مدارسها، وكذلك الأمة الإنجليزية التي هي أعظم الدول قوة وسلطانًا في الأرض تعتني مزيد الاعتناء بالتعليم الديني في مدارسها الابتدائية والتالية والعالية (ولا نعلم من حكومات الأرض كلها إلا ثلاثًا يحارين الديانات، وقد ألغين التعليم الديني من مدارسهن، وهي الروسية (أيام الشيوعية) والمكسيك وتركيا)[(١)].

وأما الدول البروتستانتية، فكلها تعلن أن ثقافتها مسيحية، وأن مدنيتها إنجيلية وأنها لا تحيد عن هذا الطريق، وكثيرًا ما تعلق هذه الدول ذلك في براجها أمام المجالس النيابية، وقال ناظر معارف هولندا في مؤتمر للمستشرقين في ليدن عام ١٩٣١م: «إن هولندا لم تذهب إلى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحي».. وقال ناظر الخارجية الألمانية: «إن ثقافة ألمانيا مبنية على الدين المسيحي»[(٢)].

ولم تكتفِ الدول المسيحية الكاثوليكية بالإعلان عن التزامها بمبادئ الكنيسة، بل أرسلت في مستعمراتها القساوس والمبشرين وأخذت إيطاليا صغار المسلمين لتربيتهم في الكاثوليكية.. وانتهزت فرنسا فرصة المجاعة في الجزائر وقلدت إيطاليا؛ إذ قيل إن عددهم بلغ ألفًا وخمسمائة شخص، وإن منهم من رجع إلى الإسلام بعد أن بلغ رشده ومنهم من بقي مسيحيًّا حقيقيًّا.. وتشكلت في بلجيكا وزارة أعلنت من جملة براجها العمل على تنصير أهالي مستعمرة الكونغو[(٣)].

وقد سرد الأمير شكيب أرسلان أسماء المبشِّرين بالدين المسيحي في الجزائر وتونس والمغرب وبلاد النيجر، وعدم مراعاتهم شعور المسلمين إلى حد أن بعض الجوامع الكبري

(١) نفسه (ص٣٥٤).
(٢) نفسه (ص٣٦٢).
(٣) نفسه (ص٣٦٢).

في مدينة الجزائر قد تحولت إلى كنائس، وقامت فرنسا بإلغاء الشريعة الإسلامية من بين البربر، وقامت بتنفيذ مشروعها القديم لِيَتَنَصَّر البربر...

وبالاختصار فإن فرنسا التي يزعم البعض أنها حكومة لا دينية، هي في الحقيقة أشد الدول حماية للنصرانية عمومًا وللكثلكة خصوصًا، وإن الحزب الحر الذي يطالب بوقوف فرنسا موقف الحياد من الأديان لا يزال ضعيفًا ولا يُسْمَع له صوت![(١)]

علمانية أتاتورك وحزبه في ميزان الإسلام:

عورضتْ ثورة أتاتورك العلمانية معارضة شديدة من علماء المسلمين كافة بحيث يتعذر جمع مواقفهم وعرض آرائهم في هذا النطاق المحدود من البحث، لذلك سنعوّضه باختيار أبرزهم ومنهم: د. محمد أحمد الغمراوي الحائز على الدكتوراة من إنجلترا في الكيمياء والطبيعة.

وللدكتور الغمراوي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى آراء صائبة وتوجيهات نفيسة، استمدها من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي دالة على نور البصيرة، كتبها للمسلمين في زمانه ومازالت جديدة ومبتكرة حتى عصرنا هذا، إذ عرض فيها لبعض القضايا التي أثارها الكماليون في تركيا، وما زال البعض من التغريبين في بلاد الإسلام يتشبثون بها ويدافعون عنها، بالرغم من أن تجربة أتاتورك باءت بالخزي والخسران، وكادت تفقدنا أرضَ تركيا المسلمة كما فقدنا بلاد الأندلس!

ولو التزم أولئك التغريبيون بالمنهجية العلمية في البحث والنظر، واستمدوا من التاريخ الدروس والعبر، لعرفوا الحق وأعرضوا عن الباطل.. ولكن ما الحيلة أمام تصلّب الرأي وطبيعة العناد والكبر؟!

---

(١) نفسه (ص٣٦١).

وسنقتصر على عرض ثلاث قضايا اشترك فيها الدكتور الغمراوي بسهم وافرٍ لمجابهة العلمانية:

١- الإسلام دين الفطرة(١).

٢- اختلاف التصور الديني بين المسلمين والنصارى.

٣- الآثار المدمرة لمخالفة سنن الله تعالى في المجتمعات.

(١) الإسلام دين الفطرة:

أخذ الدكتور الغمراوي يدعو المفتونين بالغرب إلى مسائل جوهرية لاختلافنا عن الغرب دينيًّا وتاريخيًّا وحضارة، ونبّه بقوة إلى معاودة النظر والرجوع الصادق إلى الإسلام وما فيه من عناء للقلب والفكر والعقل والحياة، ووضع يده على موطن العلّة في انصراف بعض المسلمين عن دين الفطرة وعن الالتزام بأحكامه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

قال: (والآية الكريمة تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة ولكن نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا أوجز تعبير وأوكده وأشمله بتمام انطباق الإسلام على سنن الله التي خلق عليها الإنسان، سواءً تعلَّقَتْ بالبدن أو النفس وبالعقل أو القلب في الفرد والأسرة والطائفة أو في القبائل والأمم والشعوب)(٢).

---

(١) وله دراسات وافية عن خصائص الإسلام عرضها بإسهاب بالعناوين التالية:

١- الإسلام والفطرة. ٢- الإسلام دين العزّة.

٣- الإسلام دين الكرامة. ٤- الإسلام دين الوفاء.

٥- الإسلام والعلم والمدنية.

٦- الإسلام وسنن العلم (ويشمل دليل الوحدانية).

٧- الإسلام وسنن الاجتماع.

(٢) د. محمد أحمد الغمراوي: «الإسلام في عصر العلم: الدين والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والكتاب» (ص٢) إعداد أحمد عبد السلام الكرواني، مطبعة السعادة. ط، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ فهي أولًا أكدت المعاني السابقة المستفادة من الكلمات قبلها، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، ودلَّت على اتساق الإسلام وفطرة الإنسان مع الفطرة العامة في الكون.. والعلم الحديث يقوم وجوده رغم الفلسفة وشكوكها على هذا القانون الإلهي، قانون ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ إذ العلم وطريقته النظرية والعملية التجريبية متوقفة على اتساق الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبوت(١).

وكما بدأ الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ختمها عودًا على بدءٍ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، وغير المسلمين يجهلون أن الإسلام دين الفطرة بالمعنى الذي بينته الآية بل ذهب بهم الجهل إلى أن سمّوا المسلمين بالمحمديين اعتقادًا منهم أنهم يعبدون محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والذي يحتاج في هذا الأمر إلى مزيد من الحجة والدليل يجده في الآيات التي قبل هذه الآية الكريمة في سورة الروم، فقد جاءت بعد آياتٍ كلها كونية تتعلق بظواهر طبيعية لا يدريها ولا يبحثها ويكشف عن أسرارها إلا العلم التجريبي الحديث، وهي الآيات التي أولها ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم:١٧-١٩] والتي آخرها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٥].

تسع آيات جمع الله للإنسانية فيها بين العلم والدين، ومزجهما للمفكرين مزجًا يدهش ويبهر، صار به العلم في الإسلام جزءًا من الدين، ميزةً للإسلام وحده من بين الأديان(٢).

---

(١) نفسه (ص٢).

(٢) نفسه (ص٤).

كذلك استدل بحديثٍ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «**ما من مولودٍ يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو يمجِّسانه، تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها جدعاء؟**» ثم يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠]. رواه البخاري.

فهذا الحديث الشريف الصحيح نص في تفسير الآية الكريمة وهما معًا متظاهران على أن الإسلام دين الله هو والفطرة الإنسانية السلمية شيء واحد، وأن مبادئ الإسلام وأحكامه مطابقة تمامًا لسنن الفطرة، وأن ما يعتور الناس من عوج إنما هو أمر طارئ راجع إلى الخروج عن التربية الإسلامية الصحيحة، أي إلى عدم تنشئة النشء على أصول الإسلام وأخلاقه وأعماله، وإلى عدم إشراب النشء روح الإسلام وحبه[1].

٢- اختلاف التصور الديني بين المسلمين والنصارى:

يشرح الدكتور الغمراوي الفرق في تصور الدين بين الغرب وبين الإسلام؛ إذ حاول الغرب التوفيق بين دينه وبين العلم فلم يستطع، لا لجمود رجال الدين فيه، ولكن لنصوصٍ في كتابه ناقضت العلم واستعصت على التأويل، كالنصِّ على أن عمر الأرض محدود لا يتجاوز بصفة آلاف من السنين، في حين أن العلم اليقيني يقدر عمرها بالملايين، وكان من شأن ذلك أن حمل بعض كتابه مثل: ماتيو أرنلد وبعض قسيسيه، على أن يظنوا أن الدين قد خذله الواقع فلم يَبْقَ ما يستند إليه إلا الشعر، أي ما يتمثل في ذلك الدين من معانٍ شعريةٍ وقيم أخلاقية، لا غنى للإنسانية عنها بحال، وقرأ ذلك وشبهه بعض مقلدي الغرب من المسلمين فظنُّوا أن ما ينطبق على الدين هناك ينطبق على الدين هنا، من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن الدينيْن، هل هما مشتركان في مخالفة اليقيني من العلم حتى يشتركا أيضًا فيما يترتب على تلك المخالفة من حكم؟، ومن هنا نجمت هذه

---

(١) نفسه (ص٧).

الناجمة التي تحاول أن تطفئ نور الله بأفواهها؛ حيث تدعو من ناحية إلى اعتبار القصص القرآني فنًّا يرمز إلى قيم أخلاقية من غير أن يقوم على حقيقة تاريخية، ومن ناحية أخرى إلى تأويل نصوصِ الدين وأحكامه وتقييدها وتخصيصها بما لم يقيدها أو يخصصها به الله ولا رسوله ﷺ ولا جماعة المسلمين، من وقتِ نزول القرآن إلى هذا العصر الذي فقد الشرق فيه اتزانه، وكاد أن يبيع بأبخس الثمن إيمانه.

لكن مما يؤسف له أن المسلمين غفلوا عن آية سورة الروم ودلالتها غفلة يعجب منها كل ذي لبٍّ حتى يضرب كفًّا بكف، فلا هم أطاعوا أولها ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، ولا هم استمدوا التثبيت من آخرها ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ولا هم فقهوا ما بين ذلك ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ليتخذوا منه هاديًا ودليلًا وحجة تقوم وتدحض كل ما افترى أو يفتري الخصوم.

ويقول الدكتور الغمراوي: «ومن العجيب أن الإسلام الذي يرمونه بداء غيره، فينسبون إليه معاداة العلم أحيانًا ومنافاة العقل أحيانًا، ومجافاة الفطرة أحيانًا، هو وحده من بينِ الأديان السماوية الذي احتضن العلم وتحاكم إلى العقل وميّز الحق بخصائصه، وما عليك إلا أن تردّد النظر في القرآن الكريم وفي السنّة المطهرة لترى الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العلم والعقل والحق»[١].

وهنا يتضح الخلاف بين الإسلام وغيره من الأديان؛ إذ يثبت بها لا يدع مجالًا للشك أنه ليس في يقينيات العلم ما يتعارض مع القرآن الكريم، بخلاف ما اكتشفه البعض في الكتاب المقدس[٢].

---

(١) نفسه (ص٩).
(٢) وعلى سبيل المثال: يُنظر كتاب موريس بوكاري «القرآن والتوراة والإنجيل في عصر العلم»، دار المعارف بمصر

لذلك شدّد الدكتور الغمراوي النكير على المقلدين لبعض علماء غير المسلمين الذين تعرضوا بالنقد لنصوصٍ في كتابهم المقدس لما أثبت العلم والبحث بطلان تلك النصوص، فجاء بعض المحدثين ممن نشئوا في الإسلام يقلدونهم بالنسبة للقصص القرآني من غير داع، فليس في يقينيات العلم ولا يقينيات التاريخ ما يخالف نصًّا من نصوص القرآن في قصص أو في غير قصص، وليس ذلك بممكن ولا جائز الحدوث، فالله سبحانه يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٤٨]،ويقول: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء:١٠٥]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران:٦٢]، ويقول عن أهل الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف:١٣]، ويقول بعد ما قصَّ في سورة هود: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ [هود:١٢٠]، ويقول سبحانه بعد قصص سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١].

ثم ذلك النص الكريم العظيم الذي يقطع الطريق على كلِّ مبطلٍ يبغي آيات الله عوجًا، ألا وهو قوله تعالى وصفًا للقرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

فمن يؤمن بهذه الآية وما سبقها لا يمكن أن يحيك في صدره شبهة أو شك في أن القرآن قصصًا أو غير قصص، هو الحق الصرف الذي لا يعلق به ولا يدنو منه الباطل من أية ناحية أو على أيِّ احتمال.

ويختم الدكتور الغمراوي هذه الأدلة القاطعة بقوله في أسى: «ومصيبة مَن مصائب الدهر أن تحتاج هذه البديهة في بلد مثل مصر إلى توكيد أو توضيح»[1].

(١) نفسه (ص١٤٨).

- كذلك في مجال مقارنة الأديان، يتبين من الكتاب والسنة أن الإسلام دين الوفاء، وسيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حافلة بتطبيقات المبدأ الأخلاقي الرفيع.

ففي عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمَّ تسليم ابن جندل المسلم لأبيه الكافر في غزوة الحديبية تنفيذًا لشرطٍ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد وافق عليه، وقال مخاطبًا أبا جندل: «يا أبا جندل اصبر واحتسب؛ فإن الله تعالى جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدًا، وإنا لن نغدر بهم».

ومثل أبي جندل أبو بصير، لجأ إلى المدينة بعد أن رجع إليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية، وأرسلت قريش في طلبة رجلين، فدفعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهما وفاءً بالعهد ونزولًا على شرطه.

لنقارن ذلك بما ارتكبته بعض دول الحضارة الغربية المسيحية في العصر الحديث، فقد غدرت إنجلترا بالشريف حسين، وغدرت بالعرب في سوريا التي أعطتها لحليفتها فرنسا، وفي فلسطين التي جعلت منها وطنًا لليهود على أن تُصان حقوق أهلها المدنية والدينية فيما زعم وعد بلفور، احتلت فلسطين لتنغص هذا الشرط الأعرج بالتمكين لليهود حتى إذا خرجتْ ظافرة في الحرب الثانية تخلَّتْ عن فلسطين لليهود بعد أن كانت جرّدت أهلها من السلاح، وأمدَّت به اليهود ليضربوا شعب فلسطين[1].

وقد أسهب الدكتور الغمراوي بالاستشهاد بآيات القرآن الكريم، التي هي تشريع دائم في الإسلام للناس كافة، والجماعات عامة، أن يوفوا بالعهود ولا يتخذوا من الإيمان

---

(١) نفسه (ص٢٤).
أما التفصيل عن الشريف حسين فقصته تبعث على الأسى والحزن الشديدين؛ إذ هو بدوره اشترك مع إنجلترا في حرب الخلافة العثمانية، وخرج عليها بالسلاح، بل أعلن بعض قادة الإنجليز أنه لولا مساعدته لما تحقق لهم النصر على العثمانيين وكانوا قد وعدوه بالخلافة على الأقطار العربية.. فلما انتصروا غدروا به حتى مات في المنفى!

والمواثيق وسيلة للخديعة والمكر، حتى إذا وجدوا فرصة غدروا، أو وجدوا أمة غير معاهدة أقوى من أمة معاهدة نقضوا عهد الأضعف لينحازوا إلى الأقوى.

ولإشفاقه على حال المجتمعات البشرية في العصر الحديث المليئة بالاضطرابات والحروب والأزمات النفسية والعصبية وطغيان الدول الاستعمارية على الشعوب المغلوبة على أمرها نهبًا لثرواتها واستعبادًا لسكانها، يرى أن الإنسانية الآن في حاجة إلى دينٍ تخرج به من ورطاتها بعد أن كادت تهلك حين نسيت الدين، ولو أرادت البحث بعقلية علمية عن دين الفطرة -كما لابد لها يومًا أن تبحث- فليس أمامها إلا أن تنظر في الأديان كظاهرة كونية[1].

ويقصد بالعقلية العلمية أن الإسلام -كدين- يَثْبُتُ للفحص العلمي دون غيره من الأديان؛ إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم أي القرآن الكريم، وتبقى إلى ما شاء الله، ليكون موضوع بحثٍ وامتحانٍ وفحصٍ، وليهتدي البشر بفحصها إلى الله تعالى، ثم يوجه نداءه إلينا فيقول: «ليتَ المسلمين ينتهون إلى هذا فيتداركوا ما فاتهم ويعدّوا للدعوة إلى الله تعالى وإلى القرآن، فالإنسانية في حاجة إلى دين الفطرة، وما المسلمون بأقل حاجة من الإنسانية إلى تبصير بالإسلام»[2].

ومع عنايته بالتنبيه إلى الاختلاف في التصور الديني بين الإسلام والنصرانية، يستند إلى آية الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠]، فيقول: (وفي نسبة فطرة الإنسان إلى فاطرها في آية الروم يتمثل الفرق بين الإسلام ودين الغرب الذي يقول: بأن الإنسان مفطور على الإثم، فالإسلام بتلك النسبة الكريمة يرفع الإنسانية وفطرتها إلى الأوج، ويفتح أمامها الباب

(١) نفسه (ص١٣١).

(٢) نفسه (ص١٣٤).

واسعًا إلى السعادة والترقي الذاتي، في حين أن نسبة الإنسانية إلى الإثم توصد هذا الباب أمام الإنسان، وتنزل بفطرته إلى الحضيض)[١].

مخالفة سنن الله تعالى في المجتمعات وآثارها المدمِّرة:

من الآراء الصائبة التي أبداها الدكتور الغمراوي هو كشفه عن اطراد سنن الله تعالى في الكون، وسريان ذلك أيضًا على المجتمعات والأمم، فإن سننه عَزَّوَجَلَّ لا تتبدل ولا تتغير، في هذه وتلك.

وقد أَسْهَبَ في شرحِ ذلك التوافق بين السنن الكونية والاجتماعية، وأدّى به ذلك إلى توجيه النقد العنيف للمسلمين الذين خالفوا شريعة الله عَزَّوَجَلَّ واستوردوا القوانين الوضعية من الغرب في نُظُمهم الاجتماعية، وينسحب ذلك بلاشك على ما فعله الكماليون في عصره؛ حيث أصابوا الشعب التركي بالبلبلة والاضطراب!

وكان عرضه لسنن وقوانين كونية كشف بعضها العلم الحديث وفقًا لقول الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠]، أي أن سنن الله في الكون واحدة في اطرادها وتناسقها وفي دقتها وصرامتها، ولا سبيل إلى تغييرها ولا الإفلات من عواقب مخالفتها... لذلك نجحت العلوم الطبيعية في وصولها إلى نتائج صائبة؛ لأنها تحتكم إلى التجربة العملية في الفصل بين الفروض المختلفة التي يؤتى بها لتفسير الظاهرة الواحدة.. ولكن بالمقارنة مع العلوم الاجتماعية فإنها لا تملك ما يملك العلم الطبيعي من التجربة العملية التي يتحكم العالم في إجرائها بالصورة التي يرى أنها أدنى إلى أن تؤدي إلى الكشف عن الحقِّ في موضوعها.. ونَجَمَ عن ذلك أن الإنسانية بعلومها الطبيعية الحديثة قد اهتدت إلى اطراد الفطرة في المادة والطاقة، ولكنها لم تهتدِ إلى الفطرة ولا اطرادها في الاجتماعيات، فهي في فلسفتها ومذاهبها الاجتماعية في بلبلة

(١) نفسه (ص٦١).

واضطراب لا نرى له مثيلًا في الطبيعي من العلوم.. ويرى الدكتور الغمراوي أن قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ في موضوعها من الآية ليس فقط وصفًا للفطرة التي فطر الحق سبحانه عليها الإنسان وغير الإنسان، من حيث اطراد السنن وثبوتها، ولكنه أيضًا أمر وتشريع ألا يبدِّل الإنسان دين الله بتشريع من عنده، كما فعل المسلمون ويفعلون من اتصالهم بأوروبا في القرن التاسع عشر؛ حيث اتخذوا ويتخذون منها إمامًا، ومن قوانينها ونظمها الاجتماعية بديلًا من أحكام الله، ثم هو أيضًا توكيد -أي توكيد- لما أمر الله في صدر الآية الكريمة من إقامة الوجه للدين في تصميم وعزم وانصراف كلِّي إليه، وميل عن كل ما سواه، وإلا تعرض في روحه الاجتماعية لكل ما يتعرض له مَنْ يخالف قوانين الفطرة وسننها في المادة!

ومما يثير تعجبه أن الإنسان مُقبل كل الإقبال على الانصياع لما يعلم من قوانين الفطرة في المادة والطاقة، لا يجترئ على مخالفتها في معامله ولا في مصانعه، فنال بذلك ما نَالَ من القوة المادية الهائلة التي حملته وتحمله على الغرور والاغترار، ثم هو منصرف انصرافًا كبيرًا عن الانصياع لقوانين الفطرة في الروح والاجتماع، بانصرافه عن الإسلام دين الفطرة -دين الله، واجترائه عليه بالإهمال والتجريح أو بالتأويل والتبديل كيفما شاء هواه (فكانت عاقبته أن صار قزمًا في الروح، عملاقًا في المادة، أو قزمًا في الناحيتين الروحية والمادية كليتهما، وكان عاقبة المسلمين بتركهم الدين وانخداعهم عنه ما نرى من الضعف والمهانة، حتى اجترأ عليهم الأعداء)[1].

ومهما عذر الناس في جهل أن الفطرة واحدة طبيعياتها واجتماعياتها، فالمسلمون بينهم لا عذر لهم؛ لأن كتاب الله تعالى فاطر الفطرة قائم بينهم يخبرهم من ذلك بما جهلته الفلسفة ولم يدركه العلم، في آيات هي في أيدي المسلمين -وأسفاه- كالمصابيح في أيدي

---

(١) نفسه (ص٦٢).

العميان، من نحو قوله تعالى من سورة تبارك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]. ومن سورة فاطر: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

ويقول في تفسيره للآية: (والعجيب أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن لم تنزل في سنن الله في المادة، وإنما نزلت في سنن الله في الاجتماع، لتنذر الناس عواقب كفرهم إن كفروا بالدين الذي هو دين الفطرة، ولتثبت لهم أن لله تعالى في هذه الناحية سنن لا تتخلف، جرت في الأوّلين بالإهلاك حين عصوا واتبعوا أهواءهم، وهي جارية لا شك في الآخرين إن هم عصوا أيضًا وخرجوا عن سنته سبحانه التي فطر الناس عليها، سواء أكان خروجهم ومخالفتهم عن جهل أو عناد)[1].

ولقد بيّن الله سبحانه هذه الحقيقة في كتابه الكريم بشتى صور البيان.. كما ورد في سورة الحج وسورة القمر مثلًا؛ إذ قصّ سبحانه ما جرّ التكذيب بسنته ورسله على قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون، حتى إذا بيّن سبحانه من ذلك ما شاء تفصيله التفتَ إلى كفّار العرب مخاطبًا بقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر:٤٣]، فدّل بذلك على أن سنته في الكافر بين المكذّبين بكتبه ورسله سنة عامة لا استثناء فيها ولا منجي منها إلا بالإيمان والعمل بالدين الذي تتمثل فيه قوانين الله في الفطرة وتتضمن أحكامه التطبيق المحكم لسنته سبحانه في الاجتماع[2].

ومما يؤكد صدق عموم تلك السنن أننا نرى اليوم رأي العين فيما حاق بمخالفيها في الغرب وفي الشرق، فالغرب نال من العلم الطبيعي عن طريق البحث التجريبي ما نال حتى ظنَّ أنه قد ملك الأرض يفعل بها ما يريد، غير مراقب في الناس إلًّا ولا ذمة، وغير

(١) نفسه (ص٦٥).
(٢) نفسه.

مراعٍ في اجتماعياته شرعًا ولا سنة، فإذا بنفس علوم المادة تنقلب عليه نقمة، وإذا بأمواله تتحول بتلك العلوم مناجل وقنابل تحصد أهله، وتمزق شمله، وتترك دياره العامرة بلقعًا، ومدنه الزاخرة حطامًا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، وسيّان أن يهلك العاصون لله تعالى وسننه بحجارة من سجيل يمطرونها على أيدي الملائكة، أو بقنابل ذرية أو غير ذرية يمطرونها على أيدي أمثالهم من الناس، مصدقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩].

ومن العجيب أن الغرب لاقى ببغيه ومعصيته حربين هائلتين.. ولكنه مضى في غيّه ولم يرتدع! بل توسع الغرب في وسائل التدمير والفناء والفتك، فانقلبت الطيارات إلى نفاثات سرعتها تسبق الصوت، فتدهم من غير أن يُسْمَعَ لها حس، وتفتك من غير أن يُعْصَمَ منها حصن، وبقنابل تكفي إحداها لتدمير المدينة الآهلة بالملايين. وتعدّى الأمر سبق الصوت إلى سبق الرادار، فلا ينفع رادار في إنذار مع الصواريخ الذرية والهيدروجينية عابرة القارات والمحيطات، بل يوشك الخطب أن يفوق كل ذلك فلا تنفع في دفعه حيلة ولا علم، إذا انقلبت القميرات الدوّارة حول الأرض إلى وسيلة لرش الأرض ورجمها بالطاقة الذرية، حتى صار كل الأمل في جعل الدمار محصورًا خشية أن يعم الدمار[(١)].

ويختم الدكتور الغمراوي بحثه بتوجيه اللوم للمسلمين فيقول: «وأعجبُ من أمر الغرب أمر هذا الشرق الإسلامي الذي لا يزال يتخذ من الغرب في اجتماعياته إمامًا، كأن فشلها وخطلها لم يثبت مما أشاعته في الغرب من فرقة وبغض، وما جرت عليه من ويل وحرب، أو كأن هذا الشرق ليس بيده نور الله تعالى يهديه، ودين الله يعتصم به،

---

(١) نفسه (ص٣٩٠).

فلئن لم يتدبر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود:١١٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر:٥٥]، فيسمعُ لأول كل منهما ويطيع، ليوشكن أن يحق عليه سائرهما، فإن رأس سنن الله تعالى أن يطاع، وإن من لا يطيع يهلك، وسنن الله تعالى لا تتخلف كما يشهد به العلم في المادة، أو كما يشهد به القرآن في الاجتماع[1].



(١) نفسه (ص٦٧).

فصل

العلمانية في تركيا بين الكمالية وحزب العدالة والتنمية

فرض أتاتورك الأيديولوجية العلمانية المستوحاة من النموذج الفرنسي، وإعادة هيكلة المجتمع التركي بالقوة في عصره، وكذلك في العصور التالية، ولكن لم يتم تنفيذ مشروع علمنة الجمهورية الوليدة برفق وتدريجيًّا مثلما كان في القارة الأوروبية.. بل بالقوة والقسر والإدماج فأصبحت الكمالية بذلك في السياق التركي **مرادفًا للعلمانية** والفرد الكمالي ملتزم جوهريًّا بنمط العلمانية العدواني الخاص بتركيا. (ونموذج العلمانية هذا استبدادي وغير ديمقراطي) وكذلك فإن الكمالية **تعادل الحداثة والتغريب**، يقولُ أحدُ المتعصبين: «إن العلمانية كأسلوب حياة ينبغي أن يتبناها الفرد، ويجب على الفرد العلماني أن يحصر الدين في المكان المقدس من ضميره وألا يسمع لإيمانه بالتأثير على هذا العالم»[١].

وهكذا، فقد أتت رياح الكمالية التي هبت من الغرب بسموم دخيلة، قوّضت من الأخلاق الراسخة المعهودة في الشعب التركي المسلم طوال تاريخه العريق، وأحدثت تغييرات في تركيب الأعراف والعادات؛ إذ طالعنا ما ظهر من استياء العلمانيين بصورة متزايدة على ما اعتبروه (**أسلمة المجتمع**) وشعورهم بالاستياء من (القيود المفروضة على الخمور والإجهاض ووسائل منع الحمل في حالات الطوارئ، وإظهار الحب في الأماكن العامة، ورفض مشروع قانون حول حقوق الشواذ، وحظر التقبيل في وسائل المواصلات العامة المملوكة للدولة.. أي أداء ما يُسمى بـ«دور الشرطي المحافظ على الأخلاق»[٢].

وهذا ما يشير إلى الصعوبات أمام حزب العدالة والتنمية؛ إذ كيف يمكن أن يصدر تشريعات حول أمور متعلقة بالإسلام اليومي أو غير الرسمي (وهذا من حقّه باعتباره

---

(١) إيفا نجيليا: «تركيا الديمقراطية وحزب العدالة والتنمية»، باختصار (ص٣٢-٣٦-٣٨) ط٢.

(٢) إيفا نجيليا أكسيارليس: «الإسلام السياسي والدولة العلمانية في تركيا، الديمقراطية والإصلاح وحزب العدالة والتنمية» (ص١١-٢٩٤) ترجمة علا أحمد إصلاح، ط. مجموعة النيل العربية - مدينة نصر ٢٠١٦م.

حكومة محافظة ذات تفويض شعبي)، ولكن دون الاصطدام بحساسية الطبقة العلمانية في تركيا؟

وتقول إيفا نجيليا: «ومن المؤكد أن الأتراك العلمانيين لا يزالون يعتبرون مجرد وجود حزب صديق للإسلام في الحكم شيئًا بغيضًا.. وأي سياسة تدعم الحرية الدينية ستسبب رد فعل عدائيٍّ من جانب الكماليين»[1]. وقد دللت على ذلك بما حدث لأردوغان شخصيًّا؛ حيث سجن عام ١٩٩٩م بعد إلقائه قصيدة شعرية خلال مؤتمر شعبي سياسي في دائرته الانتخابية بحجة أنها مخالفة لقانون العقوبات التركي، وقد يقصد بها الرد على الشاعر ضياء جو كالب الذي يوصف بأنه أبو القومية التركية، وكانت له قصيدة يسخر فيها من الأقدار.. أما كلمات أردوغان فهي: (المساجد ثكناتنا، والقباب خوذاتنا، والمنارات حراب بنادقنا، والمؤمنون جنودنا).. فحُكم عليه بالسجن لمدة عشرة شهور قضى منها أربعة، وأُجبر على التنحي عن منصب عمدة اسطنبول[2].

ولم يكن الطريق أمام حزب العدالة والتنمية لأسلمة المجتمع سهلًا؛ إذ أدى فرض العلمانية بالقوة على يدِ أتاتورك وأتباعه بعده.. أدى إلى شنق فيما بين العشرينيات والأربعينيات جَمٌّ غفير يعد بالألوف من الصلحاء والعلماء وأرباب الهمم من المسلمين الذين رفضوا العلمنة وإلغاء الخلافة والشريعة الإسلامية، وهاجر إلى الخارج عدد آخر منهم فرارًا بدينهم[3].

---

(١) نفسه (ص٣٠٤).

(٢) نفسه (٢٧٣).

وقد علقت المؤلفة على ذلك بقولها: «وارتدى أردوغان هذه الإدانة كما لو كانت شارة شرف سياسي على صدره».

(٣) د. إسماعيل المنصور، مقال بعنوان (تركيا الكمالية تشترك مع الصهاينة في العداء للإسلام)، (ص٩٤) مجلة البيان تصدر عن المنتدى الإسلامي -رحـ ، ١٤٢٢هـ -أكتوبر ٢٠٠٦م.

ويقول د. إسماعيل المنصور في مقال نشره في أكتوبر ٢٠٠١م: «أن ما يرتكبه اليوم الحاكمون بأمرهم في تركيا ضد الإسلام والمسلين من طردٍ وتشريدٍ ذريع وتعذيب فظيع بحيث تقشعر منه الجلود وتشخص منه الأبصار يفوق الوصف»(١).

بالإضافة إلى اغتيال المسلمين وخصيصًا من رأوا فيه دراية وبصيرة ونشاطًا وحكمة.. ثم يقول أيضًا: «أخبرني من أثق به من ذوي المناصب العليا في الحكومة التركية إن جهات المخابرات والأمن أعدت فيما بينها قائمة بأسماء المسلمين الذين يريدون أن يغتالوهم تحتوي على أسماء ثمانية آلاف أو أحد عشر آلف مسلم»(٢).

كما ورد بصدر المقالة أن الإسلام والمسلمون في تركيا الكمالية يمرون بأزمات ومصاعب جمة، ويعانون ضغوطًا ومطاردات وملاحقات وتعذيبات لم يشهدها التاريخ أبدًا (لا في أيام هولاكو ولا في أيام أتاتورك وعصمت إينونو اللذين كُلفا في معاهدة «لوزان» من طرف سادتهما الغربيين **بالقضاء على الإسلام قضاءً باتًّا**)(٣).

ولما وصل حزب العدالة والتنمية إلى سدّة الحكم، اتخذ من العلمانية موقفًا مغايرًا، ووضع لها تفسيرًا خاصًّا؛ إذ ورد في برنامجه الحزبي ما يلي:

(يعتبر حزبنا الدين واحدًا من أهم مؤسسات البشرية، والعلمانية شرطًا أساسيًّا للديمقراطية وضمانة حرية الدين والفكر، كما أنه يرفض أيضًا تفسير وتشويه العلمانية واعتبارها عدوًّا للدين.. وبصورة أساسية تمثل العلمانية مبدأ يسمح للناس من كافة الأديان والمعتقدات بممارسة أديانهم بحرية وراحة، ويمكنهم من التعبير عن قناعتهم وحياتهم الدينية.. لذلك فإن العلمانية مبدأ حرية وسلام اجتماعي)(٤).

---

(١) نفسه (ص٩٨).

(٢) نفسه.

(٣) نفسه (ص٩٤).

(٤) نفسه (ص٩٢).

وعند زيارة أردوغان لمصر في سبتمبر ٢٠١١م أكد في تصريحاته عن التجربة التركية في التنمية والإصلاح السياسي، أكد على علمانية الدولة التركية، وأن الدولة يجب أن تكون على مسافة واحدة من كل الأديان، وأن الدين للفرد، وأن التجربة التركية تقدم نموذجًا إسلاميًّا لدولة متوازنة بين العلم والتقدم والدين.

وقد صوّر أحد الصحفيين بمصر حينذاك هذا التصريح بقوله: «ردود الفعل المتباينة جاءت من رجل الشارع العادي الذي سأل نفسه، ولماذا لا يكون عندنا أردوغان مصري يستطيع أن يضع أسس لدولة نامية متقدمة؟!».

وجاءت ردود الفعل العنيفة من التيار السلفي... إلخ[1].

ونحن نرفض هذا التعريف بقوة: إذ مهما كانت صيغة هذا البند في برنامج الحزب عن تعريف العلمانية والدفاع عنها وتقديمها في صيغة مقبولة، فإنه لا يغيّر من جوهر تعريفها الذي رسخ في الأذهان بمصادرها الغربية التي نشأت وترعرت فيها.

وقد ورد في أحد تعريفات العلمانية أنها: رؤية للحياة، أو أي أمر محدد يعتمد أساسًا على أنه يجب استبعاد الدين، وكل الاعتبارات الدينية وتجاهلها ومن ثَمَّ فهي نظام أخلاقي اجتماعي يعتمد على قانون يقول: بأن المستويات الأخلاقية والسلوكيات الاجتماعية يجب أن تُحَدَّدَ من خلال الرجوع إلى الحياة المُعاشة، والرفاهية الاجتماعية دون الرجوع إلى الدين[2].

وكان الشيخ محمد عبده من أوائل العلماء الذين فهموا حقيقتها، وحذّروا منها وأعلن رفضها مبينًا أن تسلط رجال الدين المسيحي على الدول المسيحية، فيما عرف

---

(١) رئيس تحرير مجلة صباح الخير، مقال بعنوان (السلفيون وعلمانية أردوغان) العدد (٢٩٠٧)، ٢٣ شوال ١٤٣٢هـ - ٢٠ سبتمبر ٢٠١١م.

(٢) د. السيد فرج: «جذور العلمانية» (ص١٠٥) دار الوفاء بالمنصورة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

بالحكم الثيوقراطي هو الذي أدّى بالأوروبين في مطلع العصر الحديث إلى الفصل بين السلطة الدينية والمدنية، أي النظام العلماني بينما يختلف الأمر في النظم الإسلامية التي تستبعد أصلًا فكرة تسلط رجال الدين، مهما كانت الدوافع على الناس، أو على مصالحهم، كذلك نبه الشيخ محمد عبده بصراحة ووضوح أن الإسلام يرفض العلمانية والثيوقراطية معًا[١].

وقد شهد الشيخ الذي عاصر عددًا من أسرة محمد علي في مصر فوصفه ناقدًا بقوله: «إن محمد علي أطلق نجم العلم في البلاد، ولكنه لم يفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين والأدب.. أو وضع حكومة منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل»[٢].

ويرى الدكتور السيد فرج أن محمد علي كان امتدادًا لنابليون في مصر، ومبادئ العلمانية التي أرساها نابليون وجيوشه الفرنسية، مكّن لها محمد علي بعد ذلك، بعد أن قوّض سلطة الأزهر، وأضعف نفوذ علماء الدين.. كذلك حرم المصريين من بلوغ الرتب في الجيش، لذلك لم تلبث تلك القوة، أي الجيش، أن تهدّمت واندثرت وظهر الأثر عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابي.. ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأسٍ تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها[٣].

ونحن ندرك تمامًا التحديات والصعوبات الجمة أمام حزب العدالة والتنمية التي جعلته يتحايل في تعريفه للعلمانية، ربما عملًا بقاعدة الضرورات تبيح المحظورات، وهي استثناءٌ مؤقت، ولكن من الضروري التنبيه بحزم على التفرقة بين موقف سياسي

---

(١) نفسه (ص٦).

(٢) نفسه (ص٣٢).

(٣) نفسه (ص٣٣).

ولنقارن هذا التخاذل بثورة الشعب المصري الغاضبة تحت راية الجهاد؛ حيث أرغم نابليون وجيشه على الجلاء.

(برجماتي) عملي هدفه في الخارج الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وفي الداخل لامتصاص عداء العلمانيين الأتراك الذين تربّوا على الكمالية.. ولكن من غير المقبول أن يتبنى حزب إسلامي تلك العلمانية التي صاغها وفق الضغوط التي يتعرض لها، ويتخذها منهجًا لتربية كوادره، أو تأليف الكتب الدينية الإسلامية وفق تصورها ومن ثم تنشئة أجيال لا تفقه دينها ولا تعرفه على حقيقته، وقد يؤدي إلى ضياعها، بل لابدّ من الاستمساك بعقيدة أهل السنة والجماعة، والعض بالنواجذ على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ كما أمر، وكما فهمه حق الفهم وطبّقه من أهل القرون المفضّلة الأولى ومن سلك طريقهم إلى يومنا هذا، وهو ما استقرَّ عليه إجماع علماء المسلمين الملتزمين بمنهج الكتاب والسنة، ولا يزيغ عنهما إلا هالك. وبيان ذلك أن كل من يدرس الإسلام بمصادره وتراث علمائه وتطبيقه في الحياة الاجتماعية والسياسية وشئونها كلها على مدى تاريخه ليدرك مدى شموله من حيث تنظيم الحياة الإنسانية بكافة شعبها مما يتعارض تعارضًا تامًّا مع العلمانية، مهما حاول البعض تلميعها وإضفاء صفات المدح والإطراء عليها، أو تمييع تعريفها منذ نشأتها في الغرب المسيحي.

يقول الأستاذ محمد أسد المهتدي للإسلام: (ليوبولد فايس سابقًا): «إن شريعة الإسلام منهاج حي يدفع بموكب البشرية إلى الأمام، منهاج يسود نفسه، مستقل كل الاستقلال عن التغيرات التاريخية، ولهذا فهو قابل للتطبيق والعمل في كل العصور وفي كل الظروف، منهاجُ سوف لا يعوق تطورنا الاجتماعي بل على العكس من ذلك سيساعدنا على التطور، وسيجعل مجتمعنا الإسلامي أكثر المجتمعات في العالم نشاطًا وحيوية واعتمادًا على النفس»[1].

(١) محمد أسد: «منهاج الإسلام في الحكم» (ص١٧٣) ترجمة منصور، محمد ماض -دار العلم للملايين/ بيروت، ط٢ كانون الثاني ١٩٦٤م.

ويرى الأستاذ المودودي أن العلمانيين يريدون الفصل بين شئون الدين والدنيا، فعلاقه الدين عندهم هي من الأمور التي تكون بين الإنسان وربه، أي أمور العقيدة والعبادات، فلا ضرورة لإقحام الدين في الأمور الدنيوية[1].

وبمهنج المقارنة يقرّر إنْ كان هذا التصوّر للدين يطابق التصور النصراني للدين، فإن التصور الإسلامي للدين يختلف تمامًا، فيقول: «إن الإسلام ليس دينًا من هذا النوع الذي يعطي الإنسان بعض العقائد وبعض الطقوس الدينية المنفصلة عن الحياة الدنيوية حتى ينال في النهاية عن طريق إقامتها شهادة تضمن له النجاة في الحياة الآخرة، بل الإسلام في الأصل حضارة جامعة فهو يعتبر الدنيا «**مزرعة الآخرة**» وينظم جميع شئون الحياة حتى يسلك الإنسان سلوكًا طيبًا في هذه الدنيا، وحتى ينال الفلاح الأخروي في هذه الحياة نتيجة لهذا. ومن أجل هذا الهدف فقد حدد الإسلام للمسلمين نظامًا كاملًا للحياة يختلف من جميع الأنظمة الأخرى[2].

ويحدّد الإمام المودودي العلاقة المتينة بين الإسلام كمنهج فكري خاص ومنهج عملي أيضًا، وهما يشكلان معًا (الحضارة الإسلامية) التي قدَّمت الحلول لقضايا الحياة، والإجابة على جميع الاستفسارات الخاصة بحقوق الله على الإنسان، وحقوق الإنسان نفسه على نفسه، وحقوق الوالدين عليه، وحقوق الزوجة والأولاد، وحقوق الأصدقاء والأقرباء، وحقوق الجيران ومن يتعامل معهم، وحقوق أهل دينه جميعًا، وحقوق غيرهم من أهل الذمة، وحقوق أعدائه وأصدقائه، وحقوق الجنس البشري أجمع، وحقوق الكائنات كلها[3].

---

(١) المودودي: «المسلمون والصراع السياسي الراهن» (ص٧٦).

(٢) نفسه (ص٨٢).

(٣) أبو الأعلى المودودي: «المسلمون والصراع السياسي الراهن» (ص٧٣) إعداد د. سمير عبد الحميد إبراهيم -دار الأنصار بالقاهرة -رمضان ١٤٠١هـ، يوليو ١٩٨١م.

وقد كتبه ١٩٣٧م في الوقت الذي فشلت فيه حركة إحياء الخلافة، ذاكرًا أنه على أثرها ابتلي المسلمون بارتباك فكري جعل القلوب تدمي.

وكتب أيضًا الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -وكان شيخًا للأزهر- كتب تحت عنوان «**ضلالة فصل الدين عن السياسة**»، فقال: «ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر الإسلام: عموم رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتمال شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع، وكون هذه الشريعة أحكم ما تُسَاسُ به الأمم، وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح أو التنازع في الحقوق.

وأجمع علماء المسلمين على هذه الحقائق وعرفها عامتهم، فَمَنْ أنكر واحدة منها فقد ابتغى في غير هداية الإسلام سبيلًا، ومثل من يماري في شيء منها ثم يدعي أنه لا يزال مخلصًا للإسلام، مثل من يضرب بمعوله في أساس بناءٍ شامخ ثم يزعم أنه حريص على سلامته، عامل على رفع قواعده!»[(١)].

وبمثل هذا الحسم القاطع لأحد فقهائنا الراسخين في العلم، ينبغي الكف عن إثارة اللّغط مرة أخرى عن صلة العلمانية بالإسلام، ولا سيما أنها أفلست في موطنها كما أثبت ذلك الباحث الفرنسي (جيل كيبل) ويقول أيضًا كاتب آخر هو إيرفينج كريستول، وهو من المحافظين الجدد: «إن العلمانية، وهي الأيديولوجية التي سادت في المجتمعات العربية خلال القرنين الماضيين، **قد ماتتِ بالسكتة القلبية**، فهي غير قادرة على مواجهة الاضطرابات الروحية التي تعد جذور الفوضى الأفريقية في الغرب[(٢)].

موقف د. زكي نجيب محمود من العلمانية:

وعلّة اختيارنا لعرض آراء الدكتور زكي نجيب محمود رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى راجع إلى أنه بحكم نشأته اطلع على الثقافة الغربية بحقولها المختلفة، واعتبر نفسه من الجيل الذي عاش في قبضة المستعمر.. ولكنه عندما أحس بالافتقاد إلى الثقافة الإسلامية والاطلاع

(١) الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين: «ضلالة فصل الدين عن السياسة» (ص٤٣) تحقيق د/ محمد عماره هدية مجلة (الأزهر).

(٢) جيل كيبل: «ثأر الله -الحركات الأصولية في الديانات الثلاثة» (ص٥٩).

على التراث، كان حصيلة ذلك إصدار حكمه على هذا الجيل بأنه عانى من حالة التمزق؛ لأنه عانى من الحضارة الغربية التي وصفها بأنها **غازية غالبة متسلطة**.. وسرعان أن استعاد توازنه بعد قيامه في أعوامه الأخيرة لتعويض ما افتقده من تراث آبائه، وعندئذٍ اقتنع بأنه في وسعنا أن نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا في بناء الحضارة المعاصرة(١).

ويقول في مقدمة كتابه (عن الحرية أتحدث) والمطلوب هو عودة الضال إلى طريق آبائه، وليس من شك في أن الأصيل عائد إلى أصله كما يكون للشمس شروق جديد بعد كل غروب، وبالله التوفيق(٢).

وعندما قرأ التاريخ الإسلامي بعناية منذ عصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبحكم ثقافته المزدوجة (الغربية والإسلامية) أصدر الحكم الصائب على العلمانية التي توهمت أن الإسلام (دين) لا (دولة)، كما سيتضح لنا عند عرض آرائه تفصيلًا في الفصل التالي، مع إضافة دراسة أخرى من منظور الفقه السياسي؛ حيث انتهت إلى تأكيد أن الإسلام يجمع بين النظامين: السياسي والديني.



---

(١) د. زكي نجيب محمود: «تجديد الفكر العربي» (ص٥-٦) دار الشروق، القاهرة ١٩٨٢م.

(٢) د. زكي نجيب محمود: «عن الحرية أتحدث» (ص٧) دار الشروق -نوفمبر ١٩٨٦م.

فصل

الرد على العلمانيين:

(الإسلام دين ودولة)

يعرِّف الدكتور زكي نجيب محمود الإسلام من حيث هو دين (له أركانه الخمسة التي يعرفها كل مسلم ويلتزمها)، فهو يؤكد فكرة الالتزام بأركانه، ومن حيث الشريعة له أحكامه التي يفصلها لنا علماء الفقه، فنعتز بها أحكامًا تضبط مناشط حياتنا، أي أنه لا يقتصر على العبادات فحسب[(١)].

وقد توسّع في عرض تنظيم الدولة في الإسلام فذكر القطاع الحربي وفيه (أمراء القتال وجنده) وكتّاب الجيش، وفارضو العطاء، والعرفاء رؤساء الجند.. إلخ.

وعلى النواحي كان هناك ولاة وأمراء الأقاليم، وفيها كان القضاة وعمال الجباية والخراج.. والقائم على الحمى.. وصاحب المساحة، وعمال الزكاة والصدقات، والخارصون للثمار، كما كان هناك (فارضو المواريث) و(فارضو النفقات).. إلخ.

كذلك كان هناك من يقوم بمهمة (المحتسب) و(صاحب العسس)، و(متولي حراسة المدينة)، و(العين: الجاسوس..) و(السجّان)، و(المنادي) و(مقيم الحدود) و(متولي التطبيب والعلاج)... إلخ.

وعند الغزو، كان هناك (أمراء الجهاد) و(المستخلفون على المدينة) ومن (يستنفر الناس للقتال) و(صاحب السلاح) و(صاحب اللواء) و(أمراء أقسام الجيش الخمسة)، و(حراس القائد) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و(القائمون على متاع السفر)، ومن (يخذلون الأعداء). ومن (يبشرون بالنصر)... إلخ.

ويبدو من اطلاعه الواسع على كتب التراث، أنه استخرج مثل هذه الوظائف من بطون الكتب وربما كدنا ننساها بسبب غياب تطبيق الشريعة، ويظهر من التعقيب على كل وظيفة بكلمة (إلخ.. إلخ..) -وكان حريصًا على أن يذيل بها الوظائف- ليعرف

---

(١) زكي نجيب محمود: «قيم من التراث» (ص١٧٢) مكتبة الأسرة، سنة ١٩٩٩م.

القارئ أنه اختصر في عرضها ولم يتحدث إلا عن أهمها؛ إذ يستطرد قائلًا: «وكثير من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها الذين عيّنهم الرسول ﷺ فيها ابتداء»..

فنحن أمام دولة اكتملت لها المعالم والمقومات.. نشأت كضرورة اقتضاها الدفاع عن حرية العقيدة الجديدة وحرية الدعوة والدعاة للدين الجديد.. وكضرورة لإقامة شريعة الإسلام، وتنظيم المجتمع الذي قام بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ»[1].

ونراه قد أجاد في تصور الجهاد في الإسلام لتحقيق الحرية للناس في اعتناق الإسلام أمام قوى البطش التي تريد استعباد الشعوب وإذلالها لتحول بينهم وبين اختيار العقيدة التي تحقق لهم القيم والفضائل والحياة الإنسانية الطيبة، ولا نستبعد أنه استوحى مثل هذا التصور من اطلاعه الواسع، وقد سبقه إلى هذا التفسير أيضًا المهتدي للإسلام (محمد أسد)؛ إذ علل الفتوحات الإسلامية بقوله: (ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع في رغد العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحي، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل.. ويستطرد قائلًا: (فإن الفضيلة -كما يقول الإسلام- تحيا إذا جاهد الإنسان لبسطِ سلطانها على الأرض وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها)[2].

ونعود للدكتور زكي نجيب محمود الذي يتساءل بعد عرضه للدولة الإسلامية (فهل هناك بعد هذا الذي قدمنا مجال لزعم علماني يدّعي أصحابه أن الإسلام (دين) لا (دولة) ورسالة روحية محضة، لا علاقة لها بسياسة المجتمع.. وأن رسوله ﷺ ما كان إلا رسولًا، كالذين سبقوه لم يُقِمْ دولة؟، ولم يرأس حكومة، ولم يسيّس المجتمع

---

(١) زكي نجيب محمود: «قيم من التراث» (ص٤٦-٤٧).

(٢) محمد أسد: «الإسلام على مفترق الطرق» (ص٢٩) نقلًا عن الإمام أبو الحسن الندوي بكتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) (ص١٢١) دار الكتاب العربي -بيروت ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

الذي عاش فيه؟!..) ثم يقرر بحسم وقطع: (لا نظن أن هناك مجالًا لزعم الذين أجهدوا الحقيقة ليقرروا علمانية الإسلام).

ولا يفوتنا أيضًا تسجيل رأيه في دولة الإسلام؛ حيث يتميز عن (دولة الكهانة) و(الدولة الدينية) التي عرفتها الحضارات غير الإسلامية، تستبد بها فئة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق الإلهي[١].

ويستشهد في ذلك بحرب الرّدة أيام أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليستخلص منها أن وجود (دولة الخلافة يومئذٍ) -كانت ضرورة مدنية وواجب سياسي- كان السبيل لتنظيم (الزكاة) التي هي واجب ديني، وركن من أركان الدين الإسلامي.. وهذا هو المعنى الحقيقي والعميق لعبارة أبي بكر، التي حسمت الحوار الذي دار حول مشروعية قتال هؤلاء المرتدين عن وحدة الدولة الإسلامية: إن الزكاة هي حق لا إله إلا الله. (والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدّونه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم عليه..) وبهذا المنطق، الذي ربط به أبو بكر الدين والدولة، شرح الله صدر عمر بن الخطاب لرأي أبي بكر الصديق في هذا الموضوع الخطير.

ويستطرد الدكتور زكي نجيب محمود ليقطع برأي حاسم أمام الذين يخلطون بين الحكومة في الإسلام، والحكومة الدينية التي عرفها الغرب في العصور الوسطى، فيقول: «بل لعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن وجود دولة الخلافة التي حماها الصحابة ودعموها بقتالهم للمرتدين -رغم طابعها المدني، وانتفاء وصف (الواجب الديني) والفريضة الدينية، والدولة الدينية عنها- إن وجودها كان السبيل لما هو أكثر من إقامة (فريضة الزكاة الدينية) كركن من أركان الدين؛ إذ إنها كانت السبيل لإقامة الإسلام كله كدين.. فالدولة هي التي نشرت الإسلام خارج شبه الجزيرة.. بعد أن أعادت رفع أعلامه التي

(١) زكي نجيب محمود: «قيم من التراث» (ص٤٧).

طواها العرب المرتدون.. ولولاها لتهددت الإسلام مخاطر أن يصبح مجرد نِحْلة من النِّحَل التي عرفها التاريخ، أو ديانة يقف شرف التدين بها عند قلة من الناس.. لقد كانت هذه الدولة هي الأداة التي تحقق بها وعد الله سبحانه في قرآنه الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩](١).

ولم يقف به التصور الإسلامي الشامل إلى بيان صلة الإسلام بنظام الحكم وإقامة العدل، بل امتد ليشمل تحقيقه لرغبات الإنسان في شُعَبِ الحياة الإنسانية، فإنه انتهز فرصة لإلقاء محاضرة عن الإسلام في إحدى جامعات أمريكا، وكان يعلم مسبقًا بجهل الأمريكيين بالإسلام مقرونًا في أنفسهم بشعور يميل بهم نحو الحكم الظالم.

وقد استخدم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيلة بارعة في تقديم محاضرته، فلم يصرّح في بداياتها بأنه سيتحدث عن الإسلام -لأنه يعرف شعورهم نحوه- بل أخذ- كما يقول: «أرسم له صورة ثقافية حضارية نتمنى جميعًا أن تتجه الإنسانية إلى تحقيقها، فما صورة الإنسان الفرد كما نريد له جميعًا أن يكون؟ ما هي صورة الروابط التي نتمناها جميعًا أن تربط الأفراد في المجتمع؟

وهكذا مضيتُ في حديثي معهم وكأن موضوعنا هو مستقبل الإنسان ومستقبل الثقافة ومستقبل الحضارة.. حتى إذا ما بلغتُ بحديثي حدًّا ظفر منهم بالموافقة والرضا؛ قلت لهم:

لكن هذه الصورة التي رسمتها لكم أيها السيدات والسادة هي صورة الإسلام!!

فقال أحدهم قولًا شديد الشبه بما قاله مسيو جوردن لمعلّمه في مسرحية (موليير) قال: «أكنا إذًا طوال زماننا مسلمين ونحن لا ندري؟»(٢).

(١) زكي نجيب محمود: «عن الحرية أتحدث» (ص٣٩).
(٢) زكي نجيب محمود: «قيم من التراث» (ص٣٦٨).

كذلك يضفي على العقيدة أهميتها الخاصة كأداة مقاومة في الحرب مع إسرائيل؛ إذ يرى أن قوة العقيدة لا تقل شأنًا عن قوة الجيش والطيران والأسطول وقوة السلاح الذري وغير الذري من نتاج العلم التكنولوجي الجديد، فإذا وازن بين طرفين أحدهما هو قوة الوسائل المادية، والآخر هو قوة العقائد والأفكار، كان السداد في اختيار الطريق الثاني.. (هذه هي حركة التاريخ، لن يشذ فيها صراع الأمة العربية مع إسرائيل)[1].

ولنقارن بين التصور الإسلامي للإنسان وبين حضارة الغرب:

يقول د. زكي نجيب محمود: «وأما عن حياة الروح.. فأهم ما يرد عنها الخاطر، هو عبادة الله جَلَّ شأنه، وعلى الرغم من أن العبادة في معظم أركانها تعتمد على الجسد فالشهادة ينطق بها اللسان ومعه سائر أجزاء الجهاز الصوتي، والصلاة وقوف وركوع وسجود ونطق، والحج طواف ووقفة على عرفات وعبارات تقال ورمي للجمرات.. إلخ.. وكلها يؤديها الجسد، أقول: إنه على الرغم من أن الجسد أداة ضرورية لأداء العبادات إلا أنه في ذلك مجرد أداة، وأما الغاية فهي شأن الروح التي لا يعرف أمرها وسرها إلا ربها»[2].

الإسلام يضفي على الحياة المعنى المفتقد في حضارة الغرب:

وفي وصفه لأهل الغرب، يرى أنهم يسعون بلا هدف نهائي وهدفهم الحاضر هو تحصيل لقمة العيش، ومع التقدم العلمي الذي أنتج الآلات ربما سأل سائل: (وماذا جناه الإنسان من العلم وآلاته؟).

---

(١) زكي نجيب محمود: «ثقافتنا في مواجهة العصر» (ص٣١٩).
ويرى الدكتور زكي نجيب محمود أن هناك تشابهًا بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فكلتاهما أرادت أن تنزع شعبًا من أرضه لتأخذ مكانه. وفي ذلك أفلحت أمريكا بالفعل، وفي ذلك أيضًا أرادت إسرائيل أن تفلح.
كذلك يؤيد الرأي القائل بأن الاستعمار الأمريكي الجديد الذي حَلَّ محل الاستعمار بصورته الكلاسيكية ولكنه استحدث لنفسه أساليب جديدة ينفذ بها إلى الشعوب الآسيوية الأفريقية وذلك عن طريق السيطرة الاقتصادية والعقلية والجسمية بواسطة مجموعة صغيرة ولكنها دخيلة. المصدر نفسه (ص٣١٧).

(٢) د. زكي نجيب محمود: «في مفترق الطرق» (ص٤٥) ط. الشروق ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

وفي غياب الإجابة نشأ في أهل الغرب ما نشأ من قلق ومن شعور بالاغتراب؛ (لأن الواحد منهم يحس كأنه انسلخ عن ذاته ليصنع أشياء الآخرين)[١].

ويرى أن المذاهب الفلسفية المعاصرة أسهمت في الإحساس بالقلق، فهي ذات اتجاهين:

الأول: ينصبُّ على العلم في بنيته ومنهجه، **والثاني:** يصبُّ اهتمامه على حياة الإنسان نفسه (وكلا الاتجاهين -كما نرى- لا يفسح مكانًا لما هو وراء هذه الحياة بتاريخها الماضي وعلمها الحاضر؛ إذ هو لا يهتم بما كان من قبل الحياة ونشأتها، ولا بما سوف يكون بما بعد فنائها.. فإذا سأل: وماذا بعد؟ فإنه يشعر بالقلق والاضطراب؛ لأنه لا يجد الجواب)[٢].

ثم يستطرد الدكتور زكي نجيب محمود قائلًا: «لكن المسلمين عندهم في ديانتهم الجواب، فالصورة في عقيدتهم الدينية لما سوف يكون بعد فناء الأرض وما عليها ومن عليها صورة واضحة بكل تفصيلاتها، **فهنالك البعث والنشور، وهنالك الحساب وهنالك الثواب والعقاب.. وهنالك العدالة بأدق موازينها**»[٣].

ولم يفته أيضًا الإجابة عن سؤال آخر، وهو (فيم الحياة وشقاؤها؟) فيجيب: «إنك تحيى بأمر الله وتعمل بطاعة الله، وسيكون يوم الحساب موعدًا لإقامة العدل فيما قدّمت يداك، وبهذا تنتفي دواعي القلق والاغتراب وغير ذلك من الحصاد المر الذي تغصُّ به حلوق المعاصرين»[٤].

---

(١) د.زكي نجيب محمود: «قيم من التراث» (ص١٣١). الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م. دار الشروق.

(٢) د. زكي نجيب محمود: «قيم من التراث» (ص١٣٢).

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

وبهذه الإجابة الواضحة يضيف المسلمون إلى حضارة العصر معنى الحياة، ويقول: «إننا لا نرفض العصر، بل نضيف إليه ما ينقصه»[(١)].

خلاصة الرد على العلمانية:

ويقتضي ذلك تناول مسألتين:

الأولى: الزعم بأن الدين هو مجرد علاقة بين العبد وربه، وأنه مسألة قلبية يكفي فيها الخلوص وحسن النية إلى ما أشبه ذلك من الأقاويل..

ويرى شكيب أرسلان أنه قول داحض إذا دقق المفكر فيه النظر ظهر له بطلانه، فإن الدين لأجل أن يُصَانَ في القلوب، وأن تعتصم به الشعوب يجب أن توقر شعائره الظاهرة، كما يجب أن تخلص فيه النية الباطنة، وأن يكون بعيدًا عن التصرف والتغيير والتبديل الذي يؤول بالعقائد إلى الفوضى وربما انتهى بزوالها بالمرة.

لقد سنَّت البشر كلها قوانين تجزي بالشر كل من يخرق هيبة الملك أو يمس مقامة الحكومة، ملكية كانت أو جمهورية، وما كان ذلك إلا حرصًا على بقاء تلك الهيبة في صدور الناس، وتفاديًا من أن تقتحمها العامة فيضعف بذلك الوازع الضروري بين البشر، وكما كانت هيبة الملك ضرورية فهيبة الدين أيضًا ضرورية، ومن أهم شروطها حرمة نصوصه وتقديس آياته كما نزلت[(٢)].

الثانية: القول بأن الرسول ﷺ لم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس، ومن ثمّ بأن الحكومة والملك من أغراض الدنيا، والدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات، أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركَّب فينا من عقول. وأن كل ما شرعه الإسلام من العقوبات والجيش والجهاد

---

(١) نفسه.

(٢) شكيب أرسلان: «حاضر العالم الإسلامي» (جـ٣) (ص٣٧٠).

والبيع والرهن وغير ذلك لم يكن مظهرًا للحكومة.. وإن ما أخذ به النبي ﷺ المسلمين من أنظمة وقواعد وآداب، لم يكن في شيء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسي ولا من أنظمة الدولة المدنية(١).

وهذا القول يدحضه تاريخ الدعوة الإسلامية وسيرة الرسول ﷺ؛ حيث يتبين للباحث المدقق الأمين أن نواة المجتمع الإسلامي تكونت في العصر النبوي، وفيه تقررت قواعد الإسلام الأساسية العامة، ومما يدلُّ على ضرورة الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ وهي أساس النظام السياسي في الإسلام -ما حدث في اجتماع- السقيفة، أول مؤتمر سياسي عُقِدَ في الإسلام وتمَّ في اللحظة التي لحق فيها الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وقبيل إنهاء مراسم تشييع الجنازة، مما يشي بأهمية الأمر وخطورته(٢).

هذا، وقد خلص الدكتور الطاهر أحمد مكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من دراسته حول موضوع الخلافة أو (الإمامة الكبرى في الفكر الإسلامي)، خلص إلى تقرير أن (نظام الدولة في العصر النبوي) كان سياسيًّا بالمعنى الحديث للكلمة، إذا نظرنا إلى غاياته ودوافعه ومصادره رغم طابعه الديني الواضح؛ لأن الإسلام نظام شامل، يتناول حياة الفرد من جانبها المادي والروحي، الدنيوي والأخروي، وهما مرتبطان لا انفكاك بينهما، وهو أمر لا يختلف عليه أحد، ذلك أن الإسلام ليس مجرد عقائد دينية فردية، وإنما هو مجتمع متكامل له أسلوبه في الحكم وقوانينه وأنظمته الخاصة به.. ثم يقول: «-وأنا هنا أستعيره معذرةً- مقولة للمستشرق الإيطالي (كارلو نللينو) **ولقد أسس محمد** ﷺ، **في وقت واحد دينًا ودولة، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته**»(٣).

---

(١) باختصار: علي عبد الرازق: «الإسلام وأصول الحكم»، نقلًا عن د/ محمد حسين: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (جـ٢) (ص٨٨) ط٢ مكتبة الآداب بمصر ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

(٢) د. الطاهر أحمد مكي، مقال بعنوان (الجواهر المضيئة في بيان الآداب السلطانية للإمام عبد الرءوف المناوي نموذجًا) (الإمامة الكبرى في العصر الإسلامي) مجلة المنار الجديد -صفر ١٤٣٢هـ، يناير ٢٠١١م (ص١٩).

(٣) نفسه (ص١٨).

الردّ على العلمانية من منظور الفقه السياسي الإسلامي:

إن مفترق الطرق إذن بين الفكر الإسلامي والعلمانية، هو إنكارها لأحد السمات الكبرى للإسلام وهو شموله لكافة النظم التي تحتاج إليها البشرية في الاجتماع والاقتصاد والسياسة الشرعية والتعليم والأخلاق، مع تنظيم العلاقات الدولية أيضًا بين الدولة الإسلامية وغيرها من دول العالم، بينما ينادي دعاة العلمانية بضرورة فصل الدين عن السياسة وتأثروا بما توهموه حدث في تاريخ أوروبا، واتخذوا من أتاتورك أسوة لهم.

وقد وصف شكيب أرسلان ذلك بقوله: «ولقد روّج هذه الأغلوطة مصطفى كمال رئيس جمهورية أنقره لغرضٍ في نفسه من جهة سلخ الترك تدريجيًّا من العقيدة الإسلامية وصرفهم من اللغة العربية، فسار بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامي أجنبيًّا عن الحكومة التركية.. وتابعه في ذلك الحزب الذي هو من أوّله إلى آخره أشبه بجندٍ لمصطفى كمال تحت قيادته لا يملكون معه قبضًا ولا بسطًا»[١].

ويلزمنا تصحيح هذه الأغلوطة العارية تمامًا عن الصحة، الرجوع إلى المصادر التاريخية والبحوث الجادة التي اتخذت من هذه القضية موضوعًا للدراسة وفق منهج علمي موثّق مع تتبع تاريخ الإسلام منذ عصر النبي ﷺ واستقراء النظام السياسي من السيرة النبوية، وما سلكه الخلفاء الراشدون بعد النبي ﷺ.

لذلك وقع اختيارنا على كتابٍ عنوانه (**خصائص الفكر السياسي في الإسلام وأهم نظرياته**)[٢] تأليف د/ محمد جلال شرف، ود/ علي عبد المعطي محمد، وكانا رحمهما الله تعالى من أساتذة قسم الفلسفة بكلية الآداب –جامعة الإسكندرية:

---

(١) شكيب أرسلان: «حاضر العالم الإسلامي» (جـ٣) (ص٣٥١).

(٢) والكتاب يقع في نحو ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير، نشر دار الجامعات المصرية بالإسكندرية عام ١٩٧٥م. وهو مقسم إلى تسعة فصول هي: =

في مقدمة الكتاب أعرب المؤلفان عن الغرض منه، وهو إثبات أصالة الفكر الإسلامي السياسي، وأن الحضارة الإسلامية تميّزت بقيم إنسانية أخلاقية لا نجد لها مثيلًا في الحضارات والإمبراطوريات السابقة على الإسلام، والرد على بعض المستشرقين المنكرين لأصالة الفكر الإسلامي، وبخاصة في ميدان السياسة، مع التأكيد أن الفكر السياسي وفلسفته عند علماء المسلمين ومفكريهم لا يزال في حاجة ماسة إلى كشف ودراسة واعية متعمقة، دراسة تقوم على أساس من النزاهة والموضوعية والحيدة العلمية[1].

ثم قالا: «فلقد ساد الاعتقاد أن الفكر الإنساني عامة، وفلسفة السياسة خاصة وقف على مفكري اليونان الأقدمين وورثة فكرهم في العالم الغربي الحديث، ولكن مثل هذا الاعتقاد لابد أن يتعدل من أساسه في ضوء تجربة العالم المعاصر الذي بدأ يهتم بدراسة وفحص ما انطوت عليه الحضارات العريقة الأخرى من أفكار ونظريات علمية وفلسفية لا تقل -إن لم تزد- أصالة وعمقًا عن حضارة الغرب الحديثة؛ فالحق الذي لا جدال فيه، **أن الحضارة الإسلامية كانت سبّاقة في مجال التنظيم السياسي، وأكّدت من عناصره ومقوماته ما يحتاج عالم اليوم إلى الاهتداء به.**

= **الأول:** الأوضاع السياسية والاجتماعية قبل نزول القرآن.

الثاني: ماهية الدولة في القرآن.

الثالث: الحركات السياسية والدينية ونظام الحكم بعد موت الرسول ﷺ حتى آخر العصر الأموي.

الرابع: الحالة السياسية ونظم الحكم في العصر العباسي.

الخامس: الفكر السياسي ونظام الحكم عند أبي الربيع.

السادس: الفكر الفلسفي السياسي عند الفارابي.

السابع: الفكر السياسي ونظام الحكم عند الماوردي.

الثامن: الفكر السياسي ونظام الحكم عند نظام الملك الطوسي.

التاسع: الفكر السياسي الإسلامي عند أبي حامد الغزالي.

(١) المقدمة (ص٥).

وسوف يجد القارئ من خلال دراستنا للفكر السياسي الذي يحتوي عليه هذا الكتاب بفصوله التسعة، مدى جهل الأوروبين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جهلًا تامًّا الخصائص أو طبيعة الفكر السياسي عند المسلمين، بل إنهم على نحو أدق -كانوا يعطون أحكامًا مسبقة ضد المسلمين وتذهب إلى أن المسلمين- لم تكن لديهم رؤية واضحة للفكر الإسلامي السياسي، وأن دينهم وثقافتهم الخاصة كانتا خلوًا من أي فكر سياسي. وقد جاء هذا الكتاب ليدحض وليهدم هذا الزعم الباطل من جانب مفكري أوروبا في العصر الحديث، ونستطيع أن نؤكد أن الشعوب الشرقية الإسلامية قد ساد فيها تقدم منظم بفضل استغلال علماء المسلمين وفقهائهم ما منحه الله للإنسان من خيرات دنيوية على أساس من الكتاب والسنة. ولقد استمر هذا التقدم بخطوات ثابتة في المجالين الدنيوي والديني لمدة تزيد على خمسمائة عام. كان هذا حال المسلمين، في الوقت الذي شهد فيه العالم الأوروبي فترة ظلام دامس في تاريخه؛ حيث قامت الحروب المدنية وحركات الطغيان الديني، فتلاشى سلطان الحكومة وحَلَّت الفوضى وعم الفساد[1].

وقد عُنيا بصفة خاصة بإبراز فيصل التفرقة بين خصائص الفكر السياسي ونظرياته عند المسلمين وبين ما نجده في الفكر السياسي الأوروبي الحديث، هو أن مفكري الإسلام قد أوجبوا قيام السياسة على الأخلاق حتى تنتظم أمور الدولة التي يجب أن تقوم على العدل وحسن العلاقة بين الحاكم والرعية...

وقد أثبتا ذلك من دراسة أمثال ابن أبي الربيع، والفارابي، والماوردي، ونظام الملك الطوسي وأبي حامد الغزالي... وهؤلاء الذين قامت دراسة نظرياتهم السياسية بناء على خبرتهم وحنكتهم السياسية إلى جانب عقيدتهم الدينية وثقافتهم المستمدة من الكتاب

---

(١) نفسه (ص٦).

والسنة وذلك على العكس من مفكري أوروبا الذين فصلوا السياسة عن الأخلاق، وعدم ارتباط نظرياتهم بأية خبرة أو تجربة سياسية قاموا بها[(١)].

نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة:

وضع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة بعد الهجرة أول ميثاق من مواثيق الحكم كأساس الدولة الإسلامية[(٢)] التي أصبح فيها المؤمنون والمسلمون من رعاياها مهما اختلفت أجناسهم وعصبياتهم، وصاغَ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الميثاق، بحيث تتعاقد هذه الأمة بتلك الصحيفة مع أمم أخرى من ديانات أخرى، فنشأ في أول تعاقد لها ميثاق لـ«جمعية أمم» أساسه النصر للمظلوم والنصح والنصيحة، والبر دون الإثم وحرمة الأوطان المشتركة، وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان، فهو ميثاق من الأمم الإسلامية واليهودية بل الوثنية، لما في المدينة حينئذٍ من الوثنيين مع طوائف الميثاق المكونين لأطراف العقد، ولو كان في المدينة حينئذٍ مسيحيون لنصَّ عليهم الميثاق[(٣)].

يقول المؤلفان: «وليس معنى هذا أن النظام الإسلامي لم يبدأ إلا في المدينة، فقد بدأ هذا النظام فعلًا من قبل، غير أن فترة ما قبل الهجرة كانت بالنسبة للدولة الإسلامية مرحلة تمهيد وإعداد للمرحلة الثانية التي جاءت بعد الهجرة، ففي الأولى وجدت نواة المجتمع الإسلامي وتقررت قواعد الإسلام الأساسية بصفة عامة، وفي الثانية تم تكوين هذا المجتمع، وفصّل ما أجمل من القوعد وأكمل التشريع وبدئ بتنفيذ وتطبيق المبادئ

---

(١) نفسه (ص٦).

(٢) نفسه (ص٥٥).

(٣) عبد الرحمن عزام: «الرسالة الخالدة»، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (ص٨٧)، نقلًا عن خصائص (ص٦٠).

جميعًا. فظهرت الحركة الإسلامية بصورة جديدة أدت إلى وجود مجتمع منظم على قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد[١]، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبدأ هذا المجتمع السياسي -المجتمع الإسلامي في المدينة- حياته الفعلية وأخذ يؤدي وظائفه ويحوّل المبادئ النظرية إلى أعمال بعد أن استقر في موطنه الجديد، وضَمَّ إليه عناصر جديدة واستكمل حريته وسيادته، فوجدت الدولة الإسلامية الأولى حرية كاملة السيادة ووضعت المبادئ الأساسية للتشريع الإسلامي، ولم تكن هناك أية وظيفة من وظائف الدولة إلا قامت بها على أسس وقواعد مقررة[٢].

ويُستخلص من ذلك أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استطاع أن يجعل نفسه في المدينة على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذه في النمو، يتطلعون إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زعيمًا وقائدًا ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه دون إثارة أي شعور من القلق أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها، وهكذا باشر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلطة زمنية كالتي يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل مع فارق واحدٍ هو أن الرباط الديني بين المسلمين يقوم مقام رابطة الأسرة والدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام نظامًا سياسيًّا بقدر ما هو نظام ديني[٣].

كذلك لم تكن شريعة الدولة الإسلامية المنزلة بكتاب الله هي شريعة دولة حديثة city state كتلك التي أشاد وتمسك بها الإغريق القدامى، ولم تكن هذه الشريعة قانون الدولة القومية national state المحددة تاريخًا وإقليمًا وثقافة ولغة.. إلخ، كما لم تكن

---

(١) ولكن هنا لم يكن إلا مجرد إظهار لما كان مضمرًا، وإعلان لما كان مستترًا، فقد كانت فكرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة، وكانت هي أيضًا ما يتصوره خصومه عن هذا المجتمع الديني الجديد الذي أقامه أنه سينظم تنظيمًا سياسيًّا، ولن يكون مجرد هيئة دينية منفصلة متدرجة تحت حكومة زمنية:
H.A.R.Gibb (جيب) Mohammedaniam. p.27.

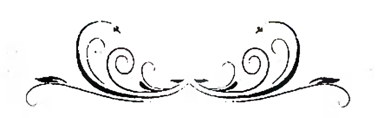
(٢) نفسه (ص٦١).

(٣) نفسه (ص٦٤).

الشريعة في هذه الدولة هي دستور الإمبراطورية التي تتسع فوق الأقاليم ولا تعترف بالحدود؛ لأن الإمبراطورية كان يتزعمها إمبراطور دنيوي يحكم بالبطش والسلاح، وإنما كانت الشريعة متجهة مباشرة إلى إقامة دولة عالمية يسودها العدل والإخاء، وتلتزم بالأوامر الإلهية وتدعم مبادئ الأخلاق، وتقيم المساواة الحقيقية بين الناس تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣][(١)].

تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه

وصلاته وأزكى تسليماته على سيدنا محمد نبيه وعبده، وعلى آله وصحبه



(١) (ص١٠٤) بتصرف يسير.

الملاحق

ملحق رقم ١

الراعي: لا سلام في الشرق الأوسط من دون حل للقضية الفلسطينية

الحياة اللندنية

٣٠ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

١٨/١٢/٢٠١٧م

* بيروت - «الحياة».

أكد البطريرك الماروني بشارة الراعي أن «الشرق الأوسط لن يعرف السلام ما لم تجد الشرعية الدولية حلًّا عادلًا ودائمًا وشاملًا للقضية الفلسطينية، يضمن للشعب الفلسطيني حقه المشروع بأن تكون له دولته الخاصة على الأرض التي عاش فيها طوال قرون، وسقاها بعرق جبينه، ورواها بدماء شهدائه».

وقال الراعي في عظة قداس الأحد في كنيسة التجلي، في بلدة رميش الحدودية، بعد تدشينها أمس: «لا يمكن القبول بتهويد القدس، كما يرمي إليه قرار الرئيس الأميركي دونالد ترامب الذي أعلن القدس عاصمة لإسرائيل وأمر بنقل السفارة الأميركية إليها من تل أبيب» مشددًا على «ضرورة التمسك بأن يكون للقدس وضع دولي خاص يحمي جميع الأماكن المقدسة التابعة لكل من الديانات الثلاث، وأن تكون القدس رمزًا عالميًّا للأخوة والسلام، مبنيًّا على سلام مستقر فيها».

ورأى أن «تاريخ المدينة البعيد والقريب أظهر أنه لا يمكن أي شعب أو دين أو دولة أن يحتكره، على رغم ما شهدته من حروب واحتلالات» لافتًا إلى أنه «على مدى تاريخها القديم والحديث والمعاصر هوجمت القدس ٥٢ مرة وتم الاستيلاء عليها وإعادة

تحريرها ٤٤ مرة، وحوصرت ٢٣ مرة، ودمرت مرتين». وذكر بأن «الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧م وافقت على مشروع تقسيم فلسطين دولتين: إسرائيلية وعربية، على أن تبقى القدس تحت إدارة دولية كجسم مستقل، ونشبت الحرب بين اليهود والعرب، وكانت نكبة ١٩٤٨م وتهجير الفلسطينيين، أهل الأرض وأعلنت دولة إسرائيل، وانقسمت القدس غربية إسرائيلية وشرقية عربية»، وأشار إلى أنه «في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٠م قرّر الكنيست أن تكون القدس عاصمة لإسرائيل، فنقض مجلس الأمن هذا القرار وأعلنه باطلًا».



محلق رقم ٢

أسامة سلامة: المسيح يصلب من جديد

مجلة روز اليوسف

القاهرية في ٢٠١٧/١٢/١٦م

«مدينة القدس هي المركز الروحي لليهودية، كما أنها تعد مدينة مقدسة من قِبل المنتمين لمعتقدات دينية أخرى»

ما سبق جاء في ديباجة قانون نقل السفارة الأمريكية للقدس والصادر من الكونجراس الأمريكي في أكتوبر عام ١٩٩٥

ومعنى تفعيل هذا التشريع وصدور قرار من الرئيس الأمريكي ترامب بتنفيذه منذ أيام، أن أمريكا ترى أن القدس بالأساس ملك لليهود، وأن الأديان الأخرى التي لم يذكر اسمها التشريع وكأنها ديانات مجهولة أو غير معترف بها هي مجرد مدينة مقدسة بالنسبة لها، أي أن المسلمين والمسيحيين مجرد ضيوف على هذه المدينة التي يمتلكها اليهود بمفردهم لأنها مركز روحي لديانتهم، ولذا من حق ملاكها استقبال الزوار أو طردهم، كما أنه من حق اليهود إدارة مدينتهم كما يشاؤون، ولعل هذا ما يجب الانتباه إليه خاصة أن تشريع الكونجراس مضى على صدوره ٢٢ عامًا، والخشية أن الذاكرة العربية والإنسانية تنسى بعض ما يتعلق به، خطورة تعبير المركز الروحي لليهودية أنه قد يستعمل مستقبلًا لتفريغ المدينة من المسلمين والمسيحيين إلا في الزيارات التي تسمح بها إسرائيل؛ لأن المقدسات الدينية المسيحية والإسلامية لا تتوازى مهما كانت أهميتها مع المركز الروحي.

ولذا علينا أن نطرح على أنفسنا السؤال: ماذا نفعل لمواجهة تهويد القدس وتجريدها من الهوية الإسلامية والمسيحية؟

نحن نحتاج إلى توحيد الجهود والابتعاد عن توجيه القضية نحو ديانة بعينها مثل رفع الشعارات الإسلامية بمفردها، أو الحديث عن أن المقدسات المسيحية بها أكثر

من الإسلامية، أو الكلام فقط عن المسجد الأقصى دون ذكر كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المسيحية المهمة أو العكس، من الضروري التركيز على أنها ملك للدينين معًا وللإنسانية عمومًا، ولعل المؤتمر الدولي الذي دعا إليه الأزهر يكون فرصة للعمل المشترك، ولهذا يجب أن يكون حضور الكنائس الثلاث الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية قويًّا ومميزًا، كما لابدَّ من جذب الفاتيكان للوقوف بجانب قضيتنا العادلة وإشراكه في الأمر باعتباره أكبر كيان مسيحي في العالم من حيث عدد الأتباع، وعليه واجب ديني وأخلاقي تجاه المزارات المسيحية في المدينة المقدسة والدفاع عنها، خصوصًا أن البابا فرانسيس رأس الكنيسة الكاثوليكية منحاز في مواقفه للإنسانية ومتجاوب مع القضايا العادلة، وتفهمه لخطورة الوضع والقرار على المقدسات المسيحية يجعله يؤثر في مليار ونصف مليار كاثوليكي في العالم وهم قوة كبيرة مطلوب الاهتمام بها.

وأتمنى أن يسافر وفد من الأزهر والكنائس المصرية وعلى رأسها الأرثوذكسية -باعتبارها صاحبة الأغلبية المسيحية في مصر- إلى الفاتيكان، ومقابلة البابا فرانسيس لشرح أبعاد الموقف له، وحبذا لو ضمَّ الوفد ممثلين من جميع الطوائف المسيحية في الدول العربية.

كما يجب أن نلفت نظر المسيحيين المتدينين الحقيقيين في أمريكا من الإنجليين والكنائس الأخرى إلى خطورة المسيحية الصهيونية، وأن نكشف نواياها وابتعادها عن المسيحية الصحيحة، من المهم أيضًا التركيز على أن تهويد القدس والتخلي عن حماية المقدسات المسيحية بها بمثابة صلب للمسيح من جديد على يد اليهود الحاليين، وكل من يصمت على القرار الأمريكي يساعدهم في الاعتداء عليه.

إننا نحتاج حقيقة إلى توحيد العالم الإسلامي بكل مذاهبه وإلى المسيحيين بكل طوائفهم قبل أن تضيع القدس نهائيًّا وتصبح مدينة بلا مسلمين ولا مسيحيين.

ملحق رقم ٣

عقيدة الهيكل وراء قرار أمريكا بخصوص القدس المحتلة

قرار يوم ٦/ ١٢ لترامب هو قرار عقائدي وديني لا سياسي، ويخدم فئتين شديدتي التدين في أمريكا والعالم، أولاهما جزء كبير من جمهور اليهود المتشددين خصوصًا في دولة الاحتلال الإسرائيلي، وثانيتهما -وهي الأكبر عددًا- جمهور الإنجليين الأمريكيين في أوساط البيض في أمريكا، والذين لهم بعض الوجود الضعيف في دول عربية مثل مصر.

جريدة (المصريون) القاهرية
٢٨ ربيع الأول ١٤٣٩هـ
١٧ ديسمبر ٢٠١٧م

يعتقد الإنجليون الأمريكيون، وهو كتلة كبيرة صلبة داعمة لترامب في كل خطواته، أن بسط السيادة اليهودية (وليست الإسرائيلية) تمثل أول خطوة حقيقة تجاه عودة المسيح ونهاية العالم وفق اعتقادهم السائد، ثاني تلك الخطوات هي هدم المباني الأخرى غير المعبد أو هيكل سليمان، وثالثها إعادة بناء الهيكل وفق عقيدتهم، يتبع ذلك خطوة أهم وهي مرحلة الحروب الضارية والمواجهات التي تعرف لديهم باسم (أرماجدون) أو حروب نهاية العالم والتي ستنتهي بعودة المسيح وانتشار المسيحية الإنجيلية في الأرض وتحول الناس للمسيحية -بما فيهم اليهود أنفسهم- وانتهاء الدولة اليهودية واستبدالها بأخرى مسيحية خالصة.

وبحسب تلك الكتلة الضخمة التي تتركز في الجنوب ووسط أمريكا -لكن لها وجود مؤثر في كل الولايات- فإن ما يقوم به ترامب ما هو إلا تحقيق -نصًا- لـ«عودة المملكة» ونبوءة نهاية العالم، وأن من لا يؤمن بهذه النبوءة فإنه لن يكون له «مخلص».

وحتى كتابة هذه السطور يقوم هؤلاء الإنجيليون بدعوة غيرهم من الأمريكان إلى (الخلاص) قائلين إن هذا وقت خلاص أرواحهم بالإيمان بهذه النبوءة.

ويذهب الكثير منهم لخلط الأمور، فيؤكد الآن في أحاديثه في أمريكا أن نهاية العالم تبدأ بالتسليم العالمي -بما فيه من بعض المسلمين والعرب- بأن القدس المحتلة ما هي إلا عاصمة دولة الاحتلال الصهيوني.

ودلائل البعد العقائدي الذي يختار العرب والمسلمون في المنطقة العربية تجاهله، متعددة ومتواترة، فكبير مراسلي شبكة (شبكة البث المسيحي) وهي شبكة تلفزيونية وإعلامية أمريكية رائجة (ديفيد برودي) قال بعد قرار ترامب: «لقد وفى ترامب بوعوده للإنجليين مرة بعد مرة، وبوفائه بوعده لهم بخصوص القدس يصبح ترامب الرئيس الأكثر قربًا من الإنجليين على الإطلاق في التاريخ».

وتقول الكاتبة والمؤلفة الأمريكية (ديانا باتل باس) المتخصصة في دراسة الأصولية المسيحية وأيديولوجية نهاية العالم في الكنائس الإنجيلية البيضاء: «العقود كان يتوق المتدينون الإنجيليون لهذا الإقرار، فهم يعتقدون أنه مهم من أجل إعادة السيطرة على جبل المعبد، وهذا مهم لهم كذلك لأن إعادة بناء المعبد هي الحدث الذي سوف يدشن أحداث سفر الرؤيا (أو كتاب النبوءات في الكتاب المقدسي المسيحي) وانتهاء العالم، أن ترامب يأخذهم الآن إلى ذروة التاريخ وإلى حيث انتصارهم المؤكد.. أن الناس يعتقدون ذلك حقًّا ومنهم من ضحى بحياته من أجل ذلك وهم يتغنون بذلك في كنائسهم».

وأضافت (ديانا باتل باس): «أن ما يقوم به ترامب ليس تحقيق وعد انتخابي، بل هو ينفذ وعدًا دينيًّا».

وما يؤكد ذلك وجود الكثير من المستشارين الإنجيليين لترامب وهم يأخذون بنبوءات نهاية العالم بشكل حرفي، ومنها أن السلام في هذا العالم لا يهم وأن ما يهمهم هو

عودة المسيح، وكل ما عدا ذلك فهو أمر (مزيف) و(غير حقيقي)، ووفق من يتابعون هذه الفئة المؤثرة في أمريكا، فإن هناك الملايين من الأمريكيين من أنصار ترامب يؤمنون بذلك إيمانًا شديدًا في ولاية مثل تكساس وتعد (مدرسة دالاس الدينية) أحد معاقلهم.

والجمهور الآخر وراء قرار ترامب هو من المتشددين اليهود، ومنهم منتمون للحزب الجمهوري وممولون كبار من أثرياء اليهود في أمريكا والعالم، أمثال ملك القمار اليهودي والصهيوني شيلدون أدلسون، صاحب كازينوهات القمار في مديني لاس فيجاس وماكاو بالصين.

إن نظرة العرب والمسلمين للقرار الأمريكي بالاعتراف بسيادة الاحتلال اليهودي على القدس المحتلة على أنه قرار سياسي محض هي نظرة قاصرة، ويذهب البعض لفهمه إلى تفسيرات براجماتية ترى أنه تصرف لتشتيت الانتباه عن أزمة ترامب الداخلية أو أنه قرار يخدم المصالح الأمريكية الإستراتيجية.



ملحق رقم ٤

أسامة الغزولي: كيف نواجه صهيونية ترامب؟

المصري اليوم

٢٠١٧/١٢/٢٩م

تُصَدِّر جريدة هاآرتس الإسرائيلية مقال عوفري إيلاني (إعلان ترامب بخصوص أورشليم يفضح جوهر الصهيونية) (١٥/ ١٢) بعبارة بالغة الأهمية، يقول فيها: «ليست الصهيونية مجرد حركة قومية يهودية، إنها أيديولوجية كونية يرعاها ويمولها مسيحيون».

وإذا كان قرار ترامب بخصوص القدس إنجازًا للدبلوماسية الإسرائيلية، فأهم من ذلك -برأيه- أنه نجاح أحرزه المسيحيون الإنجليكانيون الأمريكيون، وقد حول الإنجليكانيون دعوة لوثر للعودة إلى التوراة إلى فهم حرفي لنصوصها، فكرَّسوا حياتهم لإعادة اليهود إلى جبل صهيون. وبادرت بريطانيا إلى ذلك بوعد بلفور. وبعد أن طغت الاعتبارات السياسية على الاعتبارات الدينية عند البريطانيين، كما يقول إيلاني، تولَّى الأمريكيون رعاية الصهيونية التي صار الرؤساء الأمريكيون (يرضعونها مع حليب أمهاتهم). وهو يستشهد على ذلك بأن راعي الكنيسة التي تبعها بيل كلنتون جعله يقسم على أن لا يتخلى أبدًا عن إسرائيل.

كل هذا معروف لكن الجديد هو الحسم في عبارة إيلاني التي صَدَّر بها مقاله، ثم في العبارة التي ينهي بها مقاله: «ما يُبقي على المملكة الصهيونية في الأرض المقدسة هو المساندة النشطة من جانب عشرات الملايين من المسيحيين المتدينين، هم أصحاب الأرض الحقيقيون. وبهذه الصفة، فهم من يحدد القيمة الإيجارية».

والقيمة الإيجارية هي مساندة البروتستانتية في حربها على الإسلام والمسلمين، وهي الحرب التي تُؤَمِّن فصائل الإسلام السياسي منذ العام ١٩٢٨م مبرراتها، كما تُؤمِّن المادة الخام التي يُصنِّع منها دعاة الكراهية دعاياتهم المسمومة.

هذا يجبرنا -نحن الرافضين للأصوليات- على التحالف مع أمثال إيلاني في إسرائيل - فلسطين، لنجعل الدولة العبرية شريكًا إقليميًّا في عصر تتأهب فيه واشنطن لتنفيذ الرؤية التي طرحتها هيلاري كلنتون في ٢٠١١م في الفورين آفيرز، بنقل الثقل الأمريكي بعيدًا عنا، إلى منطقة المحيطين الباسيفيك والهندي.

ومع انزياح (الهم الأمريكي) عن أكتافنا وأكتاف اليهود فإن القبول بإسرائيل - فلسطين شريكًا إقليميًّا، على النحو الذي اقترحه عبد الناصر، كما ذكرت الإذاعة المصرية الناطقة بالعبرية في يوم ١٠ فبراير ١٩٥٨م (قبل ١٢ يومًا من الوحدة مع سوريا!)، وطبقًا لما جاء في كتاب منتصر مظهر (عبد الناصر): الملف السري (ص٢٦) أو عبر ترتيبات أضيق نطاقًا.

تضمن التعايش الطبيعي بين الفلسطينين والإسرائيليين في فضاءات التاريخ وليس في فضاءات الخرافة العرقية والدينية، يمكن أن يؤمن الضمانة التي تغني إسرائيل عن التبعية للإنجليكانية الأمريكية المتهوسة، ويفرض عليها عقلانية فقدتها منذ ورطتها المخابرات الحربية الأمريكية، وبغير علم السي آي أيه، في مهاجمة مصر في ١٩٦٧م (كما أوضح جلال كشك في كتاب «ثورة يوليو الأمريكية ١٩٨٨»)، وحرضت جنرالاتها على منع قيادتهم السياسية من قبول عرض عبد الناصر بإنهاء الصراع، وفقًا لما ذكره يفجيني بريماكوف، ومايكل أورين، وآلان جريش الذي وصف موقف الجنرالات في اللوموند ديبلوماتيك، بأنه كان أشبه بانقلاب، وإذا أمكننا إعادة إسرائيل لعقلها الذي فقدته بانتصارها في ١٩٦٧م.

الانتصار الذي انتشلها من أزمة اقتصادية وسياسية عابرة ليورطها في أزمة بنيوية خطيرة، سيصبح من الممكن تشجيعها على احترام حقوق الديانات الإبراهيمية الثلاث في القدس، والتوصل لأسس معقولة لتعايش عربي - إسرائيلي.

والتحرك في هذا الاتجاه يمكن له، إن قمنا بدور فعال في ضبط حركة الهجرة واللجوء إلى أوروبا الغربية والوسطى وقطع حبال التواصل بين الأصولية العربية والانفصالية الشيشانية، أن يحظى بمساندة القوى الكولونيالية السابقة، الروسية والفرنسية والإيطالية، التي تدخل منطقتنا اليوم، لتملأ فراغ الهيمنة الذي ستتركه وراءها أمريكا، هذه القوى لا تسعى اليوم للاستعمار الذي راحت أيامه، ولكن لهيمنة يمكن التواصل معها لحلول وسط، لننشئ معها علاقة تشبه تلك التي قامت بين أمريكا وأوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وخرجت بها أوروبا الغربية من أزمنة الاحتراب إلى توافق توجته الوحدة الأوروبية، ولا شكَّ في أن هذا التحرك ستحكمه، من جهتنا، المصالح الخاصة بكل دولة عربية على حدة، ثم تقييمنا لمعالجة قوى الهيمنة الجديدة لمشكلات سوريا والعراق وليبيا ولبنان واليمن ولصراع مصر مع الإرهاب في سيناء، وطبيعة تفاهمات هذه القوى مع إيران وتركيا... ثم معالجتها لأوضاع الفلسطينيين.



ملحق رقم ٥

وفاة القس جيري فالويل..
الأب الروحي لليمين المحافظ في أمريكا

حارب الإجهاض والشذوذ... واشتهر بولائه لإسرائيل وعدائه للإسلام

المصري اليوم

٣٠ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ

١٧ مايو ٢٠٠٧م

كتب أيمن حسونة:

توفي القس جيري فالويل -أشهر زعماء اليمين المسيحي المحافظ- أمس في مستشفى (ليشبرج العام) بولاية فيرچينيا، عن عمر يناهز (٧٣ عامًا) بعد أن عثر عليه غائبًا عن الوعي في مكتبه، وعزى الرئيس الأمريكي چورچ بوش فالويل، ووصفه بأنه كان داعمًا للإيمان والأسرة والحرية.

وأصبح فالويل زعيمًا بارزًا لليمين الديني في الثمانينيات من القرن الماضي، حيث أسس تحالف (الأغلبية الأخلاقية)، ولاحقًا جامعة ليبرتي (الحرية)، وهدف التحالف السياسي المسيحي لـ(الأغلبية الأخلاقية) إلى تشجيع انتخاب المحافظين وحظر الإجهاض وإعادة الصلوات المسيحية إلى المدارس الأمريكية، ويعتبر فالويل بمثابة أب روحي للحركة السياسية الإنجيلية بحسب توصيف إذاعة (بي بي سي).

تحالف فالويل مع الجمهوريين، وأصبح من الشخصيات المؤثرة في سياسات الحزب منذ الثمانينيات، وقدم دعمًا كبيرًا لهم في الانتخابات حتى أصبح (مهندس) انتخابات رونالد ريجان وجورج بوش الأب، وأخيرًا بوش الابن.

ويعارض فالويل الإجهاض والشذوذ، وغيرها من القضايا العديدة التي تخالف معتقداته المسيحية الأصولية، وبعد وقت قصير من هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، قال فالويل: «إن انتشار (اللواط) والإلحاد وقضايا الحقوق المدنية وتشريع الإجهاض في الولايات المتحدة، قد أثار غضب الله (مما ساعد في حدوث ما حدث)».

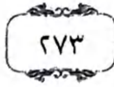
ويعتبر من أشد المؤيدين لإسرائيل في التيار اليميني المسيحي، الذي تحالف مع الصهيونية اليهودية، صاحبة فكرة الربط بين إنشاء الدولة اليهودية وظهور المسيح، والتي كان ريجان من مؤيديها، وقاد فالويل العديد من اللقاءات بين ريجان وقيادات لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية (إيباك).

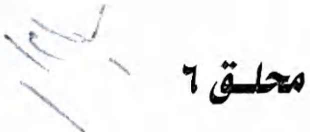
وفي واقعة تبرز قوة التيار المسيحي الصهيوني، يكتب واغنر أنه بعد تدمير إسرائيل للمفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١م، لم يقم رئيس الوزراء الإسرائيلي بيجن بالاتصال بالرئيس الأمريكي، بل بـ(جيري فالويل) طالبًا منه أن يشرح للمجتمع المسيحي الأمريكي أسباب الضربة الإسرائيلية للعراق.

كما اشتهر فالويل بعدائه الشديد للإسلام، وسب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابلة مع شبكة (سي بي إس) الأمريكية عام ٢٠٠٢م، ووصفه بأنه «إرهابي» وقال: «إن محمدًا كان رجل عنف ورجل حرب»، وأضاف: «في رأيي أرسى المسيح مثالًا للحب، وموسى فعل الشيء نفسه، لكن محمدًا ضرب المثل المناقض لهما» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولد فالويل يوم ١١ أغسطس ١٩٣٣م بمدينة لينشبرج في ولاية فيرجينيا الأمريكية، وكان ملتزمًا بالتعاليم المسيحية في صباه، الأمر الذي جعله يتوجه إلى دراسة الدين.







محلـق ٦

إن الدوافع الدينية حاضرة وبقوة حيث الدور الجديد لكنيسة الأرثوذكسية الروسية وجهودها العملية الحادة لإعادة صياغة الهوية النصرانية الروسية للوقوف أمام الثقافات والأيدولوجيات الأخرى، وعلى رأسها الإسلام، فالحكومة الروسية ترى أن المدَّ الإسلامي في روسيا يتطلب هذا الغزو الجديد ومن مظاهر هذه العودة للهويَّة الروسية النصرانية -بعد فشل الشيوعية هويَّةً للروس- وجود لجان رسمية تعمل منذ عام ٢٠١١م لتنصير جميع مظاهر الحياة في روسيا: في القانون والأسرة والمجتمع والثقافة والمظاهر العامة.

ومن أهمية إعادة هذه الهويَّة الدينية لروسيا أن بلغت ميزانية الكنيسة وحدها ما يفوق ميزانية وزارتيّ التعليم والتعليم العالي مجتمعين.

واعتماد الحكومة الروسية في بداية صيف ٢٠١٢م لمشروع بناء ٣٠٠ كنيسة في موسكو وحدها مؤشر لما سبق، بينما لم يسمح للمسلمين إلى الآن أن يبنوا مسجدًا جديدًا واحدًا بعد المساجد الأربعة القديمة في موسكو، برغم أن المسلمين في تزايد كبير، وبرغم توفر تمويل مشروعات البناء الجاهزة على طاولة الجهات الرسمية والتي لم يسمح بالبدء فيها.

لقد أصبح الروس يسابقون الأمريكان في صناعة الصراع بأرض الإسلام والمسلمين في استباحة أرضهم ودينهم وحقوقهم لتحقيق أهدافهم الإستراتيجية، ومنها بناء قواعدهم العسكرية في سوريا بأهداف أوسع من القضية السورية.

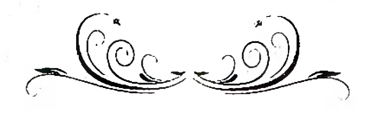
(من مقال بعنوان «الرؤية المستقبلية للصراع» بقلم: محمد بن عبد الله السلومي)

مجلة البيان، رجب ١٤٣٧هـ - مايو ٢٠١٦م

وعن أوضاع المسلمين في سوريا:

يقول الأستاذ محمد علي قطب: «من التزوير الفاضح على التاريخ أن ينطلي أكذوبة الأقليات الإسلامية في الاتحاد السوڤيتي، ليس هناك رقم محدَّد لعدد المسلمين هناك، ولكنه لا يقل بحال من الأحوال عن الخمسين مليونًا من البشر... حسب ما يُنشر ويذاع من إحصائيات عن الكثافة السكانية في المناطق الإسلامية (وذلك عام ١٩٨٥م). فهل يُشكل هذا الرقم (أقلية) بالنسبة إلى التعداد العام للاتحاد السوڤيتي؟».

(محمد علي قطب: مذابح وجرائم: محاكم التفتيش في الأندلس (ص١٣٥-١٣٦)، ط. مكتبة القرآن، بولاق - القاهرة ١٩٨٥م).



المصادر والمراجع

❋ أجنحة المكر الثلاثة وتوابعها التبشير .. الاستشراق .. الاستعمار - عبد الرحمن بن حسن حبنكة - دار القلم، ١٩٧٥م.

❋ اختراق الصهيونية المسيحية - إكرام لمعي - دار الشروق - ١٩٩١م.

❋ أسرار الماسونية - الجنرال جواد رفعت أتلخان - مكتبة وهبة - ١٩٨٩م.

❋ إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (مقالة) - سليمان الشيخ - مركز البحوث باسطنبول - مجلة العربي - عدد ٣١١ - ١٩٨٤م.

❋ الأصولية - عمرو الشوبكي - ط. نهضة مصر - ٢٠٠٧م.

❋ الإسلام في وجه الزحف الأحمر - محمد الغزالي - مكتبة الأمل بالكويت - أكتوبر ١٩٦٦م.

❋ الأرباقانية «حركة نجم الدين أربقان» - د. محمد حرب - مجلة المنار الجديد - أكتوبر ١٩٩٨م.

❋ الاتجاهات الوطنية - د. محمد حسين.

❋ الإسلام والغرب في كتابات الغربيين - د. زغلول النجار - ط٥ - نهضة مصر ٢٠٠٧م.

❋ الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في الصعود - د. مراد هوفمان - مكتبة الشروق ٢٠٠١م.

❋ الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه - د. يوسف القرضاوي - دار الصحوة - ١٩٨٧م.

❋ الإسلام عام ٢٠٠٠ - د. مراد هوفمان - ترجمة عادل المعلم - مكتبة الشروق - ١٩٩٥م.

❁ الإسلام وجه الزحف الأحمر - محمد الغزالي - مكتبة الأمل - أكتوبر ١٩٦٦م.
❁ الإسلام اليوم - أبو الأعلى المودودي - كتاب رقم ٤٤ - ط. الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٩٨٣م.
❁ الإسلاميون الجدد والعلمانية الأصولية في تركيا - عبد الحليم غزالي - مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٧م.
❁ الإسلام والخلافة في العصر الحديث، د. محمد ضياء الدين الريس، منشورات العصر الحديث ١٩٧٢م.
❁ الإسلام السياسي والدولة العلمانية في تركيا - إيفا نجيليا أكسيارليس - ط. مجموعة النيل العربية ٢٠١٦م.
❁ الإسلام في القرن العشرين - عباس محمود العقاد - الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٩٣م.
❁ الإسلام في عصر العلم: الدين والرسول ﷺ والكتاب - د. محمد أحمد الغمراوي - مطبعة السعادة - ١٩٧٣م.
❁ الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد.
❁ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - د. محمد حسين - ط٢ - مكتبة الآداب بمصر - ١٩٦٨م.
❁ الرسالة الخالدة - عبد الرحمن عزام - ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
❁ الاستعمار كظاهرة عالمية - د. حورية مجاهد.
❁ الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآني - العلامة محمد تقي الأميني - دار الصحوة - حلوان ١٩٨٥م.
❁ الإسلاميون وتركيا العلمانية نموذج الإمام سليمان حلمي - د. هدى درويش - ط. الآفاق العربية بالقاهرة - ١٩٩٨م.

❁ الأزهر في ألف عام - د. بيارد ددج - ترجمة د. حسين فوزي النجار - ١٩٩٤م.

❁ التجربة النهضوية التركية - محمد زاهر جول - مركز نماء للبحوث والدراسات - الرياض.

❁ الجذور الدينية للصراع السياسي في إسرائيل - د. هدى درويش - ط. الدار الثقافية للنشر بالقاهرة - ٢٠١٤م.

❁ الحجاب بين الأديان والحداثة والعولمة - د. هدى درويش - المكتب العربي للمعارف - ط١ - ٢٠١٦م.

❁ الحضارة الإسلامية: حضارة سلام لا حرب - د. مصطفى حلمي - ط. الدار العربية بالإسكندرية.

❁ الحق المر - محمد الغزالي - ج٢ - دار الشروق ١٩٨٩م.

❁ الحركة الإسلامية في تركيا - د. إبراهيم الدسوقي شتا - ط. الزهراء للإعلام العربي - ١٩٨٦م.

❁ الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي - إسماعيل الكيلاني - مكتبة الأقصى - قطر.

❁ التاريخ والمؤرخون - دراسة في علم التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ - د. حسين مؤنث - دار المعارف - مصر - ١٩٨٤م.

❁ الدين في عالم اليوم - ميزان مشيد ولوف - ترجمة جمال السيد - ط. دار العالم الجديد - القاهرة - ١٩٩٠م.

❁ الدين والسياسة في الولايات المتحدة الأمريكية - مايكل كوربت - وجوليا ميتشل كوربت - مكتبة الشروق - ٢٠٠١م.

❁ الدولة العثمانية عوامل النهضة والسقوط - د. علي محمد الصلابي - دار المعرفة بيروت ٢٠٠٨م.

❁ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - د. عبد العزيز الشناوي - مكتبة الأنجلو المصرية - ٢٠١٠م.

❁ الدين والدولة في تركيا - صراع الإسلام والعلمانية - د. كمال سعيد حبيب - مكتبة الأسرة - ٢٠٠٩م.

❁ السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية - زياد أبو غنيمة - دار عمار - الأردن - ١٩٨٤م.

❁ السيف والهلال - رضا هلال - دار الشروق - ١٩٩٩م.

❁ السلفيون وعلمانية أردوغان (مقال) - رئيس تحرير مجلة صباح الخير - عدد ٢٩٠٧ - ٢٠ سبتمبر ٢٠١١م.

❁ الصهيونية غير اليهودية جذورها ونفوذها في التاريخ الغربي - د. ربجينا الشريف - مكتبة الشروق الدولية - ٢٠١٠م.

❁ الصحوة الإسلامية الحاضر والمستقبل (مقالة) - فهمي هويدي - مجلة المسلم المعاصر - ١٩٨٨م.

❁ العثمانيون في التاريخ والحضارة - د. محمد حربي.

❁ العسكرية التركية... الفاعل الرئيسي أم الوكيل (مقال) - زكي سارجيل - مجلة شئون تركية - مركز الأهرام - العدد الخامس - ٢٠١٦م.

❁ الغارة على العالم الإسلامي - شاتليه - ترجمة محب الدين الخطيب واليافي.

❁ العروبة والإسلام «الرد على ساطع الحصري وميشيل غفلق وأنطون سعادة» - أنور وجدي - ط. دار الاعتصام بالقاهرة - ١٩٧٦م.

❁ العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب - محمد جميل بيهم - المطبعة الوطنية - بيروت - مارس ١٩٥٧م.

❁ العثمانيون في التاريخ والحضارة - د. محمد حرب - المركز المصري للدراسات العثمانية بالقاهرة - ١٩٩٤م.

❁ العالم من منظور غربي - د. عبد الوهاب المسيري - كتاب الهلال بالقاهرة - عدد ٦٠٢ - فبراير ٢٠٠١م.

❁ القرآن والتوراة والإنجيل في عصر العلم - موريس بوكاري - دار المعارف.

❁ القدس مدينة واحدة - عقائد ثلاث - كارين آرمسترونج.

❁ الله ليس كذلك - زيجريد هونكه - د. غريب أحمد غريب - دار الشروق ١٩٩٥م.

❁ الماركسية والغزو الفكري - محمد جلال كشك - ط٢ - الدار القومية بالقاهرة - ١٩٦٥م.

❁ المعجزة المتجددة في عصرنا - صالح اليافعي - دار القدس - صنعاء - ودار الإيمان بالإسكندرية ٢٠٠٤م.

❁ المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية - (١٢٩٩-١٩٢٣م) - محمود ثابت الشاذلي - مكتبة وهبة بالقاهرة - ١٩٨٩م.

❁ المحافظون الجدد: منظرون لخراب العالم (مقال) - علي عبد العال - مجلة أدب ونقد - نوفمبر ٢٠٠٧م - عدد ٢٦٧.

❁ المسلمون قادمون.. قادمون - عادل سعيد بدوي - دار الدعوة بالإسكندرية ٢٠٠٧م.

❁ المد والجزر في تاريخ الإسلام - أبو الحسن الندوي - الشركة المتحدة بيروت - دار القلم ١٩٧١م.

❁ المقالات المحظورة - فهمي هويدي.

❁ المسلمون والصراع السياسي الراهن - أبو الأعلى المودودي - دار الأنصار بالقاهرة - يوليو ١٩٨١م.

❁ النكسة.. والغزو الفكري - محمد جلال كشك - ط٢ - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٩م.

❁ النموذج التركي العلماني.. فكرة للتصدير (مقالة) - سعيد عبد المجيد - مجلة المنار الجديد - يوليو ٢٠٠٢م.

❁ النورسي متكلم العصر الحديث - د. محسن عبد الحميد - ط. سوزلر للنشر - مدينة نصر ١٩٩٤م.

❁ الهجرة المطلوبة في أيامنا (مقال) - مجلة منبر الإسلام - مصر - عدد ١ - محرم ١٤٢٩هـ - يناير ٢٠٠٨م.

❁ النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة - مصطفى صبري - دار ابن الجوزي - يناير ٢٠٠٨م.

❁ أضواء على التربية الإسلامية - علي القاضي - دار الأنصار بالقاهرة - ١٩٧٩م.

❁ أيام ترامب الأولى - حقائق مغلوطة - أيمن الصياد - جريدة الشروق القاهرية - ٥/ ٢/ ٢٠١٧م.

❁ بانون فقط يعرف ما يرغب به بانون (مقالة) - د. هشام الحمامي - صفحة الرأي - جريدة المصريون - القاهرة ١٢/ ٢/ ٢٠١٧م.

❁ بديع الزمان سعيد النورسي - في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي - ط. سوزلر للنشر - مدينة نصر القاهرة ١٩٩٣م.

❁ تحت راية القرآن - مصطفى صادق الرافعي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ١٩٦٦م.

❁ تفكيك أمريكا - رضا هلال - دار مصر المحروسة بالقاهرة - ط٣ - ٢٠٠٣م.

❁ ترامب ليس الحاكم الفعلي لأمريكا (مقالة) - إنجي مصطفى - جريدة المصريون - ٥/ ٢/ ٢٠١٧م.

❁ ترامب ليس «هتلر» آخر - حدة حزام - جريدة الشروق المصرية ٥/ ٢/ ٢٠١٧م - نقلًا عن الفجر الجزائرية.

❁ تركيا الإسلامية.. الحاضر ظل الماضي - د. زينب أبو سنة - الدار الثقافية للنشر بالقاهرة ٢٠٠٦م.

❁ تركيا: العلمانيون الجدد والعثمانيون الجدد - د. باكينام الشرقاوي - مجلة مستقبل العالم الإسلامي - ملطا - عدد ١٩ - ٢٠٠٩م.

❁ تاريخ الصحافة الإسلامية - أ. أنور الجندي - دار الأنصار - ١٩٨٣م.

❁ تركيا الأمة الغاضبة - كرم أوكتم - ط. سطور - ٢٠١٢م.

❁ تركيا الديمقراطية وحزب العدالة والتنمية - إيفا نجيليا - ط٢.

❁ تركيا الكمالية تشترك مع الصهيانية في العداء للإسلام (مقالة) - د. إسماعيل المنصور - مجلة البيان أكتوبر ٢٠٠٦م.

❁ تركيا التي لا نعرفها.. الانقلابات العسكرية في الجمهورية التركية - د. علاء بكر - دار الخلفاء الراشدين بالإسكندرية - ٢٠١٦م.

❁ تجديد الفكر العربي - د. زكي نجيب محمود - دار الشروق - القاهرة ١٩٨٢م.

❁ تفسير ابن كثير - دار الفكر - بيروت - ج١ - ١٩٨١م.

❁ ثأر الله - الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث - جيل كيبل - ترجمة نصيرة مراد - ط٢ - دار قرطبة - ١٩٩٨م.

❁ جذور العلمانية - د. السيد فرج - دار الوفاء بالمنصورة ١٩٨٥م.

❁ حكاية أتاتورك والإسلام - عبد الحميد الكاتب - كتاب اليوم - ١٩٩٣م.

❁ حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية - د. مصطفى عبد الغني - مكتبة الأسرة - ٢٠٠١م.

❁ حاضر العالم الإسلامي - شكيب أرسلان.

❁ حرب صليبية بكل المقاييس - د. زينت عبد العزيز - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة - ٢٠٠٣م.
❁ حرب ترامب المقدسة (مقال) - محمد المنشاوي - جريدة الشروق القاهرية - ٢/١٢/٢٠١٦م.
❁ حصاد القرن العشرين.. رجال صاغوا القرن - فؤاد شاكر - مكتبة الأسرة بمصر ٢٠٠١م.
❁ خريطة الحكم في واشنطن (مقالة) - محمد المنشاوي - جريدة الشروق - ١٧/٢/٢٠١٧م.
❁ دراسات في الرأي العام - د. حامد عبد الماجد - مكتبة الشروق الدولية - ٢٠٠٣م.
❁ رئيس الإهانة: الولايات المتحدة في عهد ترامب (مقالة) - حسن منيمنة - جريدة الحياة اللندنية.
❁ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي - ٢٠٠٦م.
❁ سعيد النورسي.. المصلح الذي تجسدت في دعوته كل حركات التجديد والإصلاح - د. عبد الودود شلبي - (بحث).
❁ شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث - مريم جميلة - ترجمة طارق السيد خاطر - ط. المختار الإسلامي.
❁ صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي - صامويل منتنجتون - ترجمة طلعت الشايب - ط. سطور ١٩٩٨م.
❁ صفحات من تاريخ الخلافة الإسلامية - سعيد عبد المجيد - مجلة المنار الجديد - سبتمبر ٢٠١٠م.

❁ صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع - د. أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٩٦م.

❁ ضلالة فصل الدين عن السياسة - الإمام الأكبر الشيخ محمد خضر حسين - هدية مجلة الأزهر.

❁ عقيدة الدمار والتدمير (مقالة) - أسامة غيث - الأهرام - ٦/ ١/ ٢٠٠٧م.

❁ عن الحرية أتحدث - د. زكي نجيب محمود - دار الشروق - نوفمبر ١٩٨٦م.

❁ فوبيا الإسلام في الغرب - د. سعيد اللاوندي - كتاب اليوم - عدد ٤٨١ - أبريل ٢٠٠٦م.

❁ فقه الابتلاء - د. ماهر بن صمد المعتقلي - مجلة التوحيد - جمادي أولى - ١٤٣٨هـ.

❁ قبل الكارثة نذير ونفير - عبد العزيز مصطفى كامل - كتاب المنتدى الإسلامي لندن ٢٠٠١م.

❁ قوة اليهود في أمريكا - جوناتان جولبرميرج - ترجمة نهال الشريف - دار الهلال - ١٩٩٧م.

❁ قصة الاضطهاد الديني - د. توفيق الطويل.

❁ قمم وأفكار - سامح كريم - دار الوفاء ١٩٨٤م.

❁ قيم من التراث - د. زكي نجيب محمود - مكتبة الأسرة - دار الشروق ١٩٩٩م.

❁ قراءة في فكر أوغلو - (مقال) - علي جلال معوض - مجلة السياسة الدولية - عدد ١٧٩ - يناير ٢٠١٠م.

❁ كيف يمكن أن يكون ما يجري مقبولًا؟ - (مقال) - نهلة الشهال - جريدة الحياة اللندنية - ٥/ ٢/ ٢٠١٧م.

❁ كتابيه - عمرو موسى - دار الشروق - مارس ٢٠١٧م.

❁ كمال أو الذئب الأغبر - كارين آرمسترونج - ترجمة حلمي فؤاد - دار المعارف بمصر - سلسلة اقرأ - ١٩٧٦م.
❁ لماذا سقطت الخلافة العثمانية؟ - د. غازي التوبة.
❁ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف - ابن رجب - المكتب الإسلامي -٢٠٠٧م.
❁ لماذا سقطت الخلافة العثمانية.. قراءة في عوامل ضعف الأمة - د. غازي التوبة - المكتب الإسلامي - بيروت ٢٠٠٨م.
❁ معارك في سبيل الإله.. الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام - كارين آرمسترونج - ترجمة د. فاطمة نصر - د. محمد عناني - ط. سطور - ٢٠٠٠م.
❁ مستقبل الحضارة بين العلمانية.. الشيوعية.. الإسلام - ط. المختار الإسلامي بمصر ١٩٧٤م.
❁ مسيرة الإسلام - كارين آرمسترونج - ترجمة د. هشام الحناوي - ٢٠١٢م.
❁ مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية - د. عبد الرحمن النقيب - ط. دار السلام - ٢٠١٠م.
❁ مختصر مستقبل التاريخ - توينبي.
❁ مذكرات السلطان عبد الحميد - ترجمة وتقديم وتحقيق د. محمد حرب عبد الحميد - ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.
❁ ملامح تربوية في رسائل النور - محمد رشدي عبيد.
❁ محاكمة قادة الانقلاب العسكري في تركيا (مقالة) - ممدوح المنير - مجلة الشعب - القاهرة ١٧/ ٩/ ٢٠١٣م.
❁ محاسن التأويل - القاسمي - ط. عيسى الحلبي - ١٣٢٧هـ.

❁ منهاج الإسلام في الحكم - محمد أسد - دار العلم للملايين - بيروت - ط٢ - ١٩٦٤م.

❁ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - الإمام أبو الحسن الندوي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٧م.

❁ نبوءات النبي ﷺ في فتن آخر الزمان - محمد بيومي - دار الهدى - ٢٠٠٢م.

❁ هويتنا الإسلامية في مفترق طرق - أ.د. محمد السيد الجليند - ط١ - المكتبة الأزهرية للتراث - ٢٠١٢م.

❁ وجه واحد.. وثلاثة أقنعة - صلاح الدين حافظ - جريدة الأهرام في ٢٣ ذي الحجة ١٤٢٨هـ - ٢ يناير ٢٠٠٨م.

❁ يوم الإسلام - أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٥٢م.



المحتويات

تم بحمد الله

هذا الكتاب يتضمن دراسة متكاملة لإحدى القضايا التي شغلت المثقفين عامة ، والإسلاميين خاصة ، وكانت موضوع حوارات ومناقشات بينهم ، وهي قضية العلمانية ، ومدى صلتها بالعقائد الدينية



01000282166 - 01120774990
www.alamal-publications.com
Daralamal2014@gmail.com
Daralamal2014